تأملات شيخ الاسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الحديد
٥٧

رقية محمود غرايبة

الفهرس

الفهرس(٢)

~§§ الحديد(مدنية)٢٩ §§~

مقدمة الحديد

سورة الحديد مدنية عند الجمهور و قد قيل إنها مكية و هو ضعيف لأن فيها ذكر المنافقين و ذكر أهل الكتاب و هذا إنما نزل بالمدينة لكن يمكن أنها نزلت قبل كثير من البقرة ففي الجملة نزول أول الحديد و آخر الحشر قبل آية الكرسي ممكن و الأنعام و يس و غيرها نزل قبل آية الكرسي بالإتفاق [1]

[111] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٠٥

الحديد ١ ـ ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢} هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٣} هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٤}

تسبيح المخلوقات هو من جهة إلاهيته سبحانه وتعالي

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبده بل قد يجعل معه إلها آخر وأما الملائكة فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيذ بها فيقول أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربو بيته وملكه وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك وهم غالطون في هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا فإن المعقول الذي لهم يعرفهم أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية وغائية والذي ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علوا كبيرا فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة

إلاهيته سبحانه وتعالي وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالي {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }الحج١٨ فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعا وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبيه الله تعالي إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالي {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }آل عمران٨٣ وكذلك في قوله {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ }الرعد١٥ وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج١٧ فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً }الجن١١ وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا وقال سبحانه {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ {٤٨} وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{٤٩} يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ{٥٠} النحل٤٨ ـ٥٠ وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالي {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ }النور٤١ وقال تعالي {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الحديد١ {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الحشر١ {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الصف١ {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }الجمعة١ {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }التغابن١ [1]

الرب تعالى بائن من مخلوقاته

قال الله تعالى {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الحديد١ فجميع ما فى السموات والأرض يسبح لله ليس هو الله ثم قال تعالى { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢} هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٣}الحديد٢-٣ وفى صحيح مسلم عن النبى أنه كان يقول فى دعائه اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن اعوذ بك من شر كل دابة انت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:٢٥ـ ٢٦

فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنى الدين وأغننى من الفقر ثم قال { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٤} }الحديد٤ فذكر أن السموات والأرض وفى موضع آخر وما بينهما مخلوق مسبح له واخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء وأما قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ }الحديد٤ فلفظ مع لا تقتضى فى لغة العرب أو يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر كقوله تعالى {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ وقوله تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ}الفتح٢٩ وقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ }الأنفال٧٥ ولفظ مع جاءت فى القرآن عامة وخاصة فالعامة فى هذه الآية وفى آية المجادلة {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }المجادلة٧ فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثورى واحمد بن حنبل هو معهم بعلمه وأما المعية الخاصة ففى قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨وقوله تعالى لموسى { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦وقال تعالى { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ يعنى النبى وأبا بكر رضى الله عنه فهو مع موسى وهارون دون فرعون ومع محمد وصاحبه دون أبى جهل وغيره من أعدائه ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين فلو كان معنى المعية انه بذاته فى كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام بل المعنى انه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون اولئك وقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ }الزخرف٨٤ أى هو إله من فى السموات وإله من فى الأرض كما قال الله تعالى { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الروم٢٧ وكذلك قوله تعالى {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ }الأنعام٣ كما فسره أئمة العلم كالامام احمد وغيره انه المعبود فى السموات والأرض واجمع سلف الأمة وأئمتها على ان الرب تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم انه ليس كمثله شيء فى صفات الكمال كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{١} اللَّهُ الصَّمَدُ{٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤} الاخلاص ١-٤ قال ابن عباس الصمد العليم الذى كمل فى علمه العظيم الذى كمل فى عظمته القدير الكامل فى قدرته الحكيم الكامل فى حكمته السيد الكامل فى سؤدده وقال ابن مسعود وغيره هو الذى لا جوف له و الاحد الذى لا نظير له فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفى النقائص عنه واسمه الاحد يتضمن اتصافه انه لا مثل له وقد بسطنا الكلام على ذلك فى تفسير هذه السورة وفى كونها تعدل ثلث القرآن [1]

فهناك قسم يقولون أنه بذاته فى كل مكان كما يقوله النجارية وكثير من الجهمية عبادهم وصوفيتهم وعوامهم يقولون أنه عين وجود المخلوقات كما يقوله أهل الوحدة القائلون بأن الوجود واحد ومن يكون قوله مركبا من الحلول والاتحاد وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب ويتأولون نصوص العلو والاستواء وكل نص يحتجون به حجة عليهم فان المعية أكثرها خاصة بأنبيائه

---

[11] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٤٨

وأوليائه وعندهم أنه فى كل مكان وفى النصوص ما يبين نقيض قولهم فانه قال {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الحديد١ فكل من فى السموات والأرض يسبح والمسبح غيرالمسبح ثم قال { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ {٢} الحديد٢ فبين أن الملك له ثم قال { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٣} الحديد٣ وفى الصحيح أنت الاول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء فاذا كان هو الأول كان هناك ما يكون بعده واذا كان آخرا كان هناك ما الرب بعده واذا كان ظاهرا ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه واذا كان باطنا ليس دونه شيء كان هناك اشياء نفى عنها أن تكون دونه[1]

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قال تعالى{ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الحديد٢

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا و قد بسطت الكلام فى الرد على من أنكر قدرة الرب فى غير مو ضع كما قد كتبناه على الأربعين و المحصل و فى شرح الأصبهانية و غير ذلك و تكلمنا على ما ذكره الرازى و غيره فى مسألة كون الرب قادرا مختارا و ما و قع فيها من التقصيرالكثير مما ليس هذا مو ضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقو ن الرسل فنقو ل هنا مسائل المسألةالأو لى قد أخبر الله أنه على كل شئ قدير و الناس فى هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقو ل هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين و كذلك دخل فى المقدو ر كما قال ذلك طائفة منهم إبن حزم و طائفة تقول هذا عام مخصو ص يخص منه الممتنع لذاته فإنه و إن كان شيئا فإنه لا يدخل فى المقدو ر كما ذكر ذلك إبن عطية و غيره و كلا القو لين خطأ و الصواب هو القو ل الثالث الذى عليه عامة النظار و هو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبتة و أن كانو ا متنازعين فى المعدو فإن الممتنع لذاته لايمكن تحققه فى الخارج و لا يتصوره الذهن ثابتا فى الخارج و لكن يقدر إجتماعهما فى الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع فى الخارج إذ كان يمتنع تحققه فى الأعيان و تصوره فى الأذهان إلا على و جه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة و السكون فى الشيء فهل يمكن فى الخارج أن يجتمع السواد و البياض فى محل و احد كما تجتمع الحركة و السكو ن فيقال هذا غير ممكن فيقدر إجتماع نظيرالممكن ثم يحكم بإمتناعه و أما نفس إجتماع البياض والسواد فى محل و احد فلا يمكن و لا يعقل فليس بشيء لا فى الأعيان و لا فى الأذهان فلم يدخل فى قو له و هو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء فى الخارج عند الجمهور و هو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادرا إلا على موجود و ما لم يخلقه لايكون قادرا عليه و هذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يرده و يحكى هذا عن تلميذ النظام و الذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظارالمثبتة كالأشعرى ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد و غيرأحمد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٢٣ ومجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٢٨

كالقاضى أبى يعلى و إبن الزاغو ني و غيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود و هؤلاء قالوا هو قادر على المو جو د والمعدوم والتحقيق أن الشىء إسم لما يو جد فى الأعيان و لما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكو ن هو شيء في التقدير و العلم و الكتاب و أن لم يكن شيئا فى الخارج و منه قو له {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ و لفظ الشىء فى الآية يتناو ل هذا و هذا فهو على كل شئ ما و جد و كل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شىء و لا يزاد عليه شئ كما قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ }القيامة٤ و قال {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ }الأنعام٦٥ و قد ثبت فى الصحيحين أنها لما نزلت قال النبى صلى الله عليه و سلم أعوذ بوجهك فلما نزل {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ }الأنعام٦٥ الآية قال هاتان أهون فهو قادرعلى الأولتين و إن لم يفعلهما و قال {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ }المؤمنون١٨ قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا و تهلك مواشيكم و تخرب أراضيكم و معلوم أنه لم يذهب به و هذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ }الواقعة٦٨ إلى قوله و {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة٨٢ و هذا يدل على أنه قادر على مالا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماءأجاجا و هو لم يفعله و مثل هذا و {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا }السجدة١٣ {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ}يونس٩٩ { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ }البقرة٢٥٣ فإنه أخبر فى غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء و هو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شىء قدير فيدخل فى ذلك أفعال العباد و غير أفعال العباد و أكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة

المسألة الرابعة أنه يدخل فى ذلك أفعال نفسه و قد نطقت النصوص بهذا و هذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم}يس٨١ {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى }القيامة٤٠ {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ }القيامة٤ و نظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت فى مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ }المؤمنون١٢ {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ }البلد٥ و جاءت منصوصا عليها فى الكتاب و السنة أما الكتاب فقوله {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ }الزخرف٤١ فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم و هذا نص فى قدرته على الأعيان المفعولة و قوله { وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ}ق٤٥ و {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }الغاشية٢٢ و نحو ذلك و هو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر و ذلك يستلزم قدرته عليهم و قوله { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ }الأنبياء٨٧ على قول الحسن و غيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادرعليه و على أمثاله و كذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى و قال له ماحملك على ماصنعت قال خشيتك يارب فغفر له و هو كان مخطئا فى قوله لئن قدر الله على ليعذبنى كما يدل عليه الحديث و أن الله قدر عليه لكن لخشيته و إيمانه غفرالله له هذا الجهل و الخطأ الذى و قع منه و قد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ }المرسلات٢٠ الى وله {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ }المرسلات٢٣ على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين و إن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه و القدرة عليه قدرة على خلقه و جاء أيضا

الحديث منصوصا فى مثل قول النبى صلى الله عليه و سلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده لله أقدرعليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد و أنه أقدر عليه منه على عبده و فيه إثبات قدرة العبد [1]

إن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة

قال تعالى{ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الحديد٢ فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان و لا يكون شيء إلا بقدرته و ما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته و مشيئته و ما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة و كذلك بالعكس و مالا فلا و لهذا قال {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة٢٠ و الشيء فى الأصل مصدر شاء يشاء شيئا كنال ينال نيلا ثم و ضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن و كما يسمي المقدور قدرة و المخلوق خلقا فقوله {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة٢٠ أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء و قوله { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ }البقرة٢٠ يتناول ما كان شيئا فى الخارج و العلم أو ما كان شيئا فى العلم فقط بخلاف مالا يجوز أن تتناوله المشيئة و هو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل فى العموم و لهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء [2]

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ }

فإنه قد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى أنه كان يقول فى دعائه أنت الأول فليس قبلك شىء وانت الآخر فليس بعدك شىء وانت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء وهذا موافق ومفسر لقوله تعالى { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحديد٣ [3]

وقوله تعالى هو {الظَّاهِرُ }الحديد٣ ضمن معنى العالى كما قال {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ }الكهف٩٧ ويقال ظهر الخطيب على المنبر وظاهر الثوب أعلاه بخلاف بطانته وكذلك ظاهر البيت اعلاه وظاهر القول ما ظهر منه وبان وظاهر الانسان خلاف باطنه فكلما علا الشىء ظهر ولهذا قال أنت الظاهر فليس فوقك شىء فأثبت الظهور وجعل موجب الظهور أنه ليس فوقه شىء ولم يقل ليس شىء ابين منك ولا أعرف وبهذا تبين خطأ من فسر الظاهر بأنه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧-١٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٣

[3] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٤٩٩ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢١٦

المعروف كما يقوله من يقول الظاهر بالدليل الباطن بالحجاب كما فى كلام أبى الفرج وغيره فلم يذكر مراد الله ورسوله وان كان الذى ذكره له معنى صحيح وقال انت الباطن فليس دونك شىء فيهما معنى الاضافة لابد أن يكون البطون والظهور لمن يظهر ويبطن وان كان فيهما معنى التجلى والخفاء ومعنى آخر كالعلو فى الظهور فانه سبحانه لا يوصف بالسفول وقد بسطنا هذا فى الاحاطة لكن انما يظهر من الجهة العالية علينا فهو يظهر علما بالقلوب وقصدا له ومعاينة اذا رؤى يوم القيامة وهو باد عال ليس فوقه شىء ومن جهة اخرى يبطن فلا يقصد منها ولا يشهد وان لم يكن شىء ادنى منه فانه من ورائهم محيط فلا شىء دونه سبحانه [1]

وقد نقل عن أبي سعيد الخراز أنه قيل بماذا عرفت ربك قال بجمعه بين الأضداد وقرأ قوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحديد٣ أراد بذلك أنه مجتمع في حقه سبحانه ما يتضاد في حق غيره فإن المخلوق لا يكون أولا آخرا باطنا ظاهرا [2]

الإيمان بما وصف الله به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{١٨١} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{١٨٢}الصافات١٨٠ ـ١٨٢ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢} هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٣} هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٤}الحديد١ـ٤ [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٤٤

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٣٠١

[3] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص:١٣٠ـ ١٣١ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٩

وقال أبو عبدالله محمد بن أبى زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية فى كتابه الذى صنفه فى أصول السنة قال فيه فى الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به انبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عن ما لم يدع اليه ايمانا وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى فى كتابه على لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحديد٣ ومثل هذا فى القرآن كثيرفهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شىء قبله والآخر الباقى الى غير نهاية ولا شىء بعده والظاهر العالى فوق كل شىء والباطن بطن علمه بخلقه فقال { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة٢٩ قيوم حى لا تأخذه سنة ولا نوم وذكر أحاديث الصفات وذكر أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التى وصف بها نفسه فى كتابه ووصفه بها نبيه وليس فى شىء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى١١ لم تره العيون فتحده كيف هو ولكن رأته القلوب فى حقائق الايمان [1]

جنس الزمان مقدار جنس الحركة

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فان الزمان اذا قيل أنه مقدار الحركة كان جنس الزمان مقدار جنس الحركة لا يتعين فى ذلك أن يكون مقدار حركة الشمس أو الفلك وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السموات والأرض وهو الدخان الذى هو البخار كما قال تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }فصلت١١ وهذا الدخان هو بخار الماء الذى كان حينئذ موجودا كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين وكما عليه أهل الكتاب كما ذكر هذا كله فى موضع آخر وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك فان هذا مما خلق فى تلك الأيام بل تلك الأيام مقدرة بحركة أخرى وكذلك اذا شق الله هذه السموات وأقام القيامة وادخل أهل الجنة الجنة قال تعالى { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً }مريم٦٢ وقد جاءت الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم بأنه تبارك وتعالى يتجلى لعباده المؤمنين يوم الجمعة وان أعلاهم منزلة من يرى الله تعالى كل يوم مرتين وليس فى الجنة شمس ولا قمر ولا هناك حركة فلك بل ذلك الزمان مقدر بحركات كما جاء فى الآثار أنهم يعرفون ذلك بأنوار تظهر من جهة العرش [2]

فى أول الأيام يقال يوم الأحد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٦٤

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ و فى أول الأيام يقال يوم الأحد فإن فيه على أصح القولين إبتدأ الله خلق السموات و الأرض و ما بينهما كما دل عليه القرآن و الأحاديث الصحيحة فإن القرآن أخبر فى غير موضع أنه { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }الفرقان٥٩ و قد ثبت فى الحديث الصحيح المتفق على صحته أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة و إذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة [1]

تارة يذكر قوله و ما بينهما و تارة لا يذكره

في ايات ذكر الله سبحانه وتعالى السموات والارض وما بينهما و لم يذكر وما بينهما في ايات اخر فالسموات والأرض قد يراد بهما العلو والسفل مطلقا فيدخل في ذلك الهواء وغيره فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته وسافل بالنسبة إلى ما فوقه فقد يجعل من السماء كما يجعل السحاب سماء والسقف سماء كما قال تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ ولم يقل ومابينهما كما يقول {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }ق٣٨ وكما يقول {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }السجدة٤ فتارة يذكر قوله وما بينهما فيما خلقه في ستة ايام وتارة لا يذكره وهو مراد فإن ذكره كان إيضاحا وبيانا وإن لم يذكره دخل في لفظ السموات والأرض[2]

لفظ العلو يتضمن الإستعلاء

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ و لفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف٥٤ فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري فى صحيحه عن أبي العالية فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف٥٤ قال إرتفع و كذلك رواه ابن أبي حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر عن أبى الربيع عن أبى العالية { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف٥٤ قال إرتفع و قال البخاري و قال مجاهد في قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف٥٤ علا على العرش و لكن يقال علا على كذا و علا عن كذا و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٣٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤١٧ و الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٥٦

هذا الثاني جاء فى القرآن فى مواضع لكن بلفظ تعالى كقوله {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء٤٣ {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }المؤمنون٩٢ [1]

الاستواء هو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته

قال أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره ثنا عصام بن الرواد ثنا آدم ثنا ابو جعفر عن الربيع عن أبى العالية {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }فصلت١١ يقول ارتفع قال وروى عن الحسن يعنى البصرى والربيع بن أنس مثله كذلك وذكر البخارى فى صحيحه فى كتاب التوحيد قال قال أبو العالية { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }فصلت١١ ارتفع فسوى خلقهن وقال مجاهد { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش }الأعراف٥٤ علا على العرش وكذلك ذكر ابن أبى حاتم فى تفسيره فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش }الأعراف٥٤ وروى بهذا الاسناد عن أبى العالية وعن الحسن وعن الربيع مثل قول أبى العالية وروى باسناده{ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش }الأعراف٥٤ قال فى اليوم السابع وقال أبو عمرو الطلمنكى وأجمعوا يعنى أهل السنة والجماعة على ان الله عرشا وعلى أنه مستو على عرشه وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه قال فأجمع المسلمون من اهل السنة على أن معنى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ ونحو ذلك فى القرآن ان ذلك علمه وان الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء قال وقال أهل السنة فى قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه٥ الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز واستدلوا بقول الله {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ }المؤمنون٢٨ وبقوله {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ }الزخرف١٣ وبقوله {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ }هود٤٤ الا أن المتكلمين من اهل الاثبات فى هذا على أقوال فقال مالك رحمه الله ان الاستواء معقول والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وقال عبدالله بن المبارك ومن تابعه من اهل العلم وهم كثير ان معنى استوى على العرش استقر وهو قول القتيبى وقال غير هؤلاء استوى أى ظهر قال ابو عبيدة معمر بن المثنى استوى بمعنى علا وتقول العرب استويت على ظهر الفرس بمعنى علوت عليه واستويت على سقف البيت بمعنى علوت عليه ويقال استويت على السطح بمعناه وقال الله تعالى {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ }المؤمنون٢٨ وقال {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ }الزخرف١٣وقال {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ }هود٤٤ وقال { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف٥٤ بمعنى علا على العرش وقول الحسن وقول مالك من أنبل جواب وقع فى هذه المسألة وأشده استيعابا لأن فيه نبذ التكييف واثبات الاستواء المعقول وقد أئتم اهل العلم بقوله واستجودوه واستحسنوه ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى وقال الثعلبى وقال الكلبى ومقاتل { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف٥٤ يعنى استقر قال وقال أبو عبيدة صعد وقيل استولى وقيل ملك واختار هو ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه أقبل على خلق العرش وعمد الى خلقه قال ويدل عليه قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ}فصلت١١ أى عمد الى خلق السماء وهذا الوجه من أضعف الوجوه فانه قد اخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وكذلك ثبت فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٣٥٩- ٣٦٠

صحيح البخارى عن عمران بن حصين عن النبى أنه قال كان الله ولم يكن شىء قبله وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء ثم خلق السموات والأرض فاذا كان العرش مخلوقا قبل خلق السموات والأرض فكيف يكون استواؤه عمده الى خلقه له لو كان هذا يعرف فى اللغة ان استوى على كذا بمعنى أنه عمد الى فعله وهذا لا يعرف قط فى اللغة لا حقيقة ولا مجازا لا فى نظم ولا فى نثر ومن قال استوى بمعنى عمد ذكره فى قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت١١ لأنه عدى بحرف الغاية كما يقال عمدت الى كذا وقصدت الى كذا ولا يقال عمدت على كذا ولا قصدت عليه مع أن ما ذكر فى تلك الآية لا يعرف فى اللغة أيضا ولا هو قول أحد من مفسرى السلف بل المفسرون من السلف قولهم بخلاف ذلك كما قدمناه عن بعضهم وانما هذا القول وأمثاله ابتدع فى الاسلام لما ظهر انكار أفعال الرب التى تقوم به ويفعلها بقدرته ومشيئته واختياره فحينئذ صار يفسر القرآن من يفسره بما ينافى ذلك كما يفسر سائر أهل البدع القرآن على ما يوافق أقاويلهم واما أن ينقل هذا التفسير عن أحد من السلف فلا بل أقوال السلف الثابتة عنهم متفقة فى هذا الباب لا يعرف لهم فيه قولان كما قد يختلفون أحيانا فى بعض الآيات وان اختلفت عباراتهم فمقصودهم واحد وهو اثبات علو الله على العرش فان قيل اذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات كما تقدم فكيف يقال ثم ارتفع الى السماء وهى دخان أو يقال ثم علا على العرش قيل هذا كما أخبر أنه ينزل الى السماء الدنيا ثم يصعد وروى ثم يعرج وهو سبحانه لم يزل فوق العرش فان صعوده من جنس نزوله واذا كان فى نزوله لم يصر شىء من المخلوقات فوقه فهو سبحانه يصعد وان لم يكن منها شىء فوقه وقوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت١١ انما فسروه بأنه ارتفع لأنه قال قبل هذا { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٩} وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ{١٠} ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ{١١} فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ {١٢}فصلت ٩-١٢ وهذه نزلت فى سورة حم بمكة ثم أنزل الله فى المدينة سورة البقرة كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة٢٩ فلما ذكر أن استواءه الى السماء كان بعد أن خلق الأرض وخلق ما فيها تضمن معنى الصعود لأن السماء فوق الارض فالاستواء اليها ارتفاع اليها فان قيل فاذا كان انما استوى على العرش بعد ان خلق السموات والارض فى ستة أيام فقبل ذلك لم يكن على العرش قيل الاستواء علو خاص فكل مستو على شىء عال عليه وليس كل عال على شىء مستو عليه ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره أنه مستو عليه واستوى عليه ولكن كل ما قيل فيه أنه استوى على غيره فانه عال عليه والذى أخبر الله أنه كان بعد خلق السموات والأرض الاستواء لا مطلق العلو مع أنه يجوز أنه كان مستويا عليه قبل خلق السموات والارض لما كان عرشه على الماء ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا عليه ولم يكن مستويا عليه فلما خلق هذا العالم استوى عليه فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته ولهذا قال فيه { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف٥٤ ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الاثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع وهذا اختيار أبى محمد بن كلاب وغيره وهو آخر قولى القاضى ابى يعلى وقول جماهير أهل السنة والحديث ونظار المثبتة وهذا الباب ونحوه انما اشتبه على كثير من الناس لأنهم صاروا يظنون ان ما وصف الله عز وجل به من جنس ما توصف به أجسامهم فيرون ذلك يستلزم الجمع بين الضدين فان كونه فوق العرش مع

نزوله يمتنع فى مثل اجسامهم لكن مما يسهل عليهم معرفة امكان هذا معرفة أرواحهم وصفاتها وأفعالها وان الروح قد تعرج من النائم الى السماء وهى لم تفارق البدن كما قال تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} الزمر ٤٢ وكذلك الساجد قال النبي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وكذلك تقرب الروح الى الله فى غير حال السجود مع أنها فى بدنه ولهذا يقول بعض السلف القلوب جوالة قلب يجول حول العرش وقلب يجول حول الحش واذا قبضت الروح عرج بها الى الله فى أدنى زمان ثم تعاد الى البدن فتسأل وهى فى البدن ولو كان الجسم هو الصاعد النازل لكان ذلك فى مدة طويلة وكذلك ما وصف النبى من حال الميت فى قبره وسؤال منكر ونكير له والاحاديث فى ذلك كثيرة وقد ثبت فى الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه عن النبى أنه قال اذا اقعد الميت فى قبره أتى ثم شهد ان لا اله الا الله فذلك قوله {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } إبراهيم٢٧ وكذلك فى صحيح البخارى وغيره عن قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العبد اذا وضع فى قبره وذهب أصحابه حتى انه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقول له أنظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا وأما الكافر والمنافق فيقول هاه هاه لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فيقال له لا دريت ولا تليت ويضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين والناس فى مثل هذا على ثلاثة أقوال منهم من ينكر اقعاد الميت مطلقا لأنه قد أحاط ببدنه من الحجارة والتراب ما لا يمكن قعوده معه وقد يكون فى صخر يطبق عليه وقد يوضع على بدنه ما يكشف فيوجد بحاله ونحو ذلك ولهذا صار بعض الناس الى أن عذاب القبر انما هو على الروح فقط كما يقوله ابن ميسره وابن حزم وهذا قول منكر عند عامة أهل السنة والجماعة وصار آخرون الى أن نفس البدن يقعد على ما فهموه من النصوص وصار آخرون يحتجون بالقدرة ويخبر الصادق ولا ينظرون الى ما يعلم بالحس والمشاهدة وقدرة الله حق وخبر الصادق حق لكن الشأن فى فهمهم واذا عرف أن النائم يكون نائما وتقعد روحه وتقوم وتمشى وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالا وأمورا بباطن بدنه مع روحه ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب مع أن جسده مضطجع وعينيه مغمضة وفمه مطبق وأعضاءه ساكنة وقد يتحرك بدنه لقوة الحركة الداخلة وقد يقوم ويمشى ويتكلم ويصيح لقوة الأمر فى باطنه كان هذا مما يعتبر به أمر الميت فى قبره فان روحه تقعد وتجلس وتسأل وتنعم وتعذب وتصيح وذلك متصل ببدنه مع كونه مضطجعا فى قبره وقد يقوى الامر حتى يظهر ذلك فى بدنه وقد يرى خارجا من قبره والعذاب عليه وملائكة العذاب موكلة به فيتحرك بدنه ويمشى ويخرج من قبره وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين فى قبورهم وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ومن يقعد بدنه أيضا اذا قوى الأمر لكن هذا ليس لازما فى حق كل ميت كما أن قعود بدن النائم لما يراه ليس لازما لكل نائم بل هو بحسب قوة الأمر وقد عرف أن ابدانا كثيرة لا يأكلها التراب كأبدان الانبياء وغير الانبياء من الصديقين وشهداء أحد وغير شهداء أحد والاخبار بذلك متواترة لكن المقصود ان ما ذكره النبى من اقعاد الميت مطلقا هو متناول لقعودهم ببواطنهم وان كان ظاهر البدن مضطجعا ومما يشبه هذا اخباره بما رآه ليلة المعراج من الأنبياء فى السموات وأنه رأى آدم وعيسى ويحيى ويوسف وادريس وهارون وموسى وابراهيم صلوات الله وسلامه عليهم وأخبر ايضا أنه رأى موسى قائما يصلى فى قبره وقد رآه أيضا فى السموات ومعلوم أن أبدان الانبياء فى القبور الا عيسى وادريس واذا كان موسى قائما يصلى فى قبره ثم رآه فى السماء السادسة مع قرب الزمان فهذا أمر لا يحصل

للجسد ومن هذا الباب أيضا نزول الملائكة صلوات الله عليهم وسلامه جبريل وغيره فاذا عرف ان ما وصفت به الملائكة وأرواح الآدميين من جنس الحركة والصعود والنزول وغير ذلك لا يماثل حركة أجسام الادميين وغيرها مما نشهده بالأبصار فى الدنيا وأنه يمكن فيها ما لا يمكن فى أجسام الآدميين كان ما يوصف به الرب من ذلك أولى بالامكان وأبعد عن مماثلة نزول الاجسام بل نزوله لا يماثل نزول الملائكة وأرواح بنى آدم وان كان ذلك أقرب من نزول أجسامهم واذا كان قعود الميت فى قبره ليس هو مثل قعود البدن فما جاءت به الآثار عن النبى من لفظ القعود والجلوس فى حق الله تعالى كحديث جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيرهما أولى أن لا يماثل صفات أجسام العباد [1]

" الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة "

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه٥ قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله الإستواء معلوم والكيف مجهول ومن الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا الايمان فبين ان الاستواء معلوم وان كيفية ذلك مجهول ومثل هذا يوجد كثيرا فى كلام السلف والأئمة ينفون علم العباد بكيفية صفات الله وأنه لا يعلم كيف الله إلا الله فلا يعلم ما هو إلا هو وقد قال النبى لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وهذا فى صحيح مسلم وغيره وقال فى الحديث الآخر اللهم انى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو إستأثرت به فى علم الغيب عندك وهذا الحديث فى المسند وصحيح أبى حاتم وقد اخبر فيه ان لله من الاسماء ما استأثر به فى علم الغيب عنده فمعانى هذه الاسماء التى إستأثر بها فى علم الغيب عنده لا يعلمها غيره [2]

وأما الأفعال اللازمة كالإستواء و المجيء فالناس متنازعون فى نفس إثباتها لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق و إنما عرفت بالخبر فالأصل فيها الخبر لا العقل و لهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ممن يقول الخلق غير المخلوق و ممن يقول الخلق هو المخلوق و من يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها و الذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدى بجعلها أمورا حادثة في غيرها و هذا قول الأشعري و أئمة أصحابه و من وافقهم كالقاضى أبي يعلى و ابن الزاغوني و ابن عقيل في كثير من أقواله فالأشعري يقول الإستواء فعل فعله في العرش فصار به مستويا على العرش و كذلك يقول فى الإتيان و النزول و يقول هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام بل توصف بها الأجسام و الأعراض فيقال جاءت الحمى و جاء البرد و جاء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥١٩-٥٢٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٥٨

الحر و نحو ذلك و هذا أيضا قول القاضي أبي بكر و القاضي أبي يعلى و غيرهما و حملوا ما روى عن السلف كالأوزاعى و غيره أنهم قالوا في النزول يفعل الله فوق العرش بذاته كما حكاه القاضي عبدالوهاب عن القاضي أبى بكر و كما حكوه عن الأشعري و غيره و كما ذكر فى غير موضع من كتبه و لكن عندهم هذا من الصفات الخبرية و هذا قول البيهقي و طائفة و هو أول قولي القاضي أبي يعلى و كل من قال إن الرب لا تقوم به الصفات الإختيارية فإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازما أو متعديا لكن من أثبت من هؤلاء فعلا قديما كمن يقول بالتكوين و بهذا فإنه يقول ذلك القديم قام به بغير مشيئته كما يقولون في إرادته القديمة و القول الثاني أنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته و إختياره كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية و هذا قول أئمة السنة و الحديث و الفقه و التصوف و كثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم و على هذا ينبني نزاعهم فى تفسير قوله { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }البقرة٢٩ و قوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة٢١٠ و قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }يونس٣ و نحو ذلك فمن نفى هذه الأفعال يتأول إتيانه بإتيان أمره أو بأسه و الإستواء على العرش بجعله القدرة و الإستيلاء أو بجعله علو القدر فإن الإستواء للناس فيه قولان هل هو من صفات الفعل أو الذات على قولين و القائلون بأنه صفة ذات يتأولونه بأنه قدر على العرش و هو ما زال قادرا و ما زال عالي القدر فلهذا ظهر ضعف هذا القول من و جوه منها قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }يونس٣ فأخبر أنه استوى بحرف ثم ومنها أنه عطف فعلا على فعل فقال { خَلَقَ }يونس٣ ثم { اسْتَوَى }يونس٣ و منها أن ما ذكروه لا فرق فيه بين العرش و غيره و إذا قيل إن العرش أعظم المخلوقات فهذا لا ينفي ثبوت ذلك لغيره كما فى قوله { رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }التوبة١٢٩ لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته و الربوبية عامة جاز أن يقال رب السموات و الأرض و ما بينهما و رب العرش العظيم و يقال { آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٤٧} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{٤٨} الشعراء٤٧-٤٨ و الإستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستول مقتدر على كل شيء من السماء و الأرض و ما بينهما فلو كان إستواؤه على العرش هو قدرته عليه جاز أن يقال على السماء و الأرض و ما بينهما و هذا مما احتج به طوائف منهم الأشعري قال فى إجماع المسلمين على أن الإستواء مختص بالعرش دليل على فساد هذا القول و أيضا فإنه ما زال مقتدرا عليه من حين خلقه و منها كون لفظ الإستواء فى لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم و الإستعمال الموجود فى الكتاب و السنة و كلام العرب يمنع هذا كما قد بسط فى موضعه و تكلم على البيت الذي يحتجون به ثم إستوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق وأنه لو كان صحيحا لم يكن فيه حجة فإنهم لم يقولوا إستوى عمر على العراق لما فتحها و لا إستوى عثمان على خراسان و لا إستوى رسول الله صلى الله عليه و سلم على اليمن و إنما قيل هذا البيت إن صح فى بشر بن مروان لما دخل العراق و إستوى على كرسي ملكها فقيل هذا كما يقال جلس على سرير الملك أو تحت الملك و يقال قعد على الملك و المراد هذا و أيضا فالآيات الكثيرة و الأحاديث الكثيرة و إجماع السلف يدل على أن الله فوق العرش كما قد بسط فى مواضع و أما الذين قالوا الإستواء صفة فعل فهؤلاء لهم قولان هنا على ما تقدم هل هو فعل بائن عنه لأن الفعل بمعنى المفعول أم فعل قائم به يحصل بمشيئته و قدرته الأول قول إبن كلاب و من اتبعه كالأشعري و غيره و هو قول القاضي و ابن عقيل و ابن الزاغونى و غيرهم و الثانى قول أئمة أهل الحديث و السنة و كثير من طوائف الكلام كما تقدم و لهذا صار للناس فيما ذكر الله فى القرآن من الإستواء و المجيء و نحو ذلك ستة أقوال طائفة يقولون تجرى على ظاهرها و يجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق و نزوله من جنس نزولهم و هؤلاء المشبهة الممثلة و من

هؤلاء من يقول إذا نزل خلا منه العرش فلم يبق فوق العرش و طائفة يقولون بل النصوص على ظاهرها اللائق به كما في سائر ما و صف به في نفسه و هو { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى١١ لا فى ذاته و لا في صفاته و لا في أفعاله و يقولون نزل نزولا يليق بجلاله و كذلك يأتى إتيانا يليق بجلاله و هو عندهم ينزل و يأتى و لم يزل عاليا و هو فوق العرش كما قال حماد بن زيد هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء و قال إسحاق بن راهويه ينزل و لا يخلو منه العرش و نقل ذلك عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد و تفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث و هو الذي حكاه أبو عمر بن عبد البر عنهم و هو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد و قد صرح به ابن حامد و غيره والأول نفي قيام الأمور الإختيارية هو قول التميمي موافقة منه لإبن كلاب و هو قول القاضي أبى يعلى و أتباعه و طائفتان يقولان بل لا ينزل و لا يأتى كما تقدم ثم منهم من يتأول ذلك و منهم من يفوض معناه و طائفتان واقفتان منهم من يقول ما ندري ما أراد الله بهذا و منهم من لا يزيد على تلاوة القرآن و عامة المنتسبين إلى السنة و أتباع السلف يبطلون تأويل من تأول ذلك بما ينفي أن يكون هو المستوى الآتى لكن كثير منهم يرد التأويل الباطل و يقول ما أعرف مراد الله بهذا و منهم من يقول هذا مما نهى عن تفسيره أو مما يكتم تفسيره و منهم من يقرره كما جاءت به الأحاديث الصحيحة و الآثار الكثيرة عن السلف من الصحابة و التابعين قال أبو محمد البغوي الحسين بن مسعود الفراء الملقب ب محيي السنة فى تفسيره { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }البقرة٢٩ قال ابن عباس و أكثر مفسري السلف أي إرتفع إلى السماء و قال الفراء و ابن كيسان و جماعة من النحويين أي أقبل على خلق السماء و قيل قصد و هذا هو الذي ذكره ابن الجوزي فى تفسيره قال { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }البقرة٢٩ أي عمد إلى خلقها و كذلك هو يرجح قول من يفسر الإتيان بإتيان أمره و قول من يتأول الإستواء و قد ذكر ذلك فى كتب أخرى و وافق بعض أقوال إبن عقيل قال إبن عقيل له فى هذا الباب أقوال مختلفة و تصانيف يختلف فيها رأيه وإجتهاده وقال البغوي فى تفسير قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }يونس٣ قال الكلبى و مقاتل إستقر و قال أبو عبيدة صعد وأولت المعتزلة الإستواء بالإستيلاء وأما أهل السنة فيقولون الإستواء على العرش صفة لله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه٥ كيف استوى فأطرق مالك رأسه مليا وعلاه الرحضاء ثم قال الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج قال روى عن سفيان الثوري و الأوزاعى و الليث بن سعد و سفيان بن عيينة و عبدالله بن المبارك و غيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة أمروها كما جاءت بلا كيف و قال فى قوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة٢١٠ الأولى فى هذه الآية و فيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله و يعتقد أن الله منزه عن سمات الحدث على ذلك مضت أئمة السلف و علماء السنة قال الكلبي هذا من المكتوم الذي لا يفسر قلت و قد حكى عنه أنه قال في تفسير قوله{ ثُمَّ اسْتَوَى }إستقر ففسر ذلك و جعل هذا من المكتوم الذي لا يفسر لأن ذاك فيه و صفه بأنه فوق العرش و هذا فيه إتيانه فى ظلل من الغمام قال البغوي و كان مكحول و الزهري و الأوزاعى و مالك و عبدالله بن المبارك و سفيان الثوري و الليث بن سعد و أحمد و إسحاق يقولون فيه و فى أمثاله أمروها كما جاءت بلا كيف قال سفيان بن عيينة كلما و صف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته و السكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله و رسوله وهذه الآية أغمض من آية الإستواء و لهذا كان أبو الفرج يميل إلى تأويل هذا و ينكر قول من تأول الإستواء بالإستيلاء قال فى تفسيره قال الخليل بن أحمد العرش السرير و كل سرير للملك يسمى عرشا و قلما يجمع العرش إلا فى

الإضطرار قلت وقد روى إبن أبى حاتم عن أبي روق عن الضحاك عن إبن عباس قال يسمى عرشا   لارتفاعه   قلت   و الإشتقاق يشهد لهذا كقوله {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ }الأعراف١٣٧ و قوله { مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ }الأنعام١٤١ و قول سعد و هذا كافر بالعرش و مقعد الملك يكون أعلى من غيره فهذا بالنسبة إلى غيره عال عليه و بالنسبة إلى ما فوقه هو دونه و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال   إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة و أوسط الجنة و سقفه عرش الرحمن   فدل على أن العرش أعلى المخلوقات كما بسط فى مواضع أخر   قال أبو الفرج و اعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب فى الجاهلية و الإسلام قال أمية بن أبى الصلت   مجدوا الله فهو للمجد أهل   ربنا في السماء أمسى كبيرا بالبناء الأعلى الذي سبق الناس وسوى فوق السماء سريرا   شرجعا لا يناله بصر العي   ن ترى دونه الملائك صورا قلت يريد أنه ذكره من العرب من لم يكن مسلما أخذه عن أهل الكتاب فإن أمية و نحوه إنما أخذ هذا عن أهل الكتاب و إلا فالمشركون لم يكونوا يعرفون هذا   قال أبو الفرج ابن الجوزي و قال كعب إن السموات في العرش كقنديل معلق بين السماء و الأرض   قال و إجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية و قد شذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك و هو عدول عن الحقيقة إلى التجوز مع مخالفة الأثر ألم يسمعوا قوله {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء } هود٧ أفتراه كان الملك على الماء قال و بعضهم يقول إستوى بمعنى إستولى و يستدل بقول الشاعر   حتى إستوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق   وقال الشاعر أيضا قد قلما إستويا بفضلهما جميعا   على عرش الملوك بغير زور   قال و هو منكر عند اللغويين قال ابن الأعرابى إن العرب لا تعلم إستوى بمعنى إستولى و من قال ذلك فقد أعظم   قال و إنما يقال   إستولى فلان على كذا   إذا كان بعيدا عنه غير متمكن ثم تمكن منه و الله سبحانه و تعالى لم يزل مستوليا على الأشياء و البيتان لا يعرف قائلهما كذا قال ابن فارس اللغوي و لو صحا لم   يكن   حجة فيهما لما بينا من إستيلاء من لم يكن مستوليا نعوذ بالله من تعطيل الملحدة و تشبيه المجسمة   قلت فقد تأول قوله { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}البقرة٢٩ و أنكر تأويل { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف٥٤ وهو في لفظ   الإتيان قد ذكر القولين فقال قوله { أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ }البقرة٢١٠ كان جماعة من السلف يمسكون عن مثل هذا و قد ذكر القاضى أبو يعلى عن أحمد أنه قال المراد به قدرته و أمره قال و قد بينه فى قوله {أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ }النحل٣٣ قلت   هذا الذي ذكره القاضى و غيره أن حنبلا نقله عن أحمد فى كتاب   المحنة   أنه قال ذلك فى المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله   تجيء البقرة و أل عمران   قالوا و المجيء لا يكون إلا لمخلوق فعارضهم أحمد بقوله {وَجَاء رَبُّكَ }الفجر٢٢ { أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ }الأنعام١٥٨ و قال المراد بقوله   تجيء البقرة و آل عمران   ثوابهما كما فى قوله {وَجَاء رَبُّكَ }الفجر٢٢ أمره و قدرته   وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد فى منعه من تأويل هذا و تأويل النزول و الإستواء و نحو ذلك من الأفعال   و لهم ثلاثة أقوال قيل هذا غلط من حنبل إنفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة مثل صالح و عبدالله و المروذي و غيرهم فإنهم لم يذكروا هذا و حنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال و صاحبه قال أبو إسحاق ابن شاقلا هذا غلط من حنبل لا شك فيه   و كذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول   ينزل إلى السماء الدنيا   أنه ينزل أمره لكن هذا من رواية حبيب كاتبه و هو كذاب بإتفاقهم و قد رويت من و جه آخر لكن الإسناد مجهول   والقول الثاني قال طائفة من أصحاب أحمد هذا قاله إلزاما للخصم على مذهبه لأنهم فى يوم المحنة لما إحتجوا عليه بقوله   تأتى البقرة و آل عمران   أجابهم بأن معناه يأتى ثواب البقرة و آل عمران كقوله { أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ}البقرة٢١٠ أى أمره و قدرته على تأويلهم لا أنه يقول بذلك فإن مذهبه ترك التأويل   والقول الثالث أنهم جعلوا هذا

رواية عن أحمد و قد يختلف كلام الأئمة فى مسائل مثل هذه لكن الصحيح المشهورعنه رد التأويل و قد ذكر الروايتين ابن الزاغونى و غيره و ذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا و رواية التأويل فسر ذلك بالعمد و القصد لم يفسره بالأمر و القدرة كما فسروا { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }البقرة٢٩ فعلى هذا فى تأويل ذلك إذا قيل به و جهان و ابن الزاغونى و القاضي أبو يعلى و نحوهما و إن كانوا يقولون بإمرار المجيء و الإتيان على ظاهره فقولهم فى ذلك من جنس قول ابن كلاب و الأشعرى فإنه أيضا يمنع تأويل النزول و الإتيان و المجيء و يجعله من الصفات الخبرية و يقول إن هذه الأفعال لا تستلزم الأجسام بل يوصف بها غير الأجسام و كلام ابن الزاغونى فى هذا النوع و في إستواء الرب على العرش هو موافق لقول أبى الحسن نفسه هذا قولهم فى الصفات الخبرية الواردة فى هذه الأفعال و أما علو الرب نفسه فوق العالم فعند ابن كلاب أنه معلوم بالعقل كقول أكثر المثبتة كما ذكر ذلك الخطابى و إبن عبدالبر و غيرهما و هو قول ابن الزاغونى و هو آخر قولي القاضي أبي يعلى و كان القاضي أولا يقول بقول الأشعرى أنه من الصفات الخبرية و هذا قول القاضي أبى بكر و البيهقى و نحوهما وأما أبو المعالي الجوينى و أتباعه فهؤلاء خالفوا الأشعرى و قدماء أصحابه في الصفات الخبرية فلم يثبتوها لكن منهم من نفاها فتأول الإستواء بالإستيلاء و هذا أول قولي أبى المعالي و منهم من توقف فى إثباتها و نفيها كالرازي و الآمدى و آخر قولي أبى المعالي المنع من تأويل الصفات الخبرية و ذكر أن هذا إجماع السلف و أن التأويل لو كان مسوغا أو محتوما لكان إهتمامهم به أعظم من إهتمامهم بغيره فإستدل بإجماعهم على أنه لا يجوز التأويل و جعل الوقف التام على قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ }آل عمران٧ ذكر ذلك فى النظامية فى الأركان الإسلامية وهذه طريقة عامة المنتسبين إلى السنة يرون التأويل مخالفا لطريقة السلف و قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع و ذكر لفظ التأويل و ما فيه من الإجمال و الكلام على قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ }آل عمران٧ و أن كلا القولين حق فمن قال لا يعلم تأويله إلا الله فأراد به ما يؤول إليه الكلام من الحقائق التى لا يعلمها إلا الله و من قال إن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول و الصحابة و إنما الخلاف فى لفظ التأويل على المعنى المرجوح و أنه حمل اللفظ على الإحتمال المرجوح دون الراجح لدليل يقترن به فهذا إصطلاح متأخر و هو التأويل الذي أنكره السلف و الأئمة تأويلات أهل البدع و كذلك يقول أحمد فى رده على الجهمية الذين تأولوا القرآن على غير تأويله و قد تكلم أحمد على متشابه القرآن و فسره كله و منه تفسير متفق عليه عند السلف و منه تفسير مختلف فيه و قد ذكر الجد أبو عبدالله فى تفسيره من جنس ما ذكره البغوي لا من جنس ما ذكره ابن الجوزي فقال أما الإتيان المنسوب إلى الله فلا يختلف قول أئمة السلف كمكحول و الزهري و الأوزاعى و ابن المبارك و سفيان الثوري و الليث بن سعد و مالك بن أنس و الشافعى و أحمد و أتباعهم أنه يمر كما جاء و كذلك ما شاكل ذلك مما جاء فى القرآن أو وردت به السنة كأحاديث النزول ونحوها وهي طريقة السلامة ومنهج أهل السنة والجماعة يؤمنون بظاهرها ويكلون علمها إلى الله و يعتقدون أن الله منزه عن سمات الحدث على ذلك مضت الأئمة خلفا بعد سلف كما قال تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ }آل عمران٧ و قال ابن السائب في قوله { أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ }البقرة٢١٠هذا من المكتوم الذي لا يفسر و ذكر ما يشبه كلام الخطابى فى هذا فإن قيل كيف يقع الإيمان بما لا يحيط من يدعى الإيمان به علما بحقيقته فالجواب كما يصح الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و النار و الجنة و معلوم أنا لا نحيط علما بكل شيء من ذلك على جهة التفصيل و إنما كلفنا الإيمان بذلك فى الجملة ألا ترى أنا لا نعرف عدة من الأنبياء و كثيرا من الملائكة و لا نحيط بصفاتهم ثم لا

يقدح ذلك فى إيماننا بهم و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم فى صفة الجنة يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لاعين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر قلت لا ريب أنه يجب الإيمان بكل ما أخبر به الرسول و تصديقه فيما أخبر به و إن كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال و لا فهم من الكلام شيئا فضلا عن العرب فلا يشترط فى الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به هذا لا ريب فيه فكل من اشتبه عليه آية من القرآن و لم يعرف معناها و جب عليه الإيمان بها و أن يكل علمها إلى الله فيقول الله أعلم و هذا متفق عليه بين السلف و الخلف فما زال كثير من الصحابة يمر بآية و لفظ لا يفهمه فيؤمن به و إن لم يفهم معناه لكن هل يكون فى القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس بل و لا الرسول عند من يجعل التأويل هو معنى الآية و يقول إنه لا يعلمه إلا الله فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول و لا أحد من الأمة بل و لا جبريل هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معانى هذه الآيات لا يفهمه أحد من الناس وليس هذا بمنزلة ما ذكر فى الملائكة و النبيين و الجنة فإنا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به و أنه يدل على أن هناك نعيما لا نعلمه و هذا خطاب مفهوم و فيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه و هذا حق كقوله { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر٣١ و قوله لما سألوه عن الروح { وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }الإسراء٨٥ فهذا فيه إخبارنا بأن لله مخلوقات لا نعلمها أو نعلم جنسهم و لا نعلم قدرهم أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض و كل هذا حق لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه و لا يفهم معناه لا الرسول و لا المؤمنون فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء فإن الله قال {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }الزخرف٣ و قال {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }محمد٢٤ و قال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ }المؤمنون٦٨ و قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ }محمد١٦ و فرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض فما لم يخبر به لا يضرنا أن لا نعلمه و بين ما أخبرنا به وهو الكلام العربي الذي جعل هدى و شفاء للناس و قال الحسن ما أنزل الله آية إلا و هو يحب أن يعلم فيما أنزلت و ما عنى بها فكيف يكون فى مثل هذ الكلام ما لا يفهمه أحد قط و فرق بين أن يقال الرب هو الذي يأتي إتيانا يليق بجلاله أو يقال ما ندري هل هو الذي يأتي أو أمره فكثير من لا يجزم بأحدهما بل يقول إسكت فالسكوت أسلم و لا ريب أنه من لم يعلم فالسكوت له أسلم كما قال النبى صلى الله عليه و سلم من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت لكن هو يقول إن الرسول و جميع الأمة كانوا كذلك لا يدرون هل المراد به هذا أو هذا و لا الرسول كان يعرف ذلك فقائل هذا مبطل متكلم بما لا علم له به و كان يسعه أن يسكت عن هذا لا يجزم بأن الرسول و الأئمة كلهم جهال يجب عليهم السكوت كما يجب عليه ثم إن هذا خلاف الواقع فأحاديث النبى صلى الله عليه و سلم و كلام السلف فى معنى هذه الآية و نظائرها كثير مشهور لكن قال علي رضي الله عنه حدثوا الناس بما يعرفون و دعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله و رسوله و قال ابن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم و إذا قال بل كان من السلف من يجزم بأن المراد هو إتيانه نفسه فهذا جزم بأنهم عرفوا معناها و بطلان القول الآخر لم يكونوا ساكتين حيارى و لا ريب أن مقدوره و مأموره مما يأتي أيضا و لكن هو يأتي كما أخبر عن نفسه إتيانا يليق بجلاله فإذا قيل لا نعلم كيفية الإستواء كان هذا صحيحا و إذا كان الخطاب و الكلام مما لا يفهم أحد معناه لا الرسول و لا جبريل و لا المؤمنون لم يكن مما يتدبر و يعقل بل مثل هذا عبث و الله منزه عن العبث ثم هذا يلزمهم فى الأحاديث مثل قوله ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء أفكان الرسول يقول هذا الحديث و نحوه و هو لا يفقه ما يقول و لا يفهم له معنى سبحان الله هذا بهتان عظيم و قدح فى الرسول و تسليط للملحدين

إذا قيل إن نفس الكلام الذي جاء به قد كان لا يفهم معناه قالوا فغيره من العلوم العقلية أولى أن لا يفهم معناه و الكلام إنما هو في صفات الرب فإذا قيل إن ما أنزل عليه من صفات الرب لم يكن هو و لا غيره يفهمه و هو كلام أمي عربي ينزل عليه قيل فالمعاني المعقولة في الأمور الإلهية أولى أن لا يكون يفهمها و حينئذ فهذا الباب لم يكن موجودا في رسالته و لا يؤخذ من جهته لا من جهة السمع و لا من جهة العقل قالت الملاحدة فيؤخذ من طريق غيره فإذا قال لهم هؤلاء هذا غير ممكن لأحد منعوا ذلك و قالوا إنما في القرآن أن ذلك الخطاب لا يعلم معناه إلا الله لكن من أين لكم أن الأمور الإلهية لا تعلم بالأدلة العقلية التى يقصر عنها البيان بمجرد الخطاب و الخبر و الملاحدة يقولون إن الرسل خاطبت بالتخييل و أهل الكلام يقولون بالتأويل و هؤلاء الظاهرية يقولون بالتجهيل و قد بسط الكلام على خطأ الطوائف الثلاث و بين أن الرسول قد أتي بغاية العلم و البيان الذي لا يمكن أحدا من البشر أن يأتي بأكمل مما جاء به صلى الله عليه و سلم تسليما فأكمل ما جاء به القرآن و الناس متفاوتون فى فهم القرآن تفاوتا عظيما و قول ابن السائب إن هذا من المكتوم الذي لا يفسر يقتضي أن له تفسيرا يعلمه العلماء و يكتمونه و هذا على و جهين إما أن يريد أنه يكتم شيء مما بينه الرسول صلى الله عليه و سلم عن جميع الناس فهذا من الكتمان المجرد الذي ذم الله عليه و هذه حال أهل الكتاب و عاب الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات و الهدى من بعد ما بينه للناس فى الكتاب و قال {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ }البقرة١٤٠ و هذه حال أهل الكتاب فى كتمان ما فى كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم و يجعلها بعضهم متشابها و هي دلائل على نبوة محمد صلى الله عليه و سلم و غير ذلك فإن ألفاظ التوراة و الإنجيل و سائر كتب الأنبياء وهي بضع وعشرون كتابا عند أهل الكتاب لا يمكنهم جحد ألفاظها لكن يحرفونها بالتأويل الباطل و يكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم كما قال تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}البقرة٧٨ فمن جعل أهل القرآن كذلك و أمرهم أن يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة فقد أمرهم بنظير ما ذم الله عليه أهل الكتاب وصبيغ بن عسل التميمي إنما ضربه عمر لأنه قصد باتباع المتشابه إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله و هؤلاء الذين عابهم الله فى كتابه لأنهم جمعوا شيئين سوء القصد و الجهل فهم لا يفهمون معناه و يريدون أن يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليوقعوا بذلك الشبهة و الشك و في الصحيح عن عائشة أن النبى صلى الله عليه و سلم قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليوقع الفتنة و هي الشك و الريب في القلوب كما روى أنه خرج على القوم و هم يتجادلون في القدر هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا و هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا فكأنما فقىء فى و جهه حب الرمان ثم قال أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض أنظروا ما أمرتم به فافعلوه فكل من إتبع المتشابه على هذا الوجه فهو مذموم و هو حال من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه و إياهم لم يفهموا ماتوهموا أنه يعارضه هذا أصل الفتنة أن يترك المعلوم لغير معلوم كالسفسطة التى تورث شبها يقدح بها فيما علم و تيقن فهذه حال من يفسد قلوب الناس و عقولهم بإفساد ما فيها من العلم و العمل أصل الهدى فإذا شككهم فيما علموه بقوا حيارى و الرسول صلى الله عليه و سلم قد أتى بالآيات البينات الدالة على صدقه و القرآن فيه الآيات المحكمات اللاتى هي أم الكتاب قد علم معناها و علم أنها حق و بذلك يهتدي الخلق و ينتفعون فمن اتبع المتشابه ابتغى الفتنة و ابتغى تأويله و الأول قصدهم فيه فاسد و الثانى ليسوا من أهله بل يتكلمون فى تأويله بما يفسد معناه إذ كانوا ليسوا من الراسخين فى العلم و إنما الراسخ فى العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم و صار ثابتا فيه لا يشك و لا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابه بل هو مؤمن به قد يعلمون تأويل المتشابه و أما من لم يرسخ فى ذلك بل إذا عارضه المتشابه شك فيه فهذا يجوز أن يراد بالمتشابه ما يناقض المحكم فلا يعلم معنى

المتشابه إذ لم يرسخ في العلم بالمحكم و هو يبتغي الفتنة فى هذا و هذا فهذا يعاقب عقوبة تردعه كما فعل عمر بصبيغ و أما من قصده الهدى و الحق فليس من هؤلاء و قد كان عمر يسأل و يسأل عن معاني الآيات الدقيقة و قد سأل أصحابه عن قوله {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ }النصر ١ فذكروا ظاهر لفظها و لما فسرها ابن عباس بأنها إعلام النبى صلى الله عليه و سلم بقرب و فاته قال ما أعلم منها إلا ما تعلم و هذا باطن الآية الموافق لظاهرها فإنه لما أمر بالإستغفار عند ظهور الدين و الإستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال و بظهور الدين حصل مقصود الرسالة علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور أخر و فوق كل ذي علم عليم و الإستدلال على الشيء بملزوماته و الشيء قد يكون له لازم و للازمه لازم و هلم جرا فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره يستدل بالملزوم على اللازم و من الناس من لا يتصور اللازم و لو تصوره لم يعرف الملزوم بل يقول يجوز أن يلزم و يجوز أن لا يلزم و يحتمل و يحتمل و تردد الإحتمل هو من عدم العلم و إلا فالواقع هو أحد أمرين فحيث كان إحتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع و خفاء دليله و غيره قد يعلم ذلك و يعلم دليله و من ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله فلا ينفي عن الناس إلاما علم إنتفاؤه عنهم و فوق كل ذي علم عليم أعلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى و هذا قد بسط فى مواضع ثم أنهم يقولون المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض فى تأويل ذلك و المصير إلى الإيمان بظاهره و الوقوف عن تفسيره لأنا قد نهينا أن نقول فى كتاب الله برأينا و لم ينبهنا الله و رسوله على حقيقة معنى ذلك فيقال أما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر به كل أحد لكن هذا الكلام يقتضى أنهم لم يعلموا معنى الآية و تفسيرها و تأويلها و إذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك و هو كلام شاك لا يعلم ما أريد بالآية ثم إذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره بإتيان أمره و قدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص و هذا نفي للتأويل و إبطال له فإذا قالوا مع ذلك و لا يعلم تأويله إلا الله أثبتوا تأويلا لا يعلمه إلا الله و هم ينفون جنس التأويل و نقول ما الحامل على هذا التأويل البعيد و قد أمكن بدونه أن نثبت إتيانا و مجيئا لا يعقل كما يليق به كما أثبتنا ذاتا لها حقيقة لا تعقل و صفات من سمع و بصر و غير ذلك لا تعقل ولأنه إذا جاز تأويل هذا و أن نقدر مضمرا محذوفا من قدرة أو عذاب و نحو ذلك فما منعكم من تأويل قوله ترون ربكم كذلك وهذا كلام فى إبطال التأويل و حمل للفظ على ما دل عليه ظاهره على ما يليق بجلال الله فإذا قيل مع هذا إن له تأويلا لا يعلمه إلا الله و أريد بالتأويل هذا الجنس كان تناقضا كيف ينفي جنس التأويل و يثبت له تأويل لا يعلمه إلا الله فعلم أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله لا يناقض حمله على ما دل عليه اللفظ بل هو أمر آخر يحقق هذا و يوافقه لا يناقضه و يخالفه كما قال مالك الإستواء معلوم و الكيف مجهول و إذا كان كذلك أمكن أن من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره و يكون ذلك من تفسيرها و هو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم كمن يعلم أن المراد بالآية مجيء الله قطعا لا شك فى ذلك لكثرة ما دل عنده على ذلك و يعلم مع ذلك أنه العلى الأعلى يأتى إتيانا تكون المخلوقات محيطة به و هو تحتها فإن هذا مناقض لكونه العلي الأعلى و الجد الأعلى أبو عبد الله رحمه الله قد جرى فى تفسيره على ما ذكر من الطريقة و هذه عادته و عادات غيره و ذكر كلام إبن الزاغونى فقال قال الشيخ علي بن عبيد الله الزاغوني و قد اختلف كلام إمامنا أحمد فى هذا المجيء هل يحمل على ظاهره و هل يدخل التأويل على روايتين إحداهما أنه يحمل على ظاهره من مجيء ذاته فعلى هذا يقول لا يدخل التأويل إلا أنه لا يجب أن يحمل مجيئه بذاته إلا على ما يليق به و قد ثبت أنه لا يحمل إثبات مجيء هو زوال و انتقال يوجب فراغ مكان و شغل آخر من جهة أن هذا يعرف بالجنس فى حق المحدث الذي يقصر عن إستيعاب المواضع و المواطن لأنها أكبر منه و أعظم يفتقر مجيئه إليها إلى الإنتقال

عما قرب إلى ما بعد و ذلك ممتنع في حق الباري تعالى لأنه لا شيء أعظم منه و لا يحتاج في مجيئه إلى إنتقال و زوال لأن داعى ذلك و موجبه لا يوجد فى حقه فأثبتنا المجئ صفة له و منعنا ما يتوهم في حقه ما يلزم فى حق المخلوقين لإختلافهما فى الحاجة إلى ذلك و مثله قوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر٢٢ و مثله الحديث المشهور الذي رواه عامة الصحابة أن النبى صلى الله عليه و سلم قال ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له فنحن نثبت و صفه بالنزول إلى سماء الدنيا بالحديث و لا نتأول ما ذكروه و لا نلحقه بنزول الآدميين الذي هو زوال و انتقال من علو إلى أسفل بل نسلم للنقل كما ورد و ندفع التشبيه لعدم موجبه و نمنع من التأويل لارتفاع نسبته قال و هذه الرواية هي المشهورة و المعمول عليها عند عامة المشائخ من أصحابنا قلت أما كون إتيانه و مجيئه و نزوله ليس مثل إتيان المخلوق و مجيئه و نزوله فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة و من له عقل فإن الصفات و الأفعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها و نسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته و لا ريب أنه العلي الأعلى العظيم فهو أعلى من كل شيء و أعظم من كل شيء فلا يكون نزوله و إتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه و أكبر هذا ممتنع و أما لفظ الزوال و الإنتقال فهذا اللفظ مجمل و لهذا كان أهل الحديث و السنة فيه على أقوال فعثمان بن سعيد الدارمي و غيره أنكروا على الجهمية قولهم إنه لا يتحرك و ذكروا أثرا أنه لا يزول و فسروا الزوال بالحركة فبين عثمان بن سعيد أن ذلك الأثر إن كان صحيحا لم يكن حجة لهم لأنه في تفسير قوله { الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة٢٥٥ ذكروا عن ثابت دائم باق لا يزول عما يستحقه كما قال ابن إسحق لا يزول عن مكانته قلت و الكلبى بنفسه الذي روى هذا الحديث هو يقول { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}يونس٣ إستقر و يقول { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء }البقرة٢٩ صعد إلى السماء و أما الإنتقال فابن حامد و طائفة يقولون ينزل بحركة و إنتقال و آخرون من أهل السنة كالتميمي من أصحاب أحمد أنكروا هذا و قالوا بل ينزل بلا حركة و إنتقال و طائفة ثالثة كابن بطة و غيره يقفون في هذا و قد ذكر الأقوال الثلاثة القاضي أبو يعلى فى كتاب إختلاف الروايتين و الوجهين و نفي اللفظ بمجمله و الأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فيثبت ما أثبت الله و رسوله باللفظ الذي أثبته و ينفي ما نفاه الله و رسوله كما نفاه و هو أن يثبت النزول و الإتيان و المجيء و ينفى المثل و السمى و الكفؤ و الند وبهذا يحتج البخاري و غيره على نفي المثل يقال ينزل نزولا ليس كمثله شيء نزل نزولا لا يماثل نزول المخلوقين نزولا يختص به كما أنه فى ذلك و فى سائر ما و صف به نفسه ليس كمثله شيء فى ذلك و هو منزه أن يكون نزوله كنزول المخلوقين و حركتهم و إنتقالهم و زوالهم مطلقا لا نزول الآدميين و لا غيرهم فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفل زال و صفه بالعلو و تبدل إلى و صفه بالسفول و صار غيره أعلى منه و الرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط بل هو العلي الأعلى و لا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده و يدنو منهم و ينزل إلى حيث شاء و يأتى كما شاء و هو فى ذلك العلي الأعلى الكبير المتعالى علي فى دنوه قريب فى علوه فهذا و إن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا و هذا كما يعجز أن يكون هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و لهذا قيل لأبي سعيد الخراز بم عرفت الله قال بالجمع بين النقيضين و أراد أنه يجتمع له ما يتناقض في حق الخلق كما إجتمع له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد و غيرها من الأعيان و الأفعال مع ما فيها من الخبث و أنه عدل حكيم رحيم و أنه يمكن من مكنه من عباده من المعاصى مع قدرته على منعهم و هو في ذلك حكيم عادل فإنه أعلم الأعلمين و أحكم الحاكمين و خير

الفاتحين يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم فأن لا يحيطوا علما بما هو أعظم فى ذلك أولى و أحرى و قد سألوا عن الروح فقيل لهم { الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }الإسراء٨٥ و فى الصحيحين أن الخضر قال لموسى لما نقر عصفور فى البحر ما نقص علمي و علمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر فالذي ينفى عنه و ينزه عنه إما أن يكون مناقضا لما علم من صفاته الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه كما قال {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ }البقرة٢٥٥ و قال {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ }الفرقان٥٨ فجنس السنة و النوم و الموت ممتنع عليه لا يجوز أن يقال فى شيء من هذا إنه يجوز عليه كما يليق بشأنه لأن هذا الجنس يوجب نقصا فى كماله وكذلك لا يجوز أن يقال هو يكون فى السفل لا في العلو و هو سفول يليق بجلاله فإنه سبحانه العلي الأعلى لا يكون قط إلا عاليا و السفول نقص هو منزه عنه و قوله و أنت الباطن فليس دونك شيء لا يقتضي السفول إلا عند جاهل لا يعلم حقيقة العلو و السفول فيظن أن السموات و ما فيها قد تكون تحت الأرض إما بالليل و إما بالنهار و هذا غلط كمن يظن أن ما فى السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما فى المغرب فهذا أيضا غلط بل السماء لا تكون قط إلا عالية على الأرض و إن كان الفلك مستديرا محيطا بالأرض فهو العالي على الأرض علوا حقيقيا من كل جهة و هذا مبسوط في مواضع والنوع الثانى أنه منزه عن أن يماثله شيء من المخلوقات فى شيء من صفاته فالألفاظ التى جاء بها الكتاب و السنة فى الإثبات تثبت و التى جاءت بالنفي تنفى و الألفاظ المجملة كلفظ الحركة و النزول و الإنتقال يجب أن يقال فيها إنه منزه عن مماثلة المخلوقين من كل و جه لا يماثل المخلوق لا فى نزول و لا فى حركة و لا إنتقال و لا زوال و لا غير ذلك و أما إثبات هذا الجنس كلفظ النزول أو نفيه علامات الحدث أو كل ما أوجب نقصا و حدوثا فالرب منزه عنه فهذا كلام حق معلوم متفق عليه لكن الشأن فيما تقول النافية إنه من سمات الحدث و آخرون ينازعونهم لا سيما و الكتاب و السنة تناقض قولهم قالت الجهمية إن قيام الصفات به أو قيام الصفات الإختيارية هو من سمات الحدث و هذا باطل عند السلف و أئمة السنة بل و جمهور العقلاء بل ما ذكروه يقتضى حدوث كل شيء فإنه ما من موجود إلا و له صفات تقوم به و تقوم به أحوال تحصل بالمشيئة و القدرة فإن كان هذا مستلزما للحدوث لزم حدوث كل شيء و أن لا يكون فى العالم شيء قديم و هذا قد بسط فى مواضع أيضا و سمات الحدث التى تستلزم الحدوث مثل إفتقار إلى الغير فكل ما إفتقر إلى غيره فإنه محدث كائن بعد أن لم يكن و الرب منزه عن الحاجة إلى ما سواه بكل و جه و من ظن أنه محتاج إلى العرش أو حملة العرش فهو جاهل ضال بل هو الغني بنفسه و كل ما سواه فقير إليه من كل و جه و هو الصمد الغنى عن كل شيء و كل ما سواه يصمد إليه محتاجا إليه {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ }الرحمن٢٩ ومن سمات الحدث النقائص كالجهل و العمى و الصمم و البكم فإن كل ما كان كذلك لم يكن إلا محدثا لأن القديم الأزلى منزه عن ذلك لأن القديم الأزلي متصف بنقيض هذه الصفات و صفات الكمال لازمة له و اللازم يمتنع زواله إلا بزوال الملزوم و الذات قديمة أزلية و اجبة بنفسها غنية عما سواها يستحيل عليها العدم و الفناء بوجه من الوجوه فيستحيل عدم لوازمها فيستحيل إتصافها بنقيض تلك اللوازم فلا يوصف بنقيضها إلا المحدث فهى من سمات الحدث المستلزمة لحدوث ما إتصف بها و هذا يدخل فى قول القائل كل ما إستلزم حدوثا أو نقصا فالرب منزه عنه و النقص المناقض لصفات كماله مستلزم لحدوث المتصف به و الحدوث مستلزم للنقص اللازم للمخلوق فإن كل مخلوق فهو يفتقر إلى غيره كائن بعد أن لم يكن لا يعلم إلا ما علم و لا يقدر إلا ما أقدر و هو محاط به مقدور عليه فهذه النقائص اللازمة لكل مخلوق هي ملزومة للحدوث حيث كان حدوث كانت و الحدوث أيضا ملزوم لها فحيث كان محدث كانت هذه النقائص فقولنا

ما استلزم نقصا أو حدوثا فالرب منزه عنه حق و الحدوث و النقص اللازم للمخلوق متلازمان و الرب منزه عن كل منهما من جهتين من جهة إمتناعه فى نفسه و من جهة أنه مستلزم للآخر و هو ممتنع فى نفسه فكل منهما دليل و مدلول عليه بإعتبارين على أن الرب منزه عنه وعن مدلوله الذي هو لازمه و الحاجة إلى الغير و الفقر إليه مما يستلزم الحدوث و النقص اللازم للمخلوق و قولي اللازم ليعم جميع المخلوقين و إلا فمن النقائص ما يتصف بها بعض المخلوقين دون بعض فتلك ليست لازمة لكل مخلوق و الرب منزه عنها أيضا لكن إذا نزه عن النقص اللازم لكل مخلوق فعن ما يختص به بعض المخلوقين أولى و أحرى فإنه إذا كان مخلوق ينزه عن نقص فالخالق أولى بتنزيهه عنه و هذه طريقة الأولى كما دل عليها القرآن في غير موضع وقد ذكرنا فى جواب المسائل التدمرية الملقب ب تحقيق الإثبات للأسماء و الصفات و بيان حقيقة الجمع بين القدر و الشرع أنه لا يجوز الإكتفاء فيما ينزه الرب عنه على عدم و رود السمع و الخبر به فيقال كل ما ورد به الخبر أثبتناه و ما لم يرد به لم نثبته بل ننفيه و تكون عمدتنا فى النفي على عدم الخبر بل هذا غلط لوجهين أحدهما أن عدم الخبر هو عدم دليل معين و الدليل لا ينعكس فلا يلزم إذا لم يخبر هو بالشيء أن يكون منتفيا فى نفس الأمر و لله أسماء سمى بها نفسه و استأثر بها فى علم الغيب عنده فكما لا يجوز الإثبات إلا بدليل لا يجوز النفي إلا بدليل و لكن إذا لم يرد به الخبر و لم يعلم ثبوته يسكت عنه فلا يتكلم فى الله بلا علم الثانى أن أشياء لم يرد الخبر بتنزيهه عنها و لا بأنه منزه عنها لكن دل الخبر على إتصافه بنقائضها فعلم إنتفاؤها فالأصل أنه منزه عن كل ما يناقض صفات كماله و هذا مما دل عليه السمع و العقل و ما لم يرد به الخبر إن علم إنتفاؤه نفيناه و إلا سكتنا عنه فلا نثبت إلا بعلم و لا ننفي إلا بعلم و نفي الشيء من الصفات و غيرها كنفي دليله طريقة طائفة من أهل النظر و الخبر و هي غلط إلا إذا كان الدليل لازما له فإذا عدم اللازم عدم الملزوم و أما جنس الدليل فيجب فيه الطرد لا العكس فيلزم من و جود الدليل و جود المدلول عليه و لا ينعكس فالأقسام ثلاثة ما علم ثبوته أثبت و ما علم إنتفاؤه نفي و ما لم يعلم نفيه و لا إثباته سكت عنه هذا هو الواجب و السكوت عن الشيء غير الجزم بنفيه أو ثبوته و من لم يثبت ما أثبته إلا بالألفاظ الشرعية التى أثبتها و إذا تكلم بغيرها إستفسر و إستفصل فإن و افق المعنى الذي أثبته الشرع أثبته باللفظ الشرعي فقد إعتصم بالشرع لفظا و معنى و هذه سبيل من إعتصم بالعروة الوثقى [١]

علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته

أما علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته وأنه كامل الأسماء الحسنى والصفات العلى فالذى يدل عليه منها الكتاب قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥} طه ٥ وقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الحديد٤ والذى يدل عليه من السنة قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله فى الملائكة الذين يتعاقبون فى الليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم وفى حديث الخوارج الا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء وفى حديث الرقية ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك وفى حديث الأوعال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٩٣-٤٣٢

والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه وفى حديث قبض الروح حتى يعرج بها الى السماء التى فيها الله وفى سنن أبى داود عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله أعرابى فقال يا رسول الله جهدت الانفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال ويحك أتدرى ما الله ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ان الله على عرشه وان عرشه على سمواته وأرضه كهكذا وقال بأصابعه مثل القبة وهذا إخبار عن انه سبحانه فوق العرش فى تلك الحال كما دل عليه القرآن كما أخبر انه استوى على العرش وانه معنا أينما كنا وكونه معنا أمر خاص فكذلك كونه مستويا على العرش وايضا فقد ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وانت الآخر فليس بعدك شىء وانت الظاهر فليس فوقك شىء وانت الباطن فليس دونك شىء وهذا نص فى ان الله ليس فوقه شىء كونه الظاهر صفة لازمة له مثل كونه الأول والآخر وكذلك الباطن فلا يزال ظاهرا ليس فوقه شىء ولا يزال باطنا ليس دونه شىء وفى الصحيح عن جابر بن عبدالله ان رسول الله لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات فى أعظم جمع حضره رسول الله جعل يقول الا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع اصبعه الى السماء وينكبها اليهم ويقول اللهم اشهد غير مرة وحديث الجارية لما سألها أين الله قالت فى السماء فأمر بعتقها وعلل ذلك بايمانها وأمثاله كثيرة وأما الذى يدل عليه من الاجماع ففى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبى تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سماواته وروى عبدالله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له بم نعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية أنه هاهنا فى الأرض وباسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد وذكر الجهمية فقال انما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء شىء وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن عامر الضبعى امام أهل البصرة علما ودينا أنه ذكر عنده الجهمية فقال هم أشر قولا من اليهود والنصارى وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله تعالى على العرش وقالوا هم ليس على العرش شىء وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة من لم يقل ان الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه ثم ألقى على مزبلة لئلا يتأذى به اهل القبلة ولا أهل الذمة وروى الامام أحمد قال أنا شريح بن النعمان قال سمعت عبدالله بن نافع الصائغ قال سمعت مالك بن أنس يقول الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو من علمه مكان وحكى الأوزاعى أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابعى التابعين الذين هم مالك امام أهل الحجاز والأوزاعى امام أهل الشام والليث امام أهل البصرة والثورى امام أهل العراق حكى شهرة القول فى زمن التابعين بالايمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وانما قاله بعد ظهور جهم المنكر لكون الله فوق عرشه النافى لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه وروى الخلال بأسانيد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبى عبدالرحمن عن قوله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥}طه ٥ كيف استوى قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التصديق وهذا مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبى عبدالرحمن أو نحوه وقال الشافعى خلافة أبى بكر حق قضاه الله تعالى فى سمائه وجمع عليه قلوب عباده ولو يجمع ما قاله الشافعى فى هذا الباب لكان فيه كفاية ومن أصحاب الشافعى عبدالعزيز بن يحيى الكنانى المكى له كتاب الرد على الجهمية وقرر فيه مسئلة العلو وأن الله تعالى فوق عرشه والأئمة فى الحديث والفقه والسنة والتصوف المائلون الى الشافعى ما من أحد منهم الا له كلام فيما يتعلق بهذا الباب ما هو معروف يطول ذكره

وفى كتاب الفقه الأكبر المشهور عن أبى حنيفة يروونه بأسانيد عن أبى مطيع الحكم بن عبدالله قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال لا تكفرن أحدا بذنب الى أن قال عمن قال لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض فقد كفر لأن الله يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥} طه ٥ وعرشه فوق سبع سموات قلت فان قال أنه على العرش ولكن لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض قال هو كافر وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وسئل على بن المدينى عن قوله { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }المجادلة٧ قال اقرأ ما قبله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }المجادلة٧ الآية وروى عن ابن عيسى الترمذى قال هو على العرش كما وصف فى كتابه وعلمه وقدره وسلطانه فى كل مكان وأبو يوسف لما بلغه عن المريسي انه ينكر الصفات الخيرية وان الله فوق عرشه أراد ضربه فهرب فضرب رفيقه ضربا بشعا وعن اصحاب ابى حنيفة فى هذا الباب ما لا يحصى [1]

الصفات الإختيارية

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ وصف الله سبحانه نفسه بالنزول الى السماء الدنيا في الثلث الاخير من الليل كما ورد في الاحاديث الصحيحة وأيضا بالنزول عشية عرفة فى عدة أحاديث صحيحة وبعضها فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبى أنه قال ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وانه عز وجل ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم عرفة ان الله ينزل الى سماء الدنيا يباهى بأهل عرفة الملائكة فيقول أنظروا الى عبادى اتونى شعثا غبرا ضاحين من كل فج عميق وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ان الله ينزل الى السماء الدنيا يباهى بأهل عرفة الملائكة ويقول أنظروا الى عبادى اتونى شعثا غبرا فوصف أنه يدنو عشية عرفة الى السماء الدنيا ويباهى الملائكة بالحجيج فيقول انظروا الى عبادى اتونى شعثا غبرا ما أراد هؤلاء ووصفه نفسه بالنزول كوصفه فى القرآن بأنه {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف٥٤ وبأنه { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت١١ وبأنه نادى موسى لقد وصف الله سبحانه نفسه بالنزول كوصفه فى القرآن بأنه {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف٥٤ وبأنه { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت١١ وبأنه نادى موسى وناجاه فى البقعة المباركة من الشجرة {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }القصص٣٠وبالمجيء والاتيان فى قوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر٢٢ وقال {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٣٦-١٤٠ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٨٠

يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } الأنعام١٥٨ والأحاديث المتواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى اتيان الرب يوم القيامة كثيرة وكذلك اتيانه لأهل الجنة يوم الجمعة [1]

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شىء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا و أن القدرة هى قدرته على الفعل و الفعل نوعان لازم و متعد و النوعان فى قوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } الحديد٤ فالإستواء و الإتيان و المجيء و النزول و نحو ذلك أفعال لازمة لاتتعدى إلى مفعول بل هى قائمة بالفاعل و الخلق و الرزق و الإماتة و الإحياء و الإعطاءوالمنع و الهدى و النصر و التنزيل و نحو ذلك تتعدى إلى مفعول والناس فى هذين النوعين على ثلاثة أقوال منهم من لايثبت فعلا قائما بالفاعل لا لازما و لا متعديا أما اللازم فهو عنده منتف و أما المتعدى كالخلق فيقول الخلق هو المخلوق أو معنى غير المخلوق و هذا قول الجهمية و المعتزلة و من إتبعهم كالأشعرى و متبعيه و هذا أول قولي القاضى أبى يعلى و قول إبن عقيل وكثير من المعتزلة يقولون الخلق هو المخلوق و آخرون يقولون هو غيره لكن يقولون بأن الخلق له خلق آخر كما يقوله معمر بن عباد و يسمون أصحاب المعاني المتسلسلة و منهم من يقول الخلق هو نفس الإرادة كما يقوله من يقوله من بعض المعتزلة من أهل البصرة و القول الثاني أن الفعل المتعدي قائم بنفسه دون اللازم فيقولون الخلق قائم بنفسه ليس هو المخلوق و هم على قولين منهم من جعل ذلك الفعل حادثا و منهم من يجعله قديما فيقول التخليق و التكوين قديم أزلي و هؤلاء منهم من يجعل عين التخليق شيئا و احدا هو قديم و المخلوقين مادته و لكنه قديم أزلي و لا يثبتون نزولا قائما بنفسه و لا إستواء لأن هذه حوادث و هذا قول الكلابية الذين يقولون فعله قديم مثل كلامه كما قال أصحاب إبن خزيمة و هو قول كثير من الحنفية و الحنبلية و المالكية و الشافعية و منهم من يجعل القديم هو النوع و أفراده حادثة فعلى هذا القول يكون الفعل نفسه مقدورا و أما على قول من يجعله شيئا معينا فهؤلاءإن قالوا قديم تناقضوا و لزمهم أن يكون القديم المعين مقدورا و إن قالوا هو غير مقدور تناقضوا لأن الفعل يجب أن يكون مقدورا و الله أعلم و القول الثالث إثبات الفعلين اللازم و المعتدى كما دل عليه القرآن فنقول إنه كما أخبر عن نفسه أنه خلق السموات و الأرض فى ستة أيام ثم إستوى على العرش و هو قول السلف و أئمة السنة و هو قول من يقول إنه تقوم به الصفات الإختيارية كأصحاب أبى معاذ و زهير البابى و داود بن علي و الكرامية و غيرهم من الطوائف و إن كانت الكرامية يقولون بأن النزول و الإتيان أفعال تقوم به و هؤلاء يقولون يقدر على أن يأتى و يجيء و ينزل و يستوى و نحو ذلك من الأفعال كما أخبر عن نفسه و هذا هو الكمال وقد صرح أئمة هذا القول بأنه يتحرك كما ذكر ذلك حرب الكرمانى عن أهل السنة و الجماعة و سمى منهم أحمد بن حنبل و سعيد بن منصور و إسحاق بن إبراهيم وغيرهم و كذلك ذكره عثمان بن سعيد الدارمي عن أهل السنة و جعل نفي الحركة عن الله عزوجل من أقوال الجهمية التى أنكرها السلف و قال كل حي متحرك و مالا يتحرك فليس بحي و قال بعضهم إذا قال لك الجهمى أنا كافر برب يتحرك فقل أنا مؤمن برب يفعل ما يشاء وهؤلاء يقولون من جعل هذه الأفعال غير ممكنة و لا مقدورة له فقد جعله دون الجماد فإن الجماد و إن كان لايتحرك بنفسه فهو يقبل الحركة فى الجملة و هؤلاء يقولون إنه تعالى لايقبل ذلك بوجه و لا تمكنه الحركة و الحركة و الفعل صفة كمال كالعلم و القدرة و الإرادة فالذين ينفقون تلك الصفات سلبوه صفات الكمال فكذلك هؤلاء الكلابية وأولئك نفاة الصفات إذا قيل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص:٣٧٣- ٣٧٤

لهم لو لم يكن حيا عليما سميعا بصيرا متكلما للزوم أن يكون ميتا جاهلا أصم أعمى أخرس و هذه نقائص يجب تنزيهه عنها فإنه سبحانه قد خلق من هو حى سميع بصير متكلم عالم قادر متحرك فهو أولى بأن يكون كذلك فإن كل كمال فى المخلوق المعلول فهو من كمال الخالق الذى يسمونه علة فاعلية و أيضا فالقديم الواجب بنفسه أكمل من المحدث فيمتنع أن يختص الناقص بالكمال قالوا و أما الجماد فلا يسمى حيا و لا ميتا و قد ذكرنا فى غير موضع الجواب عن هذه بأجوبة أحدها أن قولهم إن الجماد لايسمى حيا و إنما يسمى ميتا ما كان قابلا للحياة هو إصطلاح و إلا فالقرآن قد سمى الجماد ميتا في غير موضع كقوله تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{٢٠} أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{٢١} النحل٢٠-٢١ الآية فسمى الأصنام أمواتا و هى حجارة و قال {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا }يس٣٣

الوجه الثانى لانسلم إمتناع قبول هذه الحياة بل الرب تعالى قد جعل الجمادات قابلة للحياة و لا يمتنع قبولها لها فإن الله تعالى قد جعل عصى موسى حية تسعى فدل على أن الخشب يمكن أن يكون حيوانا موسى لما إغتسل جعل ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه و قد أحيا الله الحوت المشوي الذى كان معه و مع فتاه و قد سبح الحصا و الطعام سبح و هو يؤكل و كان حجر يسلم على النبى صلى الله عليه و سلم و حن الجذع و الجبال سبحت مع داود و نظائر هذا كثيرة و قد قال تعالى { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ }الإسراء٤٤ الوجه الثالث أن يقال هب أنه لا يوصف بالموت إلا ماقبل الحياة فمعلوم أن ماقبل الحياة أكمل ممن لا يقبلها فالجنين فى بطن أمه قبل أن ينفخ فيه الروح أكمل من الحجر و قد قال تعالى { وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ }البقرة٢٨ فالجنين يمكن أن يصير حيا فى العادة ناطقا نطقا يسمعه الإنسان السماع المعتاد فهو أكمل من الحجر والتراب و أيضا فيقال لهم رب العالمين إما أن يقبل الإتصاف بالحياة و العلم و نحو ذلك و إما أن لا يقبل فإن لم يقبل ذلك و لم يتصف به كان دون الأعمى الأصم الأبكم و إن قبلها و لم يتصف بها كان ما يتصف بها أكمل منه فجعلوه دون الإنسان و البهائم و هكذا يقال لهم فى أنواع الفعل القائم به كالإتيان و المجيء و النزول و جنس الحركة إما أن يقبل ذلك و إما أن لايقبله فإن لم يقبله كانت الأجسام التى تقبل الحركة و لم تتحرك أكمل منه و أن قبل ذلك و لم يفعله كان ما يتحرك أكمل منه فإن الحركة كمال للمتحرك و معلوم أن من يمكنه أن يتحرك بنفسه أكمل ممن لا يمكنه التحرك و ما يقبل الحركة أكمل ممن لايقبلها والنفاة عمدتهم أنه لو قبل الحركة لم يخل منها و بلزم و جود حوداث لا تتناهى ثم إدعوا نفى ذلك و فى نفيه نقائص لا تتناهى و المثبتون لذلك يقولون هذا هو الكمال كما قال السلف لم يزل الله متكلما إذا شاء كما قال ذلك إبن المبارك و أحمد بن حنبل غيرهما و ذكر البخارى عن نعيم بن حماد أنه قال الحى هو الفعال و ما ليس بفعال فليس بحي و قد عرف بطلان قول الجهمية و غيرهم بإمتناع دوام الفعل و الحوادث كما قد بسط في غير هذا الموضع والمقصود ههنا أن هؤلاء لا يجعلونه قادرا على هذه الأفعال و هى أصل الفعل فلا يكون على شيء قدير على قولهم بل و لا على شي و قد قال {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }الأنعام٩١ قال إبن عباس فى رواية الوالبي عنه هذه فى الكفار فأما من آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره وذكروا فى قوله {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }الأنعام٩١ ماعرفوه حق معرفته و ما عظموه حق عظمته و ما و صفوه حق صفته و هذه الكلمة ذكرها الله فى ثلاثة مواضع في الرد على المعطلة و على المشركين و على من أنكر إنزال شيء على البشر فقال في الأنعام {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ }الأنعام٩١ و قال فى الحج {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ {٧٣} الحج٧٣ إلى قوله تعالى {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحج٧٤ و قال فى الزمر {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

}الزمر٦٧ ثبت فى الصحيحين من حديث إبن مسعود أن حبرا من اليهود قال للنبى صلى الله عليه و سلم يامحمد إن الله يوم القيامة يجعل السموات على أصبع و الأرض على أصبع و الجبال و الشجر على أصبع و الماء والثرى و سائر الخلق على أصبع ثم يهزهن و يقول أنا الملك قال فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم تصديقا لقول الحبر ثم قرأ {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }الزمر٦٧ الآية و فى الصحيحين أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ثم يقول إين الجبارون إين المتكبرون و كذلك فى الصحيحين من حديث إبن عمر يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيدة اليمنى ثم يقول أنا الملك إين الجبارون إين المتكبرون و في لفظ لمسلم قال يأخذ الجبار تبارك و تعالى سمواته و أرضه بيديه جميعا فجعل يقبضهما و يبسطهما ثم يقول أنا الملك أنا الجبار و أنا الملك أين الجبارون و أين المتكبرون و يميل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن يمينه و عن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أنى لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه و سلم وفى السنن عن عوف بن مالك الأشجعى قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لايمر بآية رحمة إلا و قف فسأل و لا يمر بآية عذاب إلا و قف و تعوذ قال ثم ركع بقدر قيامه يقول فى ركوعه سبحان ذي الجبروت و الملكوت و الكبرياء و العظمة ثم يسجد بقدر قيامه ثم قال فى سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة رواه أبو داود و النسائى و الترمذي فى الشمائل فقال في هذا الحديث سبحان ذي الجبروت و الملكوت و الكبرياء و العظمة و هذه الأربعة نوزع الرب فيها كما قال أين الملوك أين الجبارون أين المتكبرون و قال عز وجل العظمة إزاري و الكبرياء ردائى فمن نازعني و احدا منهما عذبته الله حق قدره وأنهم داخلون فى هذه الآية و أنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل و لا على الكلام بمشيئته و لا على نزوله و على إنزاله منه شيئا فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدرة الله و أنه إلى كل شيء قدير و إذا لم يكن قديرا لم يكن قويا و يلزمهم أنه لم يخلق شيئا فيلزمهم الدخول فى قوله ضعف الطالب و المطلوب ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز فهم ينفون حقيقة قدرته فى الأزل و حقيقة قولهم أنه صار قادرا بعد أن لم يكن و القدرة التى يثبتونها لاحقيقة لها وهذا أصل مهم من تصوره عرف حقيقه الأقوال الباطلة و ما يلزمها من اللوازم وعرف الحق الذى دل عليه صحيح المنقول و صريح المعقول لاسيما فى هذه الأصول التى هي أصول كل الأصول والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول و قد تبين أنه كلما تحققت الحقائق و أعطى النظر و الإستدلال حقه من التمام كان مادل عليه القرآن هو الحق و هو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولا و هو مشتبه مختلط كما قال مجاهد فى قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً }الأنعام١٥٩ قال هم أهل البدع و الشبهات فهم فى أمور مبتدعة فى الشرع مشتبهة في العقل والصواب هو ما كان موافقا للشرع مبينا في العقل فإن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه و أنه تنزيل منه و أنه كلامه و أنه قوله و أنه كفرمن قال أنه قول البشر و أخبر أنه قول رسول كريم من الملائكة و رسول كريم من البشر و الرسول يتضمن المرسل فبين أن كلا من الرسولين بلغه لم يحدث هو منه شيئا و أخبر أنه جعله قرآنا عربيا [11]

---

[11] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٩-٢٨

الله سبحانه فوق العرش ومع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان

فان لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة فى قوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ وقوله تعالى { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }المجادلة٧ وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا هو معهم بعلمه وقد ذكر ابن عبدالبر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل وغيرهم قال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أبى ثنا اسماعيل بن ابراهيم بن معمر عن نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ قال هو على العرش وعلمه معهم قال وروى عن سفيان الثورى أنه قال علمه معهم وقال حدثنا أبى قال حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقى حدثنا نوح بن ميمون المضروب ثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم فى قوله { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }المجادلة٧ إلى قوله { أَيْنَ مَا كَانُوا }المجادلة٧ قال هو على العرش وعلمه معهم ورواه باسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا وهو ثقة فى التفسير ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان وقال عبدالله بن أحمد ثنا أبى ثنا نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف ثنا ابو معاوية عن مقاتل بن حيان عن الضحاك فى قوله تعالى { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا }المجادلة٧ قال هو على العرش وعلمه معهم وقال على بن الحسن بن شقيق حدثنا عبدالله بن موسى صاحب عبادة ثنا معدان قال ابن المبارك ان كان أحد بخراسان من الابدال فمعدان قال سألت سفيان الثورى عن قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ قال علمه وقال حنبل بن اسحق فى كتاب السنة قلت لأبى عبدالله أحمد بن حنبل ما معنى قوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ و { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }المجادلة٧ الى قوله تعالى { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا }المجادلة٧ قال علمه عالم الغيب والشهادة محيط بكل شىء شاهد علام الغيوب يعلم الغيب ربنا على العرش بلا حد ولا صفة وسع كرسيه السموات والأرض وقد بسط الامام أحمد الكلام على معنى المعية فى الرد على الجهمية ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاما كما فى هاتين الآيتين وجاء خاصا كما فى قوله }إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ وقوله { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦ وقوله { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شىء لكان التعميم يناقض التخصيص فانه قد علم أن قوله { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ أراد به تخصيصه وابا بكر دون عدوهم من الكفار وكذلك قوله {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٦٥

ملاحظة (كل القضايا المتعلقة بكيفية الاستواء على العرش ذكرت بتوسع كامل في تفسير طه ٥(((

وأيضا فلفظ المعية ليست فى لغة العرب ولا شيء من القرآن يراد بها اختلاط احدى الذاتين بالأخرى كما فى قوله {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ }الفتح٢٩ وقوله { فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }النساء١٤٦ وقوله {ياتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ وقوله{وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ }الأنفال٧٥ ومثل هذا كثير فامتنع أن يكون قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ }الحديد٤ يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق وأيضا فانه افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم فكان السياق يدل على انه أراد أنه عالم بهم وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر وبين أن لفظ المعية فى اللغة وان اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة فهو اذا كان مع العباد لم يناف ذلك علوه على عرشه ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ويخص بعضهم بالاعانة والنصر والتأييد تصحيح هذه الاية{ياتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ بشطب حرف الياء من اولهاهكذا {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ وقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال انت الاول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء وجاء عن النبى من حديث أبى هريرة وأبى ذر رضى الله عنهما فى تفسير هذه الأسماء وحديث الادلاء ما قد بسطنا القول عليه فى مسألة الاحاطة وكذلك هذا الحديث ذكره قتادة فى تفسيره وهو يبين أنه ليس معنى الباطن أنه القرب ولا لفظ الباطن يدل على ذلك ولا لفظ القرب فى الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية ولا لفظ القرب فى اللغة والقرآن كلفظ المعية فانه اذا قال هذا مع هذا فانه يعنى به المجامعة والمقارنة والمصاحبة ولا يدل على قرب احدى الذاتين من الأخرى ولا اختلاطها بها فلهذا كان اذا قيل هو معهم دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم وهو مع ذلك فوق عرشه كما أخبر القرآن والسنة بهذا وقال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الاشياء وكذلك فى حديث الأوعال الذى فى السنن قال النبى والله فوق عرشه ويعلم ما أنتم عليه ولم يأت فى لفظ القرب مثل ذلك أنه قال هو فوق عرشه وهو قريب من كل شيء بل قال { إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ }الأعراف٥٦ وقال {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }البقرة١٨٦ وقال النبى انكم لا تدعون أصم ولا غائبا ان الذى تدعونه سميع قريب[1]

وقال عبد الله بن نافع كان مالك بن انس يقول الله فى السماء وعلمه فى كل مكان وقال معدان سألت سفيان الثورى عن قوله تعالى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ قال علمه[2]

ليس معنى قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ} أنه مختلط بالخلق

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به فى كتابه وتواتر عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه على على خلقه وهو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٤٩٥-٤٩٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٨٣

سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك فى قوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} الحديد٤ وليس معنى قوله {وَهُوَ مَعَكُمْ} الحديد٤ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الامة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته هو موضوع فى السماء وهو مع المسافر وغير المسافر اينما كان وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع اليهم الى غير ذلك من معانى ربوبيته وكل هذا الكلام الذى ذكره الله سبحانه من انه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج الى تحريف ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل ان يظن ان ظاهر قوله فى السماء أن السماء تقله أو تظله وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض وهو الذى يمسك السموات والارض أن تزولا ويمسك السماء أن تقع على الارض إلا بإذنه {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} الروم٢٥[1]

إقرار الفطر بأن معبودها فوق

وقال الطلمنكى أحد أئمة المالكية قبل ابن عبد البر والباجى وطبقتهما فى كتاب الوصول الى معرفة الأصول أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} الحديد٤ ونحو ذلك من القرآن ان ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستو على العرش كيف شاء وقال أيضا قال أهل السنة فى قول الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه٥ ان الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز وقال ابن عبد البر فى التمهيد شرح الموطأ وهو أشرف كتاب صنف فى فنه لما تكلم على حديث النزول قال هذا حديث ثابت لا يختلف أهل الحديث فى صحته وفيه دليل على أن الله فى السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة وهو من حجتهم على المعتزلة فى قولهم انه فى كل مكان وليس على العرش قال والدليل على صحة ما قاله أهل الحق قول الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه٥ وقال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر١٠ وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} المعارج٤ وقال {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} آل عمران٥٥ وذكر آيات الى أن قال وهذا أشهر عند العامة والخاصة من أن يحتاج الى أكثر من حكايته لانه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ولا خالفهم فيه مسلم وهذا مثل ما ذكر محمد بن طاهر عن ابى جعفر الهمدانى أنه حضر مجلس بعض المتكلمين فقال كان الله ولا عرش فقال يا أستاذ دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورات التى نجدها فى قلوبنا ما قال عارف قط يا الله الا وجد فى قلبه ضرورة تطلب العلو لا تلتفت يمنة ولا يسرة فضرب بيده على رأسه وقال حيرنى الهمدانى حيرنى الهمدانى أراد الشيخ أن إقرار الفطر بأن معبودها ومدعوها فوق هو أمر ضرورى عقلى فطرى لم تستفده من مجرد السمع بخلاف الاستواء على العرش بعد خلق السموات والارض فى ستة أيام فان هذا علم من جهة السمع ولهذا لا تعرف أيام الاسبوع الا من جهة المقرين بالنبوات فاما من لا يعرف ذلك كالترك المشركين فليس فى لغتهم أسماء أيام الاسبوع وهذا من حكمة اجتماع أهل كل ملة فى يوم واحد فى الأسبوع كما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٤٢ و العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٢٨-٢٩

قال النبى صلى الله عليه وسلم اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى وقال أيضا الذى عليه أهل السنة وأئمة الفقه والأثر فى هذه المسألة وما أشبهها الإيمان بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم والتصديق بذلك وترك التحديد والكيفية فى شيء منه [1]

المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد

جماع الأمر فى ذلك أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق واعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والالحاد فى اسماء الله وآياته ولا يحسب الحاسب أن شيئا من ذلك يناقض بعضه بعضا ألبتة مثل ان يقول القائل ما فى الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ وقوله اذ قام أحدكم الى الصلاة فان الله قبل وجهه ونحو ذلك فان هذا غلط وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما فى قوله سبحانه وتعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا كما قال النبى فى حديث الأوعال والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه وذلك أن كلمة مع فى اللغة اذا أطلقت فليس ظاهرها فى اللغة الا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال فاذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى فانه يقال ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا ويقال هذا المتاع معى لمجاعته لك وان كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته وكذلك فى قوله { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }المجادلة٧ الى قوله { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا }المجادلة٧ الآية ولما قال النبى لصاحبه فى الغار {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ كان هذا أيضا حقا على ظاهره ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد وكذلك قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ وكذلك قوله لموسى وهارون {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦ هنا المعية على ظاهرها وحكمها فى هذه المواطن النصر والتأييد وقد يدخل على صبى من يخيفه فيبكى فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول لا تخف أنا معك أو أنا هنا أو أنا حاضر ونحو ذلك ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع فلفظ المعية قد استعمل فى الكتاب والسنة فى مواضع يقتضى فى كل موضع أمورا لا يقتضيها فى الموضع الآخر فاما ان تختلف دلالتها

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٢٠-٢٢٢

بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها وان امتاز كل موضع بخاصية فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية فانهما وان اشتركتا فى أصل الربوبية والعبودية فلما قال { ربِّ الْعَالَمِينَ{١٢١} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{١٢٢} الاعراف ١٢١-١٢٢ كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق فان من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره وكذلك قوله {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً }الإنسان٦ و {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً }الإسراء١ فان العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق كما فى قوله {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً }مريم٩٣ وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل فكانت الاضافة فى حقه أكمل مع أنها حقيقة فى جميع المواضع ومثل هذه الالفاظ يسميها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها هل هى من قبيل الاسماء المتواطئة أو من قبيل المشتركة فى اللفظ فقط والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة اذ واضع اللغة انما وضع اللفظ بازاء القدر المشترك وان كانت نوعا مختصا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ ومن علم أن المعية تضاف الى كل نوع من أنواع المخلوقات كإضافة الربوبية مثلا وأن الاستواء على الشىء ليس الا للعرش وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط لا حقيقة ولا مجازا علم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف ثم من توهم أن كون الله فى السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب ان نقله عن غيره وضال ان اعتقده فى ربه وما سمعنا أحدا يفهم هذا من اللفظ ولا رأينا أحدا نقله عن واحد ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله ورسوله ان الله فى السماء ان السماء تحويه لبادر كل أحد منهم الى أن يقول هذا شىء لعله لم يخطر ببالنا واذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئا محالا لا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله بل عند الناس ان الله فى السماء وهو على العرش واحد اذ السماء انما يراد به العلو فالمعنى أن الله فى العلو لا فى السفل وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وتعالى وسع السموات والأرض وان الكرسى فى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة الى قدرة الله وعظمته فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقا يحصره ويحويه وقد قال سبحانه {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ }طه٧١ وقال { فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ }النحل٣٦ بمعنى على ونحو ذلك وهو كلام عربى حقيقة لا مجازا وهذا يعلمه من عرف حقائق معانى الحروف وانها متواطئة فى الغالب لا مشتركة وكذلك قوله اذا قام أحدكم الى الصلاة فان الله قبل وجهه فلا يبصق قبل وجهه الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش وهو قبل وجه المصلى بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات فان الانسان لو أنه يناجى السماء أو يناجى الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه وكانت أيضا قبل وجهه وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم المثل بذلك ولله المثل الأعلى ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هذا وامكانه لا تشبيه الخالق بالمخلوق فقال النبى ما منكم من أحد الا سيرى ربه مخليا به فقال له أبو رزين العقيلى كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع فقال النبى سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله هذا القمر كلكم يراه مخليا به وهو آية من آيات الله فالله أكبر أو كما قال النبى وقال انكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر فشبه الرؤية بالرؤية وان لم يكن المرئى مشابها للمرئى فالمؤمنون اذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه كل يراه فوقه قبل وجهه كما يرى الشمس والقمر ولا منافاة أصلا ومن كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ فى العلم بالله يكون اقراره للكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد وأعلم ان من المتأخرين من يقول مذهب السلف اقرارها على

ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد وهذا اللفظ مجمل فان قوله ظاهرها غير مراد يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلى أنه مستقر فى الحائط الذى يصلى اليه وان الله معنا ظاهره أنه الى جانبنا ونحو ذلك فلا شك أن هذا غير مراد ومن قال أن مذهب السلف ان هذا غير مراد فقد اصاب فى المعنى لكن أخطأ باطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والاحاديث فان هذا المحال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه فى غير هذا الموضع اللهم الا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيبا بهذا الاعتبار معذورا فى هذا الاطلاق فان الظهور والبطون قد يختلف باختلاف احوال الناس وهو من الامور النسبية وكان أحسن من هذا أن يبين لمن اعتقد أن هذا هو الظاهر ان هذا ليس هو الظاهر حتى يكون قد اعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظا ومعنى وان كان الناقل عن السلف اراد بقوله الظاهر غير مراد عندهم ان المعانى التى تظهر من هذه الآيات والاحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته ولا يختص بصفة المخلوقين بل هى واجبة لله أو جائزة عليه جوازا ذهنيا أو جوازا خارجيا غير مراد فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف أو تعمد الكذب فما يمكن أحد قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل لا نصا ولا ظاهرا أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش ولا ان الله ليس له سمع ولا بصر ولا يد حقيقة وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف ويقولون ان طريقة أهل التأويل هى فى الحقيقة طريقة السلف بمعنى أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والاحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه وتعالى ولكن السلف امسكوا عن تأويلها والمتأخرون رأوا المصلحة فى تأويلها لمسيس الحاجة الى ذلك ويقولون الفرق بين الطريقين أن هؤلاء قد يعينون المراد بالتأويل وأولئك لا يعينون لجواز أن يراد غيره وهذا القول على الاطلاق كذب صريح على السلف اما فى كثير من الصفات فقطعا مثل أن الله تعالى فوق العرش فان من تأمل كلام السلف المنقول عنهم الذى لم يحك هنا عشره علم بالاضطرار ان القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط وكثير منهم قد صرح فى كثير من الصفات بمثل ذلك والله يعلم انى بعد البحث التام ومطالعة ما امكن من كلام السلف ما رأيت كلام أحد منهم يدل لا نصا ولا ظاهرا ولا بالقرائن على نفى الصفات الخبرية

فى نفس الأمر بل الذى رأيته ان كثيرا من كلامهم يدل اما نصا واما ظاهرا على تقرير جنس هذه الصفات ولا أنقل عن كل واحد منهم اثبات كل صفة بل الذى رأيته أنهم يثبتون جنسها فى الجملة وما رأيت أحدا منهم نفاها وانما ينفون التشبيه وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه مع انكارهم على من ينفى الصفات ايضا كقول نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها [١]

المعية معيتان عامة وخاصة

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

[١] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٠٣-١١٠

بَصِيرٌ }الحديد٤ قال تعالى { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله معه ومع صاحبه كما قال لموسى وهارون { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦ وقد أخرجا في الصحيحين من حديث أنس عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال نظرت إلى إقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وهذا الحديث مع كونه مما اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق فلم يختلف في ذلك اثنان منهم فهو مما دل القرآن على معناه يقول { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ والمعية في كتاب الله على وجهين عامة وخاصة فالعامة كقوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ وقوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }المجادلة٧ فهذه المعية عامة لكل متناجين وكذلك الأولى عامة لجميع الخلق ولما أخبر سبحانه في المعية أنه رابع الثلاثة وسادس الخمسة قال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظنك باثنين الله ثالثهما فإنه لما كان معهما كان ثالثهما كما دل القرآن على معنى الحديث الصحيح وإن كان هذه معية خاصة وتلك عامة وأما المعية الخاصة فكقوله تعالى لما قال لموسى وهارون { لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦ فهذا تخصيص لهما دون فرعون وقومه فهو مع موسى وهارون دون فرعون وكذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ كان معناه إن الله معنا دون المشركين الذين يعادونهما ويطلبونهما كالذين كانوا فوق الغار ولو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه وكذلك قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ فهذا تخصيص لهم دون الفجار والظالمين وكذلك قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة١٥٣ تخصيص لهم دون الجازعين وكذلك قوله تعالى {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي }المائدة١٢ وقال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ }الأنفال١٢ وفي ذكره سبحانه للمعية عامة تارة وخاصة أخرى ما يدل على أنه ليس المراد بذلك أنه بذاته في كل مكان أو أن وجوده عين وجود المخلوقات ونحو ذلك من مقالات الجهمية الذين يقولون بالحلول العام والاتحاد العام أو الوحدة العامة لأنه على هذا القول لا يختص بقوم دون قوم ولا مكان دون مكان بل هو في الحشوش على هذا القول وأجواف البهائم كما هو فوق العرش فإذا أخبر أنه مع قوم دون قوم كان هذا مناقضا لهذا المعنى لأنه على هذا القول لا يختص بقوم دون قوم ولا مكان دون مكان بل هو في الحشوش على هذا القول كما هو فوق العرش والقرآن يدل على اختصاص المعية تارة وعمومها أخرى فعلم أنه ليس المراد بلفظ المعية اختلاطه وفي هذا أيضا رد على من يدعى أن ظاهر القرآن هو الحلول لكن يتعين تأويله على خلاف ظاهره ويجعل ذلك أصلا يقيس عليه ما يتأوله من النصوص فيقال له قولك إن القرآن يدل على ذلك خطأ كما أن قول قرينك الذي اعتقد هذا المدلول خطأ وذلك لوجوه أحدها أن لفظ مع في لغة العرب إنما تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران ولا تدل على أن الأول مختلط بالثاني في عامة موارد الإستعمال كقوله تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ }الفتح٢٩ لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته وقوله {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ وكذلك قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ }الأنفال٧٥ وكذلك قوله عن نوح {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ }هود٤٠ وقوله عن نوح أيضا { فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

}الأعراف٦٤ وقوله عن هود {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا }الأعراف٧٢ وقول قوم شعيب { لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا }الأعراف٨٨ وقوله {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }النساء١٤٦ وقوله { وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }الأنعام٦٨ وقوله {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ }المائدة٥٣ وقوله {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ }الحشر١١ وقوله عن نوح { اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ }هود٤٨ وقوله {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }الأعراف٤٧ وقوله { فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ }التوبة٨٣ وقوله {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ }التوبة٨٧ وقال {لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ }التوبة٨٨ ومثل هذا كثير في كلام الله تعالى وسائر الكلام العربي وإذا كان لفظ مع إذا استعملت في كون المخلوق مع المخلوق لم تدل على اختلاط ذاته بذاته فهي أن لا تدل على ذلك في حق الخالق بطريق الأولى فدعوى ظهورها في ذلك باطل من وجهين أحدهما أن هذا ليس معناها في اللغة ولا اقترن بها في الاستعمال ما يدل على الظهور فكان الظهور منتفيا من كل وجه الثاني أنه إذا انتفى الظهور فيما هو أولى به فانتفاؤه فيما هو أبعد عنه أولى الثاني أن القرآن قد جعل المعية خاصة أكثر مما جعلها عامة ولو كان المراد اختلاط ذاته بالمخلوقات لكانت عامة لا تقبل التخصيص الثالث أن سياق الكلام أوله وآخره يدل على معنى المعية كما قال تعالى في آية المجادلة {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }المجادلة٧ فافتتحها بالعلم وختمها بالعلم فعلم أنه أراد عالم بهم لا يخفى عليه منهم خافية وهكذا فسرها السلف الإمام أحمد ومن قبله من العلماء كابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وفي آية الحديد قال { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فختمها أيضا بالعلم وأخبر أنه مع استوائه على العرش يعلم هذا كله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه فهناك أخبر بعموم العلم لكل نجوى وهنا أخبر أنه مع علوه على عرشه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وهو من العباد أينما كانوا يعلم أحوالهم والله بما يعملون بصير وأما قوله {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ فقد دل السياق على أن المقصود ليس مجرد علمه وقدرته بل هو معهم في ذلك بتأييده ونصره وأنه يجعل للمتقين مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وكذلك قوله لموسى وهارون {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه٤٦ فإنه معهما بالتأييد والنصر والإعانة على فرعون وقومه كما إذا رأى الإنسان من يخاف فقال له من ينصره نحن معك اي معاونوك وناصروك على عدوك [1]

أن الله قد أخبر بأنه مع عباده فى غير موضع من الكتاب عموما وخصوصا مثل قوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ وكان النبى اذا سافر يقول اللهم انت

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص:٣٧٢- ٣٨٠

الصاحب فى السفر والخليفة فى الاهل اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا فإن المعية لا تكون الا من الطرفين فان معناها المقارنة والمصاحبة [1]

الأفعال متعد ولازم كلاهما حاصل بمشيئة الله وقدرته

والذى عليه جماهير المسلمين من السلف والخلف ان الخلق غير المخلوق فالخلق فعل الخالق والمخلوق مفعوله ولهذا كان النبى يستعيذ بأفعال الرب وصفاته كما فى قوله أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره على ان كلام الله غير مخلوق بأنه استعاذ به فقال من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة لأنه استعاذ بهما والعافية القائمة ببدن العبد مخلوقة فانها نتيجة معافاته واذا كان الخلق فعله و المخلوق مفعوله وقد خلق الخلق بمشيئته دل على أن الخلق فعل يحصل بمشيئته ويمتنع قيامه بغيره فدل على ان افعاله قائمة بذاته مع كونها حاصلة بمشيئته وقدرته وقد حكى البخارى اجماع العلماء على الفرق بين الخلق والمخلوق وعلى هذا يدل صريح المعقول فانه قد ثبت بالادلة العقلية والسمعية ان كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد ان لم يكن وان الله انفرد بالقدم والازلية وقد قال تعالى قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فهو حين خلق السموات ابتداءا اما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقا للسموات والأرض واما أن لا يحصل منه فعل بل وجدت المخلوقات بلا فعل ومعلوم أنه اذا كان الخالق قبل خلقها ومع خلقها سواء وبعده سواء لم يجز تخصيص خلقها بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص و أيضا فحدوث المخلوق بلا سبب حادث ممتنع فى بداية العقل الأفعال نوعان متعد ولازم فالمتعدى مثل الخلق والاعطاء ونحو ذلك واللازم مثل الاستواء والنزول والمجيء والاتيان قال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الحديد٤ فذكر الفعلين المتعدى واللازم وكلاهما حاصل بمشيئته وقدرته وهو متصف به [2]

اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٧٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٣٢-٢٣٣

ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة٢٥٥ وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }الروم١٩ وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }الروم١٩ اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بأنه استوى على عرشه فذكر ذلك فى سبع مواضع من كتابه أنه استوى على العرش فقال قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره فى مثل قوله {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ }المؤمنون٢٨ وليس الاستواء كالإستواء فلا بد من اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه[١]

ان كثيرا من الناس يتوهم فى بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين ثم يريد أن ينفى ذلك الذى فهمه فيقع فى أربعة أنواع من المحاذير أحدها كونه مثل ما ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل الثانى أنه اذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من اثبات الصفات اللائقة بالله فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السيء الذى ظنه بالله ورسوله حيث ظن ان الذى يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل قد عطل ما اودع الله ورسوله فى كلامهما من اثبات الصفات لله والمعانى الالهية اللائقة بجلال الله تعالى الثالث أنه ينفى تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم فيكون معطلا لما يستحقه الرب الرابع أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الاموات والجمادات أو صفات المعدومات فيكون قد عطل به صفات الكمال التى يستحقها الرب ومثله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات فيجمع فى كلام الله وفى الله بين التعطيل والتمثيل فيكون ملحدا فى أسماء الله وآياته مثال ذلك ان النصوص كلها دلت على وصف الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات استوائه على العرش فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع واما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع وليس فى الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا مداخله فيظن المتوهم أنه اذا وصف بالإستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام كقوله { وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ{١٢} لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ{١٣} الزخرف١٢-١٣ فيتخيل له انمه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والأنعام فلو غرقت السفينة لسقط المستوى عليها ولو عثرت الدابة لخر

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٥-١٦

لمستوى عليها فقياس هذا انه لو عدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى ثم يريد بزعمه ان ينفى هذا فيقول ليس استواؤه بقعود ولا إستقرار ولا يعلم ان مسمى القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال فى مسمى الاستواء فان كانت الحاجة داخلة فى ذلك فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار وليس هو بهذا المعنى مستويا ولا مستقرا ولا قاعدا وإن لم يدخل فى مسمى ذلك إلا ما يدخل فى مسمى الإستواء فاثبات أحدهما ونفى الآخر تحكم وقد علم أن بين مسمى الإستواء والاستقرار والقعود فروقا معروفة ولكن المقصود هنا أن يعلم خطأ من ينفى الشىء مع اثبات نظيره وكأن هذا الخطأ من خطئه فى مفهوم إستوائه على العرش حيث ظن انه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك وليس فى هذا اللفظ ما يدل على ذلك لأنه أضاف الإستواء الى نفسه الكريمة كما اضاف اليه سائر أفعاله وصفاته فذكر انه خلق ثم استوى كما ذكر انه قدر فهدى وانه بنى السماء بأيد وكما ذكر أنه مع موسى وهرون يسمع ويرى وأمثال ذلك فلم يذكر إستواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق كما لم يذكر مثل ذلك فى سائر صفاته وإنما ذكر إستواء أضافه الى نفسه الكريمة فلو قدر على وجه الفرض الممتنع انه هو مثل خلقه تعالى عن ذلك لكان استواؤه مثل استواء خلقه أما اذا كان هو ليس مماثلا لخلقه بل قد علم انه الغنى عن الخلق وأنه الخالق للعرش ولغيره وان كل ما سواه مفتقر اليه وهو الغنى عن كل ما سواه وهم لم يذكر الا استواءا يخصه لم يذكر استواءا يتناول غيره ولا يصلح له كما لم يذكر فى علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به فكيف يجوز ان يتوهم أنه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه وانه لو سقط العرش لخر من عليه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا هل هذا الا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله أو جوز ذلك على رب العالمين الغنى عن الخلق بل لو قدر أن جاهلا فهم مثل هذا وتوهمه لبين له ان هذا لا يجوز وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلا كما لم يدل على نظائره فى سائر ما وصف به الرب نفسه فلما قال سبحانه وتعالى {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ }الذاريات٤٧ فهل يتوهم متوهم ان بناءه مثل بناء الآدمى المحتاج الذى يحتاج الى زنبيل ومجارف وضرب لبن وجبل طين وأعوان ثم قد علم ان الله تعالى خلق العالم بعضه فوق بعض ولم يجعل عاليه مفتقرا الى سافله فالهواء فوق الارض وليس مفتقرا الى ان تحمله الارض والسحاب أيضا فوق الأرض وليس مفتقرا الى ان تحمله والسموات فوق الارض وليست مفتقرة الى حمل الأرض لها فالعلى الأعلى رب كل شىء ومليكه إذا كان فوق جميع خلقه كيف يجب ان يكون محتاجا الى خلقه أو عرشه أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم فى المخلوقات وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغنى عن غيره فالخالق سبحانه وتعالى أحق به وأولى وكذلك قوله {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ }الملك١٦ من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله فى داخل السموات فهو جاهل ضال بالإتفاق وإن كنا إذا قلنا إن الشمس والقمر فى السماء يقتضى ذلك فان حرف فى متعلق بما قبله وبما بعده فهو بحسب المضاف اليه ولهذا يفرق بين كون الشىء فى المكان وكون الجسم فى الحيز وكون العرض فى الجسم وكون الوجه فى المرآة وكون الكلام فى الورق فان كل نوع من هذه الانواع خاصة يتميز بها عن غيره وان كان حرف فى مستعملا فى ذلك فلو قال قائل العرش فى السماء أو فى الارض لقيل فى السماء ولو قيل الجنة فى السماء أم فى الأرض لقيل الجنة فى السماء ولا يلزم من ذلك ان يكون العرش داخل السموات بل ولا الجنة فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن فهذه الجنة سقفها الذى هو العرش فوق الافلاك مع ان الجنة فى السماء يراد به العلو سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها قال تعالى { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء }الحج١٥ وقال تعالى

{ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً }الفرقان٤٨ ولما كان قد استقر فى نفوس المخاطبين أن الله هو العلى الأعلى وأنه فوق كل شىء كان المفهوم من قوله إنه فى السماء أنه فى العلو وأنه فوق كل شىء وكذلك الجارية لما قال لها أين الله قالت فى السماء إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها واذا قيل العلو فانه يتناول ما فوق المخلوقات كلها فما فوقها كلها هو فى السماء ولا يقتضى هذا ان يكون هناك ظرف وجودى يحيط به اذ ليس فوق العالم شىء موجود الا الله كما لو قيل العرش فى السماء فإنه لا يقتضى أن يكون العرش فى شىء آخر موجود مخلوق وان قدر ان السماء المراد بها الافلاك كان المراد انه عليها كما قال {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ }طه٧١ وكما قال { فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ }آل عمران١٣٧ وكما قال {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ }التوبة٢ ويقال فلان فى الجبل وفى السطح وإن كان على أعلى شىء فيه [١]

الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فلنعتقد أن لله أسماء وصفات قديمة غير مخلوقة جاء بها كتابه وأخبر بها الرسول أصحابه فيما رواه الثقات وصححه النقاد الأثبات ودل القرآن المبين والحديث الصحيح المتين على ثبوتها وهي أن الله تعالى أول لم يزل وأخر لا يزال أحد قديم وصمد كريم عليم حليم علي عظيم رفيع مجيد وله بطش شديد وهو يبدىء ويعيد فعال لما يريد قوي قدير منيع نصير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير إلى سائر أسمائه وصفاته من النفس والوجه والعين والقدم واليدين والعلم والنظر والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرضى والغضب والمحبة والضحك والعجب والاستحياء والغيرة والكراهة والسخط والقبض والبسط والقرب والدنو والفوقية والعلو والكلام والسلام والقول والنداء والتجلي واللقاء والنزول والصعود والاستواء وأنه تعالى في السماء وأنه على عرشه بائن من خلقه قال مالك إن الله في السماء وعلمه في كل مكان وقال عبدالله بن المبارك نعرف ربنا فوق سبع سمواته على العرش بائنا من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية إنه ههنا وأشار إلى الأرض وقال سفيان الثوري وهو معكم أينما كنتم قال علمه قال الشافعي إنه على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء قال أحمد إنه مستو على العرش عالم بكل مكان وإنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء وإنه يأتي يوم القيامة كيف شاء وإنه يعلو على كرسيه والإيمان بالعرش والكرسي وما ورد فيهما من الآيات والأخبار[٢]

وقال أبو عبدالله محمد بن أبى زمنين الامام المشهور من أئمة المالكية فى كتابه الذى صنفه فى أصول السنة قال فيه ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه فى قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه٥ وقوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٩-٥٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٨١-١٨٢

كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ فسبحان من بعد وقرب بعلمه فسمع النجوى وذكر حديث ابى رزين العقيلى قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض قال فى عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء قال محمد العماء السحاب الكثيف المطبق فيما ذكره الخليل وذكر أثارا أخر [1]

خلق السماء من بخار الماء

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ وقد جاءت الآثار المتعددة عن الصحابة والتابعين وغيرهم بأن الله سبحانه لما كان عرشه على الماء خلق السماء من بخار الماء وأيبس الأرض وهكذا في أول التوراة الإخبار بأن الماء كان موجودا وأن الريح كانت ترف عليه وأن الله خلق من ذلك الماء السماء والأرض فهذه الأخبار الثابتة عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة مطابقة لما عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى مما في التوراة وكل ذلك يصدق بعضه بعضا ويخبر أن الله خلق هذا العالم سمواته وأرضه في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كان قبل ذلك مخلوقات كالماء والعرش فليس في إخبار الله تعالى أن السموات والأرض أبدعتا من غير شيء ولا أنه لم يكن قبلها شيء من المخلوقات وقد أخبر الله في غير موضع أنه خالق كل شيء وأنه رب كل شيء [2]

أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته

وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنها فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى }الزمر٤٢ وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ }الأنعام٦٠ مع قوله تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ }السجدة١١ وقوله { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ }الأنعام٦١ وقال تعالى { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا }الحديد٤ وقال تعالى {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ }النحل٢ وقال {نَزَلَ بِهِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٤

[2] الصفدية ج: ٢ ص: ٨٣

الرُّوحُ الْأَمِينُ }الشعراء١٩٣ وقال {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ }الإسراء١٠٥ وقال {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً }المؤمنون١٨ [1]

ابطال قول من زعم من الجهمية ان الله بذاته فى كل مكان

وقال يحيى بن عثمان فى رسالته لا نقول كما قالت الجهمية أنه بداخل الامكنة وممازج كل شيء ولا نعلم أين هو بل نقول هو بذاته على عرشه وعلمه محيط بكل شيء وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء وهو معنى قوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ وقال الشيخ العارف معمر بن أحمد شيخ الصوفية فى هذا العصر احببت أن اوصى اصحابى بوصية من السنة وأجمع ما كان عليه أهل الحديث وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين فذكر أشياء من الوصية الى أن قال فيها وان الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تأويل والاستواء معلوم والكيف مجهول وأنه مستو على عرشه بائن من خلقه والخلق بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا ملاصقة وانه عز وجل سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا وينزل كل ليلة الى سماء الدنيا كيف شاء بلا كيف ولا تأويل ومن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال وقال الحافظ أبو بكر البيهقى باب القول فى الاستواء قال الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه٥ { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف٥٤ {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }الأنعام١٨ {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}النحل٥٠ { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }فاطر١٠ {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ }الملك١٦ واراد من فوق السماء كما قال { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ }طه٧١ بمعنى على جذوع النخل وقال {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ}التوبة٢ اى على الارض وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السموات فمعنى الاية أأمنتم من على العرش كما صرح به فى سائر الآيات قال وفيما كتبنا من الآيات دلالة على ابطال قول من زعم من الجهمية ان الله بذاته فى كل مكان وقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ انما اراد بعلمه لا بذاته [2]

قد وصف الله نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله بالعلو والاستواء على العرش والفوقية فى كتابه فى آيات كثيرة حتى قال بعض كبار اصحاب الشافعى فى القرآن ألف دليل أو ازيد تدل على أن الله عال على الخلق وأنه فوق عباده وقال غيره فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك مثل قوله {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ }الأعراف٢٠٦ {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ }الأنبياء١٩ فلو كان المراد بأن معنى عنده فى قدرته كما يقول الجهمية لكان الخلق كلهم فى قدرته ومشيئته لم يكن فرق بين من فى السموات ومن فى الأرض ومن عنده كما ان الاستواء لو كان المراد به الاستيلاء لكان مستويا على جميع المخلوقات ولكان مستويا على العرش قبل أن يخلقه دائما والاستواء مختص بالعرش بعد خلق السموات والأرض كما أخبر بذلك فى كتابه فدل على أنه تارة كان مستويا عليه وتارة لم يكن مستويا عليه ولهذا كان العلو من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل عند ائمة المثبتة واما الاستواء على العرش فمن الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل والمقصود أنه تعالى وصف

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٤٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٩١-١٩٣

نفسه أيضا بالمعية والقرب والمعية معيتان عامة وخاصة فالاولى كقوله { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ }الحديد٤ والثانية كقوله {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ الى غير ذلك من الآيات وأما القرب فهو كقوله { فَإِنِّي قَرِيبٌ }البقرة١٨٦ وقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق١٦ {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ }الواقعة٨٥ وسلف الأمة وأئمتها أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة فانهم اثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة كله من غير تحريف للكلم أثبتوا ان الله تعالى فوق سمواته وانه على عرشه بائن من خلقه وهم منه بائنون وهو ايضا مع العباد عموما بعلمه ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية وهو ايضا قريب مجيب ففى آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم وكان النبى يقول اللهم انت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل فهو سبحانه مع المسافر في سفره ومع أهله فى وطنه ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم كما قال {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}الفتح٢٩ أى معه على الايمان لا أن ذاتهم فى ذاته بل هم مصاحبون له وقوله {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}النساء١٤٦ يدل على موافقتهم فى الايمان وموالاتهم فالله تعالى عالم بعباده وهو معهم أينما كانوا وعلمه بهم من لوازم المعية كما قالت المرأة زوجى طويل النجاد عظيم الرماد قريب البيت من الناد فهذا كله حقيقة ومقصودها أن تعرف لوازم ذلك وهو طول القامة والكرم بكثرة الطعام وقرب البيت من موضع الاضياف وفى القرآن {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }الزخرف٨٠ فانه يراد برؤيته وسمعه اثبات علمه بذلك وأنه يعلم هل ذلك خير أم شر فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات وكذلك اثبات القدرة على الخلق كقوله {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء }العنكبوت٢٢ وقوله {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ }العنكبوت٤ والمراد التخويف بتوابع السيئات ولوازمها من العقوبة والانتقام وهكذا كثيرا ما يصف الرب نفسه بالعلم وبالأعمال تحذيرا وتخويفا وترغيبا للنفوس فى الخير ويصف نفسه بالقدرة والسمع والرؤية والكتاب فمدلول اللفظ مراد منه وقدر أريد أيضا لازم ذلك المعنى فقد اريد ما يدل عليه اللفظ فى أصل اللغة بالمطابقة وبالالتزام فليس اللفظ مستعملا فى اللازم فقط بل أريد به مدلوله الملزوم وذلك حقيقة [1]

فان الكتاب والسنة مع العقل دلت على أن الله لا تماثله المخلوقات فى شىء من الاشياء ودلت على أن الله غنى عن كل شىء ودلت على أن الله مباين للمخلوقات عال عليها وان كان يعتقد أن الخالق تعالى بائن عن المخلوقات وانه فوق سمواته على عرشه بائن من مخلوقاته ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته وان الله غنى عن العرش وعن كل ما سواه لا يفتقر الى شىء من المخلوقات بل هو مع استوائه على عرشه يحمل العرش وحملة العرش بقدرته ولا يمثل استواء الله باستواء المخلوقين بل يثبت لله ما اثبته لنفسه من الأسماء والصفات وينفى عنه مماثلة المخلوقات ويعلم أن الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا أفعاله فهذا مصيب فى اعتقاده موافق لسلف الأمة وأئمتها فان مذهبهم أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل فيعلمون أن الله بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير وأنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا هشيما ويعلمون أن الله ليس كمثله شىء فى جميع ما وصف

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٢٢ و مجموع الفتاوى ج: ٥ ص:٢٣٠- ٢٣٢

به نفسه وينزهون الله عن صفات النقص والعيب ويثبتون له صفات الكمال ويعلمون أنه ليس له كفو أحد فى شىء من صفات الكمال قال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها والله أعلم [1]

صفات الرب عز وجل مختصة به

قال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه رؤوفا رحيما بقوله { وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ }آل عمران٣٠ وسمى بعض عباده رؤوفا رحيما بقوله {حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة١٢٨ وليس الرؤوف كالرؤف وهذه المعاني التي تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى تذكر على ثلاثة أوجه تارة تقيد بالإضافة إلى الخالق أو بإضافته إليها كقوله تعالى { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة٢٥٥ وتارة تتقيد بالمخلوق كقوله {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ }آل عمران١٨ وتارة تطلق مجردة فإذا قيدت بالخالق لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين فإذا قيل علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده ونحو ذلك كانت هذه الإضافة توجب ما يختص به الرب الخالق وتمنع أن يدخل فيها ما يختص به المخلوق وكذلك إذا قيل {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ }المؤمنون٢٨ كانت هذه الإضافة توجب ما يختص بالعبد وتمنع أن يدخل في ذلك ما يختص بالرب عز وجل وإذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والإطلاق تناول الأمرين كسائر الألفاظ التي تطلق على الخالق والمخلوق وهذه للناس فيها أقوال قيل إنها حقيقة في الخالق مجاز في المخلوق كقول أبي العباس الناشيء وقيل بالعكس كقوله غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة وقيل حقيقة فيهما وهو قول الجمهور ثم قيل هي مشتركة اشتراكا لفظيا وقيل متواطئة وهو قول الجمهور ثم من جعل المشككة نوعا من المتواطئة لم يمتنع عنده إذا قيل مشككة أن تكون متواطئة ومن جعل ذلك نوعا آخر جعلها مشككة لا متواطئة وهذا نزاع لفظي فإن المتواطئة التواطؤ العام يدخل فيها المشككة إذ المراد بالمشككة ما يتفاضل معانيها في مواردها كلفظ الأبيض الذي يقال على البياض الشديد كبياض الثلج والخفيف كبياض العاج والشديد أولى به ومعلوم أن مسمى البياض في اللغة لا يختص بالشديد دون الخفيف فكان اللفظ دالا على ما به الاشتراك وهو المعنى العام الكلي وهو متواطيء بهذا الاعتبار وهو اعتبار التفاضل يسمى مشككا وأما إذا أريد بالواطيء ما تستوي معانيه كانت المشككة نوعا آخر لكن تخصيص لفظ المتواطئة بهذا عرف حادث وهو خطأ أيضا فإن عامة المعاني العامة تتفاضل والتماثل فيها في جميع مواردها بحيث لا تتفاضل في شيء من مواردها إما قليل وإما معدوم فلو لم تكن هذه الأسماء متواطئة بل مشككة كان عامة الأسماء الكلية غير متواطئة وهذا مبسوط في موضع آخر والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢٦٣

إلى نفسه ما أضافه إضافة يختص بها وتمنع أن يدخل فيها شيء من خصائص المخلوقين وقد قال مع ذلك إنه ليس كمثله شيء وإنه لم يكن له كفوا أحد وأنكر أن يكون له سمي كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق قد أتي من سوء فهمه ونقص عقله لا من قصور في بيان الله ورسوله ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرض محدث باضطرار أو اكتساب فمن نفسه أتي وليس في قولنا علم الله ما يدل على ذلك والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافة يختص بها وتمنع أن يدخل فيها شيء من خصائص المخلوقين وقد قال مع ذلك إنه ليس كمثله شيء وإنه لم يكن له كفوا أحد وأنكر أن يكون له سمي كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق قد أتي من سوء فهمه ونقص عقله لا من قصور في بيان الله ورسوله ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرض محدث باضطرار أو اكتساب فمن نفسه أتي وليس في قولنا علم الله ما يدل على ذلك وكذلك من فهم من قوله { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ }المائدة٦٤ الآية { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ ما يختص به المخلوق من جوارحه وأعضائه فمن نفسه أوتي

قال تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } فليس في ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما في سائر الصفات وكذلك إذا قال {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }الأعراف٥٤ من فهم من ذلك ما يختص بالمخلوق كما يفهم من قوله {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }المؤمنون٢٨ فمن نفسه أتي فإن ظاهر اللفظ يدل على استواء يضاف إلى الله عز وجل كما يدل في تلك الآية على استواء يضاف إلى العبد وإذا كان المستوي ليس مماثلا للمستوي لم يكن الاستواء مماثلا للاستواء فإذا كان العبد فقيرا إلى ما استوى عليه يحتاج إلى حمله وكان الرب عز وجل غنيا عن كل ما سواه والعرش وما سواه فقيرا إليه وهو الذي يحمل العرش وحملة العرش لم يلزم إذا كان الفقير محتاجا إلى ما استوى عليه أن يكون الغني عن كل شيء وكل شيء محتاج إليه محتاجا إلى ما استوى عليه وليس في ظاهر كلام الله عز وجل ما يدل على ما يختص به المخلوق من حاجة إلى حامل وغير ذلك بل توهم هذا من سوء الفهم لا من دلالة اللفظ لكن إذا تخيل المتخيل في نفسه أن الله مثله تخيل أن يكون استواؤه كاستوائه وإذا عرف أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله علم أن استواءه ليس كاستوائه ولامجيئه كمجيئه كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه وما بين الأسماء من المعنى العام الكلي كما بين قولنا حي وحي وعالم وعالم وهذا المعنى العام الكلي المشترك لا يوجد عاما كليا مشتركا إلا في العلم والذهن وإلا فالذي في الخارج أمر يختص بالموصوف فصفات الرب عز وجل مختصة به وصفات المخلوق مختصة به ليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق[1]

لطائف لغوية

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٤ ص:٤٢٣- ٤٢٦

١-قال تعالي{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الحديد١ عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه[١]

٢-قال تعالى{ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الحديد٢ قدير منزه عن العجز والضعف[٢]

٣-قال تعالى{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحديد٣ فإنه عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد كقوله { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{٣} الاعلى٢-٣ وقوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ }الحديد٣ وقوله { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{٢} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{٣} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{٤} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{٥} المؤمنون١-٥ ونظائر هذا كثيرة[٣]

قوله {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{٣}الاعلى٢-٣ العطف يقتضي إشتراك المعطوف و المعطوف عليه فيما ذكر و أن بينهما مغايرة إما فى الذات و إما فى الصفات و هو في الذات كثير كقوله{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا }الحج١٧ و أما فى الصفات فمثل هذه الآية فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى لكن هذا الإسم و الصفة ليس هو ذاك الإسم و الصفة و مثله قوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ }الحديد٣ و قد تجيء الصفات خبرا بعد خبر كقوله { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{١٤} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{١٥} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{١٦} البروج ١٤-١٦ و لو كان { فَعَّالٌ } البروج١٦ صفة لكان معرفا بل هو خبر بعد خبر و قوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ }الحديد٣ خبر بعد خبر لكن بالعطف بكل من الصفات و أخبار المبتدأ قد تجيء بعطف و بغير عطف و إذا ذكر بالعطف كان كل إسم مستقلا بالذكر و بلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى و مع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح و الثناء أو للمدح و أما بلا عطف فهو فى النكرات للتمييز و فى المعارف قد يكون للتوضيح[٤]

٤-قال تعالى{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحديد٣ عليم منزه عن الجهل[٥]

٥-قال تعالى{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحديد٣ المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله { وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة٢٨٢ {وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة٢٨٤ وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله { وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة٢٨٢ او فعلية كقوله { عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ }المزمل٢٠ اما المفرد فلابد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله { بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٣٣] مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣٩٧

[٤] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٧

[٥] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

}البقرة٢٥٥ وقوله { هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً }فصلت١٥ او اضافة الموصوف كقوله { ذُو الْقُوَّةِ }الذاريات٥٨ [1]

٦ـقال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ أن الله قد أخبر بأنه مع عباده فى غير موضع من الكتاب عموما وخصوصا مثل قوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ وكان النبى اذا سافر يقول اللهم انت الصاحب فى السفر والخليفة فى الاهل اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا فإن المعية لا تكون الا من الطرفين فان معناها المقارنة والمصاحبة [2]

٧ـقال تعالى{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }الحديد٤ عليم منزه عن الجهل بصير منزه عن العمى [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٧٦

[3] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

الحديد ٥-٩

{ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ{٥} يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٦} آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ{٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩}

أصل العلم الإلهي

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ }سبأ٥٠ وتقرير الحجة فى القرآن بالرسل كثير كقوله {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }النساء١٦٥ ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التى هى القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا كقوله{ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ [1]

الايمان يتفاضل

قال تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك فى احدى الروايتين ومنهم من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤

يقول يتفاضل كعبدالله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن [1]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ {٥٤} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {٥٥} القمر ٥٤ -٥٥ وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{٣}الطلاق٢ -٣ وقوله { فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً }النساء٩ وقوله {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ وأمثال ذلك فقوله { فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً }النساء٩ مثل قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ }الحديد٧ وقوله {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }البقرة٢٨٥ فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوى ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول وكذلك قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }الحديد٧ واذا أطلق الايمان بالله فى حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول وكذلك قوله { كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ }البقرة٢٨٥ واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع وكذلك قوله {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ }البقرة٤ وقوله {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ }البقرة١٣٦ الآية واذا قيل { فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ }الأعراف١٥٨ دخل فى الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والرسل والنبيين وكذلك اذا قيل {وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ }الحديد٢٨ واذا قيل {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ }الحديد٧ دخل فى الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله والانفاق يدخل فى قوله فى الآية الأخرى { فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ }الأعراف١٥٨ كما يدخل القول السديد فى مثل قوله { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ}النساء١٣١ [2]

الله سبحانه يخرج المؤمنين من الظلمات الى النور

قال تعالى {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ }الأنفال١٢ و قال تعالى {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٢٣-٢٢٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

الآخِرَةِ }إبراهيم٢٧ و قال تعالى {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً }الإسراء٧٤ و التثبت جعل الإنسان ثابتا لأمر تابا و ذلك بإلقاء ما يثبته من التصديق بالحق و الوعد بالخير كما قال إبن مسعود لمة الملك و عد بالخير و تصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه و إذا علم أن الله قد و عده بالتصديق و ثق بوعد الله فثبت فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان فى أمر إضطرب فيه بأن يخبره بصدقه و يخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت و قد يكون التثبت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت وفي الحديث عن النبى صلى الله عليه و سلم من سأل القضاء و إستعان عليه و كل إليه و من لم يسأل القضاء و لم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقي فى قلبه من التصديق بالحق و الوعد بالخير و قد قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الأحزاب٤٣ فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات الى النور و قد ذكر إخراجه للمؤمنين من الظلمات الى النور فى غير آية كقوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}البقرة٢٥٧ و قال {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الحديد٩ و قال {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}إبراهيم١ و في الحديث إن الله و ملائكته يصلون على معلمي الناس الخير و ذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات الى النور و الجزاء من جنس العمل و لهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ }الأحزاب٥٦ [1]

النجاة والسعادة فى اتباع الكتاب

أصل جامع فى الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به فى كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة فى اتباعه والشقاء فى مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦} طه١٢٣-١٢٦ قال إبن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٥٢٤-٥٢٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٧٩

ذكر الله أصل لدفع الوسواس

قال تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ أن الأنبياء عليهم السلام دعوا الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب واللسان وعبادته متضمنة لمعرفته وذكره فأصل علمهم وعملهم هو العلم بالله والعمل لله وذلك فطرى كما قد قررته فى غير هذا الموضع فى موضعين أو ثلاثة وبينت أن أصل العلم الإلهي فطرى ضرورى وأنه أشد رسوخا فى النفوس من مبدإ العلم الرياضى كقولنا ان الواحد نصف الاثنين ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا ان الجسم لايكون فى مكانين لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر وأما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة وبسط هذا له موضع غير هذا وانما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذى خلق الكائنات والآخر الذى إليه تصير الحادثات فهو الأصل الجامع فالعلم به أصل كل علم وجامعه وذكره أصل كل كلام وجامعه والعمل له أصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح إلا فى معرفة ربهم وعبادته وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إما فضل نافع واما فضول غير نافعة واما أمر مضر ثم من العلم به تتشعب أنواع العلوم ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة والقلب بعبادته والإستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق واعتصم بالدليل الهادى والبرهان الوثيق فلا يزال إما فى زيادة العلم والإيمان وإما فى السلامة عن الجهل والكفر وبهذا جاءت النصوص الإلهية فى أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات الى النور وضرب مثل المؤمن وهو المقر بربه علما وعملا بالحى والبصير والسميع والنور والظل وضرب مثل الكافر بالميت والأعمى والأصم والظلمة والحرور وقالوا فى الوسواس الخناس هو الذى اذا ذكر الله خنس واذا غفل عن ذكر الله وسوس فتبين بذلك أن ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم وقال الله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } الحجر٤٢ وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } النحل٩٩ وقال {وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } آل عمران١٠١ ونحو ذلك من النصوص[1]

فإن اتباع الظن جهل واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم وجماع الشر الجهل والظلم قال الله تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً {٧٢} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٧٣} الأحزاب٧٢ -٧٣ وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم ثم يتوب الله على من يشاء فلا يزال العبد المؤمن دائما يتبين له من الحق ما كان جاهلا به ويرجع عن عمل كان ظالما فيه وأدناه ظلمه لنفسه كما قال تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٦

هل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله فى قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه فى قلبه الحق من الباطل ؟

قال تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ وأما قول القائل هل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله فى قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه فى قلبه الحق من الباطل فيقال له قد قال الله تعالى {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ }النور٣٥ قال أبي بن كعب وغيره مثل نوره فى قلب المؤمن الى قوله {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ }النور٤٠ وقال تعالى {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ }الأنعام١٢٢ فالإيمان الذي يهبه الله لعبده سماه نورا وسمى الوحى النازل من السماء الذي به يحصل الإيمان { نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا }الشورى٥٢ وقال تعالى {فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ }الأعراف١٥٧ وأمثال ذلك ولا ريب أن المؤمن يفرق بين الحق والباطل بل يفرق بين أعظم الحق لكن لا يمكن أن يقال بأن كل من له إيمان يفرق بمجرد ما أعطيه من الإيمان بين كل حق وكل باطل [١]

اتباع الكتاب والسنة يقتضى اخراجهم من كل ظلمة

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ }الأعراف٣ {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ }الأنعام١٥٥ واما السلف مثل قوله { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ }النساء٨٣ ومنها قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء٦٩ الآية وفيها الدلالة ومنها قوله{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ }النساء١١٥ ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة١٠٠ والرضوان لا يكون مع اتفاقهم واصرارهم على ذنب او خطأ فان ذلك مقتضاه العفو فانه يدل على انه هدى فى كل شىء وقوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ }البقرة٢٥٧ فانه يقتضى اخراجهم من كل ظلمة ومنها قوله {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الأحزاب٤٣ وقوله { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٤٩

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ [١]

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وقال غيره عليكم بآثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه هذا وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم فكيف يحدث لنا زمان في الخير في أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى هذا لا يكون أبدا وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا وغاية ما عند السلف أن يكونوا موافقين لرسول الله فإن عامة ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد الذي قال الله فيه {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } الحديد٩ [٢]

العمل له أثر في القلب

و العمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال بعض السلف إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله ياسين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وفي الحديث الصحيح مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت وفي الصحيح أيضا اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذها قبورا { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٩} الحديد٧ -٩ [٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص:٥٠٠- ٥٠٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٥٩

[٣] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٩

الله سبحانه ليس مماثلا لخلقه

أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه رؤوفا رحيما بقوله {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }الحديد٩ وسمى بعض عباده رؤوفا رحيما بقوله {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة١٢٨ وليس الرؤوف كالرؤف ولا الرحيم كالرحيم وليس هو في ذلك مماثلا لخلقه[1]

من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم

أن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه أو أنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب ولكن التوبة ممكنة وواقعه بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالمن هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }الحديد٩ [2]

لطائف لغوية

١-قال تعالى { يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }الحديد٦
وأما لفظ الذات فانها فى اللغة تأنيث ذو وهذا اللفظ يستعمل مضافا الى اسماء الاجناس يتوصلون به الى الوصف بذلك فيقال شخص ذو علم وذو مال وشرف ويعنى حقيقته أو عين أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك وقد يضاف الى الاعلام كقولهم ذو عمرو وذو الكلاع وقول عمر الغنى بلال وذووه قال تعالى { فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ }الأنفال١ وقوله { عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }الحديد٦أى الخصلة والجهة التى هى صاحبة بينكم وعليم بالخواطر ونحوها التى هى صاحبة الصدور [3]

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٢٣

[2] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٣٩

[3] الصفدية ج: ١ ص: ١٠٩ ومجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٣٤ و مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٣٤١

٢-قال تعالى { يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } الحديد٦ عليم منزه عن الجهل[١]

٣-قال تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } الحديد٧ أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للآمر مقصودا له كما في قوله { وَاتَّقُواْ اللّهَ } البقرة١٨٩ { وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة٩٣ وفي قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحديد٧ وفي قوله { اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } المائدة٧٢ وفي قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ } يونس٨٤ فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به[٢]

٤-قال تعالى { هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} الحديد ٩ ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها[٣]

---

[١] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٢] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤٤

الحديد ١٠-١١

{ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}

صلاح بني آدم لا يتم الا بالشجاعة والكرم

جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيله دون ما ليس فى سبيله فقال النبى شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع وقال من سيدكم يا بنى سلمة فقالوا الجد بن قيس على أنه نزنه بالبخل فقال وأى داء أدوا من البخل وفى رواية ان السيد لا يكون بخيلا بل سيدكم الأبيض الجعد البراء بن معرور والبخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر قال تعالى {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}آل عمران١٨٠ وما فى القرآن من الأمر بالايتاء والاعطاء وذم من ترك ذلك كله ذم للبخل وكذلك ذمه للجبن كثير مثل قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً }النساء٧٧ وما فى القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه وذم الناكلين عنه والتاركين له كله ذم للجبن ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم الا بالشجاعة والكرم بين الله سبحانه انه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه ابدل الله به من يقوم بذلك ومن تولى عنه بإنفاق ماله ابدل الله به من يقوم بذلك {هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }محمد٣٨ وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل الله السابقين فقال {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }الحديد١٠ [1]

الورع الفاسد يشتبه بالجبن والبخل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٥٨ و الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٧٠

وكثيرا ما يشتبه الورع الفاسد بالجبن والبخل فان كلاهما فيه ترك فيشتبه ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك ما يؤمر به من الجهاد والنفقة جبنا وبخلا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع قال الترمذى حديث صحيح وكذلك قد يترك الانسان العمل ظنا أو إظهارا أنه ورع وإنما هو كبر وإرادة للعلو وقول النبى إنما الأعمال بالنيات كلمة جامعة كاملة فان النية للعمل كالروح للجسد وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر قد وضع جبهته على الأرض فصورتهما واحدة ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى و هذا أبعد الخلق عن الله وقد قال الله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد١٧ وفى الأثر أفضل الايمان السماحة والصبر فلا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود الذى هو العطاء والنجدة التى هى الشجاعة بل لايصلح الدين والدنيا إلا بذلك ولهذا كان من لايقوم بهما سلبه الأمر ونقله إلى غيره كما قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ{٣٨} إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٣٩} التوبة٣٨-٣٩ وقال تعالى {هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }محمد٣٨ وقد قال الله تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ فعلق الأمر بالانفاق الذى هو السخاء والقتال الذى هو الشجاعة وكذلك قال الله تعالى فى غير موضع{وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }التوبة٤١ وبين أن البخل من الكبائر فى قوله تعالى {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }آل عمران١٨٠ وفى قوله {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }التوبة٣٤ الآية وكذلك الجبن فى مثل قوله تعالى {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }الأنفال١٦ وفى قوله تعالى {وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ }التوبة٥٦ وهو كثير فى الكتاب والسنة وهو مما اتفق عليه أهل الأرض حتى إنهم يقولون فى الأمثال العامية لاطعنة ولا جفنة ويقولون لا فارس الخيل ولا وجه العرب[1]

فضل الله سبحانه المنفقين المقاتلين قبل الفتح

قال تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ وهؤلاء هم الذين أثنى الله عليهم هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنى كما قال تعالى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٩١-٢٩٣ و السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٥٠

{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }التوبة١٠٠ وقال تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }الفتح٢٩ وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ }الأنفال٧٢ إلى قوله {أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{٧٤} وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ {٧٥} الأنفال ٧٢ ٧٥ وقال {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد١٠ وقال تعالى { لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{٨} وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٩} وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{١٠}الحشر ٨- ١٠ وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم وقد روى ابن بطة وغيره من حديث أبي بدر قال حدثنا عبدالله بن زيد عن طلحة بن مصرف عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبي وقاص قال الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان وبقيت واحدة فأحسن ما أنتم عليه كائنون أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ثم قرأ { لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً } الحشر٨ هؤلاء المهاجرون وهذه منزلة قد مضت ثم قرأ { وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } الحشر٩ ثم قال هؤلاء الأنصار وهذه منزلة قد مضت ثم قرأ {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} الحشر١٠ فقد مضت هاتان وبقيت هذه المنزلة فأحسن ما أنتم عليه كائنون أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت أن تستغفروا الله لهم وروى أيضا بإسناده عن مالك بن أنس أنه قال من سب السلف فليس له في الفئ نصيب لأن الله تعالى يقول { وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ } الحشر١٠ الآية وهذا معروف من مالك وغير مالك من أهل العلم كأبي عبيد القاسم ابن سلام وكذلك ذكره أبو حكيم النهرواني من أصحاب أحمد وغيره من الفقهاء وروى أيضا عن الحسن بن عمارة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أمر الله بالإستغفار لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أنهم يقتتلون وقال عروة قالت لي عائشة رضي الله عنها يا ابن أختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فسبوهم وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وفي صحيح مسلم أيضا عن جابر بن عبدالله قال قيل لعائشة إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أبا بكر وعمر فقالت وما تعجبون من هذا انقطع عنهم

العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر وروى ابن بطة بالإسناد الصحيح عن عبدالله بن أحمد قال حدثني أبي حدثنا معاوية حدثنا رجاء عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا تسبوا أصحاب محمد فإن الله قد أمر بالإستغفار لهم وهو يعلم أنهم سيقتتلون ومن طريق أحمد عن عبدالرحمن بن مهدي وطريق غيره عن وكيع وأبي نعيم ثلاثتهم عن الثوري عن نسير بن ذعلوق سمعت عبدالله بن عمر يقول لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة يعنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من عمل أحدكم أربعين سنة وفي رواية وكيع خير من عبادة أحدكم عمره وقال تعالى { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً{١٨} وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٩} وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢٠} وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً{٢١} الفتح ١٨ـ ٢١ والذين بايعوه تحت الشجرة بالحديبية عند جبل التنعيم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة بايعوه لما صده المشركون عن العمرة ثم صالح المشركين صلح الحديبية المعروف وذلك سنة ست من الهجرة في ذي القعدة ثم رجع بهم إلى المدينة وغزا بهم خيبر ففتحها الله عليهم في أول سنة سبع وقسمها بينهم ومنع الأعراب المتخلفين عن الحديبية من ذلك كما قال الله تعالى {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً }الفتح١٥ وقد أخبر سبحانه أنه رضي عنهم وأنه علم ما في قلوبهم وأنه أثابهم فتحا قريبا وهؤلاء هم أعيان من بايع أبا بكر وعمر وعثمان بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في المسلمين من يتقدم عليهم بل كان المسلمون كلهم يعرفون فضلهم عليهم لأن الله تعالى بين فضلهم في القرآن بقوله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }الحديد١٠ ففضل المنفقين المقاتلين قبل الفتح والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية ولهذا سئل النبي صلى الله عليه وسلم أو فتح هو فقال نعم وأهل العلم يعلمون أن فيه أنزل الله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{٣} الفتح ١ـ ٣ فقال بعض المسلمين يا رسول الله هذا لك فما لنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى { هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ } الفتح ٤ وهذه الآية نص في تفضيل المنفقين المقاتلين قبل الفتح على المنفقين المقاتلين بعده ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ}التوبة١٠٠ هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين هم من صلى إلى القبلتين وهذا ضعيف فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة ولأن النسخ ليس من فعلهم الذي يفضلون به ولأن التفضيل بالصلاة إلى القبلتين لم يدل عليه دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة تحت الشجرة ولكن فيه سبق الذين أدركوا ذلك على من لم يدركه كما أن الذين أسلموا قبل أن تفرض الصلوات الخمس هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم والذين أسلموا قبل أن تجعل صلاة الحضر أربع ركعات هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم والذين أسلموا قبل أن يؤذن في الجهاد أو قبل أن يفرض هم سابقون على من أسلم بعدهم والذين أسلموا قبل أن يفرض صيام شهر رمضان هم سابقون على من أسلم بعدهم والذين أسلموا قبل أن يفرض الحج هم سابقون على من تأخر عنهم والذين أسلموا قبل تحريم الخمر هم سابقون على من أسلم بعدهم والذين أسلموا قبل تحريم الربا كذلك فشرائع الإسلام من الإيجاب والتحريم كانت تنزل

شيئا فشيئا وكل من أسلم قبل أن تشرع شريعة فهو سابق على من تأخر عنه وله بذلك فضيلة ففضيلة من أسلم قبل نسخ القبلة على من أسلم بعده هي من هذا الباب وليس مثل هذا مما يتميز به السابقون الأولون عن التابعين إذ ليس بعض هذه الشرائع بأولى بجعله خيرا من بعض ولأن القرآن والسنة قد دلا على تقديم أهل الحديبية فوجب أن تفسر هذه الآية بما يوافق سائر النصوص وقد علم بالإضطرار أنه كان في هؤلاء السابقين الأولين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وبايع النبي صلى الله عليه وسلم بيده عن عثمان لأنه كان غائبا قد أرسله إلى أهل مكة ليبلغهم رسالته وبسببه بايع النبي صلى الله عليه وسلم الناس لما بلغه أنهم قتلوه وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وقال تعالى {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة١١٧ فجمع بينهم وبين الرسول في التوبة وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ }الأنفال٧٢ إلى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ }الأنفال٧٥ فأثبت الموالاة بينهم[1]

القران يشهد برضا الله عن المهاجرين والأنصار

إن القران يشهد في غير موضع برضا الله عن المهاجرين والأنصار و ثنائه عليهم كقوله تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }التوبة١٠٠ و قوله { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد١٠ و قوله {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً}الفتح٢٩ و قوله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }الفتح١٨ و قوله {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً }الحشر٨[2]

وقد غز االنبي أكثر من عشرين غزاة بنفسه ولم يكن القتال إلا في تسع غزوات بدر وأحد وبنى المصطلق والخندق وذى قرد وغزوة الطائف وأعظم جيش جمعه النبي كان بحنين والطائف وكانوا اثنى عشر ألفا واعظم جيش غزا مع النبي جيش تبوك فإنه كان كثيرا لا يحصى غير إنه لم يكن فيه قتال وهؤلاء المذكورون دخلوا في قوله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }الحديد١٠ فإن هؤلاء الطلقاء مسلمة الفتح هم ممن انفق من بعد الفتح وقاتل وقد وعدهم الله الحسنى فإنهم انفقوا بحنين والطائف وقاتلوا فيهما رضى الله عنهم وهم أيضا داخلون فيمن رضي الله عنه حيث قال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ١٨-٢٩

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٤٠٥

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة١٠٠ فإن السابقين هم الذين أسلموا قبل الحديبية كالذين بايعوه تحت الشجرة الذين أنزل الله فيهم {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }الفتح١٨ كانوا أكثر من ألف وأربعمائة وكلهم من أهل الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وكان فيهم حاطب بن ابى بلتعة وكانت له سيئات [1]

" خير القرون القرن الذى بعثت فيهم "

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم خيار المؤمنين كما ثبت عنه أنه قال خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وكل من رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم مؤمنا به فله من الصحبة بقدر ذلك كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم يغزو جيش فيقول هل فيكم من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو جبش فيقول هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم فيقولون نعم فيفتح لهم و ذكر الطبقة الثالثة فعلق الحكم برؤية رسول الله صلى الله عليه و سلم كما علقه بصحبته و لما كان لفظ الصحبة فيه عموم و خصوص كان من اختص من الصحابة بما يتميز به عن غيره يوصف بتلك الصحبة دون من لم يشركه فيها قال النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث أبى سعيد المتقدم لخالد بن الوليد لما اختصم هو و عبد الرحمن ياخالد لاتسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم و لا نصيفه فإن عبد الرحمن بن عوف هو و أمثاله من السابقين الأولين من الذين أنفقوا قبل الفتح فتح الحديبية و خالد بن الوليد و غيره ممن اسلم بعد الحديبية و أنفقوا و قاتلوا دون أولئك قال تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ والمراد بالفتح فتح الحديبية لما بايع النبى صلى الله عليه و سلم أصحابه تحت الشجرة و كان الذين بايعوه أكثر من ألف و أربعمائة و هم الذين فتحوا خيبر و قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة

وسورة الفتح الذى فيها ذلك أنزلها الله قبل أن تفتح مكة بل قبل أن يعتمر النبى صلى الله عليه و سلم و كان قد بايع أصحابه تحت الشجرة عام الحديبية سنة ست من الهجرة و صالح المشركين صلح الحديبية المشهور و بذلك الصلح حصل من الفتح مالا يعلمه إلا الله مع أنه قد كان كرهه خلق من المسلمين ولم يعلموا مافيه من حسن العاقبة حتى قال سهل بن حنيف أيها الناس اتهموا الرأى فقد رأيتنى يوم أبى جندل و لو أستطيع أن أرد على رسول الله صلى الله عليه و سلم أمره لرددت رواه البخارى و غيره فلما كان من العام القابل اعتمر النبى صلى الله عليه و سلم و دخل هو و من اعتمر معه مكة معتمرين و أهل مكة يؤمئذ مع المشركين و لما كان فى العام الثامن فتح مكة فى شهر رمضان و قد أنزل الله فى سورة الفتح {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٥٩

}الفتح٢٧ فوعدهم فى سورة الفتح أن يدخلوا مكة آمنين و انجز موعده من العام الثاني و أنزل فى ذلك {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ }البقرة١٩٤ و ذلك كله قبل فتح مكة فمن توهم أن سورة الفتح نزلت بعد فتح مكة فقد غلط غلطا بينا والمقصود أن أولئك الذين صحبوه قبل الفتح اختصوا من الصحبة بما استحقوا به التفصيل على من بعدهم حتى قال لخالد لا تسبوا أصحابى فانهم صحبوه قبل أن يصحبه خالد و أمثاله ولما كان لأبى بكر الصديق رضي الله عنه من مزية الصحبة ما تميز به على جميع الصحابة خصه بذلك فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى الدرداء أنه كان بين أبى بكر و عمر كلام فطلب أبو بكر من عمر أن يستغفر له فامتنع عمر و جاء أبو بكر الى النبى صلى الله عليه و سلم فذكر له ما جرى ثم إن عمر ندم فخرج يطلب أبا بكر فى بيته فذكر له أنه كان عند النبى صلى الله عليه و سلم فلما جاء عمر أخذ النبى صلى الله عليه و سلم يغضب لأبى بكر و قال أيها الناس إنى جئت إليكم فقلت انى رسول الله إليكم فقلتم كذبت و قال أبو بكر صدقت فهل أنتم تاركوا لي صاحبى فهل أنتم تاركوا لي صاحبي فما أوذي بعدها فهنا خصه باسم الصحبة كما خصه به القرآن فى قوله تعالى { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ و فى الصحيحين عن أبى سعيد أن النبى قال إن عبدا خيره الله بين الدنيا و الآخرة فإختار ذلك العبد ماعند الله فبكى أبو بكر فقال بل نفديك بأنفسنا و أموالنا قال فجعل الناس يعجبون أن ذكر النبى صلى الله عليه و سلم عبدا خيره الله بين الدنيا و الآخرة فكان رسول الله عليه و سلم هو المخير و كان أبو بكر أعلمنا به و قال النبى صلى الله عليه و سلم إن أمن الناس علينا فى صحبته وذات يده أبو بكر و لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا و لكن أخى و صاحبى سدوا كل خوخة فى المسجد الا خوخة أبى بكر و هذا من أصح حديث يكون باتفاق العلماء العارفين بأقوال النبى صلى الله عليه و سلم و أفعاله و أحواله والمقصود أن الصحبة فيها خصوص و عموم وعمومها يندرج فيه كل من رآه مؤمنا به و لهذا يقال صحبته سنة و شهرا و ساعة و نحو ذلك و معاوية وعمرو بن العاص و أمثالهم من المؤمنين لم يتهمهم أحد من السلف بنفاق بل قد ثبت فى الصحيح أن عمرو بن العاص لما بايع النبى صلى الله عليه و سلم قال على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبى فقال ياعمرو أما علمت أن الاسلام يهدم ماكان قبله و معلوم أن الاسلام الهادم هو اسلام المؤمنين لاسلام المنافقين وأيضا فعمرو بن العاص و أمثاله ممن قدم مهاجرا الى النبى بعد الحديبية هاجروا إليه من بلادهم طوعا لا كرها و المهاجرون لم يكن فيهم منافق و انما كان النفاق فى بعض من دخل من الأنصار و ذلك أن الأنصار هم أهل المدينة فلما أسلم اشرافهم و جمهورهم احتاج الباقون أن يظهروا الاسلام نفاقا لعز الإسلام و ظهوره فى قومهم و أما أهل مكة فكان اشرافهم وجمهورهم كفارا فلم يظهر الايمان إلا من هو مؤمن ظاهرا و باطنا فإنه كان من أظهر الاسلام يؤذى ويهجر و انما المنافق يظهر الاسلام لمصلحة دنياه و كان من أظهر الاسلام بمكة يتأذى فى دنياه ثم لما هاجر النبى صلى الله عليه و سلم الى المدينة هاجر معه أكثر المؤمنين و منع بعضهم من الهجرة إليه كما منع رجال من بنى مخزوم مثل الوليد بن المغيرة أخو خالد أخو أبي جهل لأمه و لهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم يقنت لهؤلاء و يقول فى قنوته اللهم نج الوليد بن الوليد و سلمة بن هشام و المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد و طأتك على مضر و اجعلها عليهم سنينا كسني يوسف و المهاجرون من أولهم الى آخرهم ليس فيهم من اتهمه أحد بالنفاق بل كلهم مؤمنون مشهود لهم بالايمان و لعن المؤمن كقتله وأما معاوية بن أبى سفيان و أمثاله من الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة كعكرمة بن أبى جهل والحرث بن هشام و سهيل بن عمرو و صفوان بن أمية و أبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب هؤلاء وغيرهم ممن حسن إسلامهم باتفاق المسلمين و لم يتهم أحد منهم بعد ذلك بنفاق و معاوية قد إستكتبه رسول الله

صلى الله عليه و سلم و قال اللهم علمه الكتاب و الحساب و قه العذاب وكان أخوه يزيد بن أبى سفيان خيرا منه و أفضل و هو أحد الأمراء الذين بعثهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى فتح الشام ووصاه بوصية معروفة و أبو بكر ماش و يزيد راكب فقال له ياخليفة رسول الله إما أن تركب و إما أن أنزل فقال لست براكب و لست بنازل إنى احتسب خطاي فى سبيل الله و كان عمرو بن العاص هو الأمير الآخير و الثالث شرحبيل بن حسنة و الرابع خالد بن الوليد و هو أميرهم المطلق ثم عزله عمر و ولى أبا عبيدة عامر بن الجراح الذى ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم شهد له أنه أمين هذه الأمة فكان فتح الشام على يد أبى عبيدة و فتح العراق على يد سعد بن أبى و قاص لما مات يزيد بن أبى سفيان فى خلافة عمر استعمل أخاه معاوية و كان عمر بن الخطاب من أعظم الناس فراسة وأخبرهم بالرجال و أقومهم بالحق و أعلمهم به حتى قال على بن أبى طالب رضى الله عنه كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر و قال النبى صلى الله عليه و سلم أن الله ضرب الحق على لسان عمر و قلبه وقال لولم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر و قال ابن عمر ماسمعت عمر يقول فى الشيء أنى لأراه كذا و كذا إلا كان كما رآه و قد قال له النبى صلى الله عليه و سلم مارآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك ولا استعمل عمر قط بل و لا أبو بكر على المسلمين منافقا و لا استعملا من أقاربهما ولا كان تأخذهما فى الله لومة لائم بل لما قاتلا أهل الردة و أعادوهم الى الاسلام منعوهم ركوب الخيل و حمل السلاح حتى تظهر صحة توبتهم و كان عمر يقول لسعد بن أبى و قاص و هو أمير العراق لاتستعمل أحدا منهم ولا تشاورهم فى الحرب فإنهم كانوا أمراء أكابر مثل طليحة الأسدى والأقرع بن حابس و عيينة بن حصن و الأشعث بن قيس الكندى و أمثالهم فهؤلاء لما تخوف أبو بكر و عمر منهم نوع نفاق لم يولهم على المسلمين فلو كان عمرو بن العاص و معاوية بن أبى سفيان و أمثالهما ممن يتخوف منهما النفاق لم يولوا على المسلمين بل عمرو بن العاص قد أمره النبى صلى الله عليه و سلم فى غزوة ذات السلاسل و النبى صلى الله عليه و سلم لم يول على المسلمين منافقا و قد استعمل على نجران أبن سفيان أن حرب أبا معاوية ومات رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو سفيان نائبه على نجران و قد اتفق المسلمون على أن اسلام معاوية خير من اسلام أبيه أبى سفيان فكيف يكون هؤلاء منافقين والنبى صلى الله عليه و سلم يأتمنهم على أحوال المسلمين فى العلم و العمل وقد علم أن معاوية و عمرو إبن العاص و غيرهما كان بينهم من الفتن ما كان و لم يتهمهم أحد من أوليائهم لا محاربوهم و لا غير محاربيهم بالكذب على النبى صلى الله عليه و سلم بل جميع علماء الصحابة و التابعين بعدهم متفقون على أن هؤلاء صادقون على رسول الله مأمونون عليه فى الرواية عنه والمنافق غير مأمون على النبى صلى الله عليه و سلم بل هو كاذب عليه مكذب له إذا كانوا مؤمنين محبين لله و رسوله فمن لعنهم فقد عصى الله و رسوله و قد ثبت فى صحيح البخارى ما معناه أن رجلا يلقب حمارا و كان يشرب الخمر و كان كلما شرب أتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم جلده فأتى به إليه مرة فقال رجل لعنه الله ما أكثر مايؤتى به الى النبى صلى الله عليه و سلم فقال النبى صلى الله عليه و سلم لاتلعنوه فإنه يحب الله و رسوله وكل مؤمن يحب الله و رسوله ومن لم يحب الله و رسوله فليس بمؤمن و أن كانوا متفاضلين فى الايمان و ما يدخل فيه من حب وغيره و هذا مع أنه صلى الله عليه و سلم لعن الخمر و عاصرها و معتصرها و شاربها و ساقيها وحاملها و المحمولة إليه و آكل ثمنها وقد نهى عن لعنه هذا المعين لأن اللعنة من باب الوعيد فيحكم به عموما و أما المعين فقد يرتفع عنه الوعيد لتوبة صحيحة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة أو غير ذلك من الأسباب التى ضررها يرفع العقوبة عن المذنب فهذا فى حق من له ذنب محقق وكذلك حاطب بن أبى بلتعة فعل مافعل و كان يسىء الى مماليكه حتى ثبت فى الصحيح أن غلامه قال يارسول الله و الله ليدخلن

حاطب إبن أبى بلتعة النار قال   كذبت إنه شهد بدرا و الحديبية   وفى الصحيح عن على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه و سلم أرسله و الزبير إبن العوام و قال لهما   إئتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة و معها كتاب   قال على فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى لقينا الظعينة فقلنا أين الكتاب فقالت ما معي كتاب فقلنا لها لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب قال فاخرجته من عقاصها فاتينا به النبى صلى الله عليه و سلم و إذا كتاب من حاطب الى بعض المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله عليه و سلم فقال النبى صلى الله عليه و سلم   ماهذا ياحاطب   فقال والله يارسول الله مافعلت هذا ارتدادا عن دينى و لا رضاء بالكفر بعد الاسلام و لكن كنت امرأ ملصقا فى قريش و لم أكن من انفسها و كان من معك من المسلمين لهم قرابات يحمون بهم أهاليهم بمكة فاحببت إذ فاتنى ذلك منهم ان اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى و فى لفظ و علمت أن ذلك لايضرك يعنى لأن الله ينصر رسوله و الذين آمنوا فقال عمر دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال النبى صلى الله عليه و سلم   إنه قد شهد بدرا و مايدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم   فهذه السيئة العظيمة غفرها الله له بشهود بدر   فدل ذلك على أن الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة و المؤمنون يؤمنون بالوعد و الوعيد لقوله صلى الله عليه و سلم   من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة   و أمثال ذلك مع قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً }النساء١٠ ولهذا لا يشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص و لايشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص و لا يشهد لهم بمجرد الظن من اندراجهم فى العموم لأنه قد يندرج فى العمومين فيستحق الثواب و العقاب لقوله تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{٨}الزلزلة ٧-٨ و العبد إذا اجتمع له سيئات و حسنات فإنه و إن استحق العقاب على سيئاته فإن الله يثيبه على حسناته و لا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه و إنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج و المعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر وأنهم لايخرجون منها بشفاعة و لا غيرها و أن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الايمان شيء و هذه أقوال فاسدة مخالفة للكتاب و السنة المتواترة و اجماع الصحابة وسائر أهل السنة و الجماعة و أئمة الدين لايعتقدون عصمة أحد من الصحابة و لا القرابة و لا السابقين و لا غيرهم بل يجوز عندهم و قوع الذنوب منهم والله تعالى يغفر لهم بالتوبة و يرفع بها درجاتهم و يغفر لهم بحسنات ماحية أو بغير ذلك من الأسباب قال تعالى   {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ{٣٣} لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ{٣٤} لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ{٣٥} الزمر ٣٣-٣٥   وقال تعالى {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ{١٥} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ {١٦} الاحقاف١٥-١٦ ولكن الأنبياء صلوات الله عليهم هم الذين قال العلماء إنهم معصومون من الإصرار على الذنوب فأما الصديقون و الشهداء و الصالحون فليسوا بمعصومين و هذا فى الذنوب المحققة و أما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون و تارة يخطئون فإذا إجتهدوا فأصابوا فلهم أجران و إذا اجتهدوا و اخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم و خطؤهم مغفور لهم وأهل الضلال يجعلون الخطأ والاثم متلازمين فتارة يغلون فيهم و يقولون إنهم معصومون و تارة يجفون عنهم و يقولون أنهم باغون بالخطأ و أهل العلم و الايمان يعصمون ولا يؤثمون [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٥٩-٦٩

" اصحاب محمد أبر هذه الأمة "

ان السابقين من الاولياء هم خيرهم هو الذى دل عليه الكتاب والسنن المتواترة واجماع السلف ويتصل بهذا ظن طوائف ان من المتأخرين من قد يكون أفضل من أفاضل الصحابة ويوجد هذا فى المنتسبين إلى العلم وإلى العبادة وإلى الجهاد والامارة والملك حتى فى المتفقهة من قال أبو حنيفة افقه من على وقال بعضهم يقلد الشافعى ولا يقلد ابو بكر وعمر ويتمسكون تارة بشبه عقلية أو ذوقية من جهة ان متأخرى كل فن يحكمونه أكثر من المتقدمين فانهم يستفيدون علوم الاولين مع العلوم التى اختصوا بها كما هو موجود فى أهل الحساب والطبائعيين والمنجمين وغيرهم ومن جهة الذوق وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين من المشاهدات العرفانية والكرامات الخارقة مالم ينقل مثله عن السلف وتارة يستدلون بشبه نقلية مثل قوله للعامل منهم أجر خمسين منكم وقوله أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبى من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين و مما هو فى الصحيحين أو احدهما من قوله خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وقوله والذى نفسى بيده لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وغير ذلك من الأحاديث وخلاف اجماع السلف كقول ابن مسعود إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد وقول حذيفة يا معشر القراء استقيموا وخذوا سبيل من كان قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن اخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا وقول ابن مسعود من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات أولئك اصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا واعمقها علما واقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم وقول جندب وغيره مما هو كثير مكتوب فى غير هذا الموضع بل خلاف نصوص القرآن فى مثل قوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ }التوبة١٠٠ الآية وقوله { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ وقوله {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ }الحشر١٠ الآية وغير ذلك[1]

الإنفاق الذي صدر فى أول الإسلام فى إقامة الدين ما بقى له نظير يساويه

والأنفاق في سبيل الله وفي إقامة الدين في أول الإسلام اعظم من صدقة على سائل محتاج و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم لا تسبوا أصحابي فوا الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم و لا نصيفه أخرجاه في الصحيحين قال تعالى {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٧٠

الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد١٠ فكذلك الإنفاق الذي صدر في أول الإسلام في إقامة الدين ما بقي له نظير يساويه [١]

القدح فى الصحابة قدح فى القرآن والسنة

فإن القدح فى خير القرون الذين صحبوا الرسول قدح فى الرسول عليه السلام كما قال مالك وغيره من أئمة العلم هؤلاء طعنوا فى أصحاب رسول الله وإنما طعنوا فى أصحابه ليقول القائل رجل سوء كان له أصحاب سوء ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين وايضا فهؤلاء الذين نقلوا القران والاسلام وشرائع النبى والقرآن قد اثنى على الصحابة فى غير موضع كقولة تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }التوبة١٠٠ وقولة تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }الحديد١٠ وقال تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }الفتح٢٩ وقال تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً }الفتح١٨ وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى انه قال لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة وفى الصحيحين عن ابى سعيد ان النبى قال لا تسبوا اصحابى فوالذى نفسى بيده لو ان احدكم انفق مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه وقد ثبت عنه فى الصحيح من غير وجه إنه قال خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهذه الاحاديث مستفيضه بل متواترة فى فضائل الصحابة والثناء عليهم وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون فالقدح فيهم قدح فى القرآن والسنة ولهذا تكلم الناس في تكفير الرافضة بما قد بسطناه في غير هذا الموضع و الله سبحانه وتعالى أعلم [٢]

لم يثن الله على أحد فى القرآن بنسبه أصلا

لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلا لا على ولد نبي ولا على أبي نبي وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم وإذا ذكر صنفا وأثنى عليهم فلما فيهم من الإيمان والعمل لا لمجرد النسب ولما ذكر الأنبياء ذكرهم في الأنعام وهم ثمانية عشر قال {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام٨٧ فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم لا بنفس القرابة وقد يوجب النسب حقوقا ويوجب لأجله حقوقا ويعلق فيه

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٣٠ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٨١

أحكاما من الإيجاب والتحريم والإباحة لكن الثواب والعقاب والوعد والوعيد على الأعمال لا على الأنساب ولما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ }آل عمران٣٣ وقال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً }النساء٥٤ كان هذا مدحا لهذا المعدن الشريف لما فيهم من الإيمان والعمل الصالح ومن لم يتصف بذلك منهم لم يدخل في المدح كما في قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد٢٦ وقال تعالى {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ }الصافات١١٣ وفي القرآن الثناء والمدح للصحابة بإيمانهم وأعمالهم في غير آية كقوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة١٠٠ وقوله { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }الحديد١٠ وقوله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً }الفتح١٨ وقوله {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً }الفتح٤ وقوله { لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{٨} وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ {٩} الحشر ٨ ٩ وقوله {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ }الفتح٢٩ وهكذا في القرآن الثناء على المؤمنين من الأمة أولها وآخرها على المتقين والمحسنين والمقسطين والصالحين وأمثال هذه الأنواع[1]

الأنبياء أفضل من الأولياء

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على ان الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء٦٩ وفى الحديث ما طلعت الشمس ولا غربت على احد بعد النبيين والمرسلين افضل من أبى بكر وأفضل الامم امة محمد قال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }آل عمران١١٠ وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا }فاطر٣٢وقال النبى فى الحديث الذى فى المسند انتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها واكرمها على الله وأفضل أمة محمد القرن الأول وقد ثبت عن النبى من غير وجه انه قال خير القرون القرن الذى بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهذا ثابت فى الصحيحين من غير وجه وفى الصحيحين ايضا عنه انه قال لا تسبوا اصحابى فو الذى نفسى بيده لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار أفضل من سائر الصحابة قال

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص:٢١٨- ٢١٩

تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا } الحديد١٠ وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة١٠٠ والسابقون الأولون الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا والمراد بالفتح صلح الحديبية فانه كان أول فتح مكة وفيه انزل الله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ {٢} الفتح١-٢ فقالوا يا رسول الله أو فتح هو قال نعم وافضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة وافضلهم أبو بكر ثم عمر وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الأمة وجماهيرها وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها فى منهاج أهل السنة النبوية فى نقض كلام أهل الشيعة والقدرية وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة وأفضل اولياء الله تعالى اعظمهم معرفة بما جاء به الرسول واتباعا له كالصحابة الذين هم أكمل الامة فى معرفة دينه واتباعه وأبو بكر الصديق اكمل معرفة بما جاء به وعملا به فهو أفضل اولياء الله إذ كانت أمة محمد أفضل الامم وافضلهااصحاب محمد صلى الله عليه و سلم وافضلهم أبو بكر رضى الله عنه [1]

خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر

خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر كما تواتر ذلك عن امير المؤمنين على بن ابى طالب موقوفا ومرفوعا وكما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة وبعدهما عثمان وعلى وكذلك سائر أهل الشورى مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف وهؤلاء مع أبى عبيدة بن الجراح امين هذه الأمة ومع سعيد بن زيد هم العشرة المشهود لهم بالجنة قال الله عز وجل فى كتابه { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } الحديد١٠ ففضل الله السابقين قبل فتح الحديبية الى الجهاد بأموالهم وانفسهم على التابعين بعدهم وقال الله تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } الفتح١٨ وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة١٠٠ فرضى الله سبحانه عن السابقين الأولين من المهاجرين والانصار وقد ثبت فى فضل البدريين ما تميزوا به على غيرهم [2]

" أن الله قال إعملوا ما شئتم قد غفرت لكم "

وقد ثبت في الصحيح أن مملوكه جاء إلى النبي فقال والله يا رسول الله لا بد أن يدخل حاطب النار فقال له النبي كذبت إنه شهد بدرا والحديبية وثبت في الصحيح أنه لما كتب إلى المشركين يخبرهم بمسير النبي إليهم أرسل علي بن أبي طالب والزبير إلى المرأة التى كان معها الكتاب فاتيا بها فقال ما

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٢١-٢٢٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٦

هذا يا حاطب فقال والله يارسول الله ما فعلت ارتداد عن دينى ولا رضيت بالكفر بعد الإسلام ولكن كنت امرءا ملصقا في قريش لم أكن من أنفسهم وكان معك من أصحابك لهم بمكة قرابات يحمون بها أهاليهم فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى فقال عمر بن الخطاب دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي إنه قد شهد بدرا وما يدريك أن أن الله قال إعملوا ما شئتم قد غفرت لكم وفي هذا الحديث بيان إن الله يغفر لهؤلاء السابقين كأهل بدر والحديبية من الذنوب العظيمة بفضل سابقتهم وإيمانهم وجهادهم ما لا يجوز لأحد أن يعاقبهم بها كما لم تجب معاقبة حاطب مما كان منه وهذا مما يستدل به على أن ما جرى بين على وطلحة والزبير ونحوهم فإنه أما أن يكون اجتهادا لا ذنب فيه فلا كلام فقد ثبت عن النبي أنه قال إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر وإن كان هناك ذنب فقد ثبت أن هؤلاء رضي الله عنهم وغفر لهم ما فعلوه فلا يضرهم ما وقع منهم من الذنوب إن كان قد وقع ذنب بل إن وقع من أحدهم ذنب كان الله محاه بسبب قد وقع من الأسباب التى يمحص الله بها الذنوب مثل أن يكون قد كفر عنه ببلاء ابتلاه به فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى إلا كفر الله من خطاياه وأما من بعد هؤلاء السابقين الأولين وهم الذين أسلموا بعد الحديبية فهؤلاء دخلوا فى قوله تعالى { وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد١٠ وفى قوله تعالى {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }التوبة١٠٠ وقد أسلم قبل فتح مكة خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة الحجبى وغيرهم وأسلم بعد الطلقاء أهل الطائف وكانوا آخر الناس اسلاما وكان منهم عثمان ابن أبى العاص الثقفى الذى أمره النبى صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف وكان من خيار الصحابة مع تأخر إسلامه فقد يتأخر اسلام الرجل ويكون أفضل من بعض من تقدمه بالاسلام كما تأخر اسلام عمر فانه يقال إنه أسلم تمام الاربعين وكان ممن فضله الله على كثير ممن أسلم قبله وكان عثمان وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن ابن عوف أسلموا قبل عمر على يد أبى بكر وتقدمهم عمر وقد قال في الحديث الصحيح المهاجر من هجر ما نهى الله عنه فمن كان قد أسلم من الطلقاء وهجر ما نهى الله عنه كان له معنى هذه الهجرة فدخل في قوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ }الأنفال٧٥ كما دخل في قوله تعالى { وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد١٠ وقد قال تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }الفتح٢٩ فهذا يتناول الذين آمنوا مع الرسول مطلقا وقد استفاض عن النبي في الصحاح وغيرها من غير وجه أنه قال خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وثبت عنه فى الصحيح أنه كان بين عبد الرحمن وبين خالد كلام فقال يا خالد لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدكم ولا نصيفه قال ذلك لخالد ونحوه ممن أسلم بعد الحديبية بالنسبة الى السابقين الاولين يقول اذا أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصف مده وهؤلاء الذين أسلموا بعد الحديبية دخلوا فى قوله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد١٠ بهذه المنزلة وكيف يكون بعد أصحابه والصحبة اسم جنس تقع على من صحب النبى قليلا أوكثيرا لكن كل منهم له من الصحبة بقدر ذلك فمن صحبه سنة أوشهرا أو يوما أو ساعة أو رآه مؤمنا فله من الصحبة بقدر ذلك كما ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال يغزوا فئام من الناس فيقولون هل فيكم من صحب النبى وفى لفظ هل فيكم من رأى رسول الله فيقولون نعم

فيفتح لهم ثم يغزوا فئام من الناس فيقولون هل فيكم من صحب من صحب رسول الله وفى لفظ هل فيكم من رآى من رآى رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزوا فئام من الناس فيقولون هل فيكم من رآى من رآى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى لفظ من صحب من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم وفى بعض الطرق فيذكر الطبقة الرابعة كذلك فقد علق النبى الحكم بصحبته وعلق برؤيته وجعل فتح الله على المسلمين بسبب من رآه مؤمنا به وهذه الخاصية لا تثبت لأحد غير الصحابة ولو كانت اعمالهم أكثر من أعمال الواحد من أصحابه [1]

الحسنات درجات

قال تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١} الحديد ١٠-١١ ان الأمور المذمومة في الشريعة كما ذكرناه هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تغلب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاسد والحسنات درجات بعضها فوق بعض والسيئات بعضها أكبر من بعض فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين وكل من هؤلاء هم درجات عند الله ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب وإن انتقل إلى ما هو دونها كان في التأخر والرجوع وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب [2]

ويقول الله تعالى في كتابه { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١} الحديد ١٠-١١ فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يدخل في ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به وإذا ترك ذلك من تعين عليه كان مذنبا مسيئا فيكون ذلك سيئة له إذا تركه وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسنات من لم يكن قادرا على ذلك فحسنات هؤلاء الأبرار وهي الإقتصار على ذلك سيئات أولئك المقربين وكذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دون كان ذلك من أعظم سيئاتهم قال النبي صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا كان الإقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك إلى نظائر ذلك مما يؤمر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هو دونه فيكون ترك ذلك سيئة في حقهه وهو من المقربين إذا فعله ويكون فعل ما دون ذلك حسنات لمن دونه وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب في حقهما وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله وتخصيصه بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه كمن له والدان فإنه يؤمر ببرهما ويكون بذلك أفضل ممن لم يعمل مثل عمله كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركين لغيرهم في الأعمال البدينة ذلك فضل الله يؤتيه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤٦٠-٤٦٢

[2] الاستقامة ج: ١ ص: ٤٦٢

من يشاء فهؤلاء المفضلون الإقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات في حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم في ذلك[1]

" المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف "

ومن الناس من يؤمن بالرسل ايمانا مجملا واما الايمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن بما بلغه عن الرسل وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به ولكن آمن بما جاءت به الرسل ايمانا مجملا فهذا اذا عمل بما علم ان الله امره به مع ايمانه وتقواه فهو من اولياء الله تعالى له من ولاية الله بحسب ايمانه وتقواه وما لم تقم عليه الحجة فان الله تعالى لم يكلفه معرفته والايمان المفصل به فلا يعذبه على تركه لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به ايمانا مفصلا وعمل به فهو أكمل ايمانا وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به وكلاهما ولى لله تعالى والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما واولياء الله المؤمنون المتقون فى تلك الدرجات بحسب ايمانهم وتقواهم قال تبارك وتعالى { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً{١٨} وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{١٩} كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً{٢٠} انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً{٢١} الاسراء١٨-٢١ فبين الله سبحانه وتعالى انه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وان عطاءه ما كان محظورا من بر ولا فاجر ثم قال تعالى { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً{٢١} الاسراء٢١ فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس فى الدنيا وان درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل انبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }البقرة٢٥٣ وقال تعالى { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً }الإسراء٥٥وفى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شىء فلا تقل لو انى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفى الصحيحين عن أبى هريرة وعمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى انه قال إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر وقد قال الله تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ وقال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{٩٥} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ

---

[1] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٥٢-٢٥٣

وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{٩٦} النساء٩٥-٩٦ وقال تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {١٩} الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{٢٢} التوبة١٩-٢٢ وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} الزمر٩ وقال تعالى { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} المجادلة١١ [1]

الله سبحانه الصادق الذى لا يخلف الميعاد

قال تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين [2]

لطائف لغوية

١-قال تعالى { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١}الحديد١٠-١١ التسوية جعل الشيئين سواء كما قال {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} فاطر١٩ [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:١٨٧- ١٩٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢١٩

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٣٦

الحديد ١٢-١٥

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥}

أن الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية

وذكرمحمد بن نصر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الايمان والاسلام فجعل الايمان خاصا والاسلام عاما قال فلنا فى هؤلاء أسوة وبهم قدوة مع ما يثبت ذلك من النظر وذلك أن الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة أوجب عليه الجنة فقال { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً{٤٣} تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً{٤٤}الأحزاب٤٣-٤٤ وقال {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً }الأحزاب٤٧ وقال { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ }يونس٢ وقال {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}الحديد١٢ وقال {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ }البقرة٢٥٧ وقال {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا }التوبة٧٢ [1]

لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

قال تعالى{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}الحديد١٢ فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٢٠

باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار} التوبة٧٢ فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً} النساء١٢٢ الآيات فى هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} القمر٥٤ وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} الانفطار١٣ وباسم أولياء الله كقوله { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان وهكذا سائر أهل الكبائر إيمانهم ناقص واذا كان فى قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها اذا لم يعف الله عنه ولم يخلد فى النار فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان لكن معهم أيضا ما يخالف الايمان من النفاق فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين لا سيما ان كانوا للكفر أقرب منهم للإيمان وهؤلاء يدخلون فى إسم الإيمان فى أحكام الدنيا كما يدخل المنافق المحض وأولى لأن هؤلاء معهم ايمان يدخلون به فى خطاب الله ب يا أيها الذين آمنوا لأن ذلك أمر لهم بما ينفعهم ونهى لهم عما يضرهم وهم محتاجون الى ذلك ثم أن الإيمان الذى معهم ان إقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام والا فليسوا بأسوأ حالا من المنافق المحض وذلك المنافق يخاطب بهذه الأعمال وتنفعه فى الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها فى الدنيا لكن وقت الحقيقة يضرب { بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥} الحديد١٣-١٥ وقد قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً {١٤٥} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{١٤٦} النساء١٤٥-١٤٦ فاذا عمل العبد صالحا لله فهذا هو الإسلام الذى هو دين الله ويكون معه من الإيمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة ثم ان كان معه من الذنوب ما يعذب به عذب وأخرج من النار اذا كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان وان كان معه نفاق ولهذا قال تعالى فى هؤلاء { فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً} النساء١٤٦ فلم يقل أنهم مؤمنون بمجرد هذا اذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل هم معهم وانما ذكر العمل الصالح وإخلاصه لله وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } النساء١٤٦ فيكون لهم حكمهم وقد بين تفاضل المؤمنين فى مواضع اخر وأنه من أتى بالايمان الواجب استحق الثواب ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر فذاك من اهل الوعيد وايمانه ينفعه الله به ويخرجه به من النار ولو

أنه مثقال حبة خردل لكن لا يستحق به الإسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب وتمام هذا أن الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان وشعبة من شعب الكفر أو النفاق ويسمى مسلما كما نص عليه أحمد وتمام هذا أن الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق وقد يكون مسلما وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الإسلام بالكلية كما قال الصحابة ابن عباس وغيره كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف وهو الذى نص عليه أحمد وغيره ممن قال فى السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم أنه ليس بمؤمن أنه يقال لهم مسلمون لا مؤمنون واستدلوا بالقرآن والسنة على نفى اسم الايمان مع إثبات إسم الإسلام وبأن الرجل قد يكون مسلما ومعه كفر الظاهر يجرى على المنافقين لأنهم استسلموا ظاهرا واتوا بما آتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة والزكاة الظاهرة والحج الظاهر والجهاد الظاهر كما كان النبى يجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهر واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الإيمان فهو كما قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ {١٤٥} النساء ١٤٥ [1]

قد تلفظ بلا اله الا الله المنافقون الذين هم فى الدرك الأسفل من النار

من إعتقد أنه بمجرد تلفظ الإنسان بهذه الكلمة(لا إله إلا الله)يدخل الجنة ولا يدخل النار بحال فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين فإنه قد تلفظ بها المنافقون الذين هم فى الدرك الأسفل من النار وهم كثيرون بل المنافقون قد يصومون ويصلون ويتصدقون ولكن لا يتقبل منهم قال الله تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء١٤٢ وقال تعالى {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣} وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ{٥٤}التوبة٥٣-٥٤ وقال تعالى { إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً }النساء١٤٠ وقال تعالى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥} الحديد١٢-١٥ وفى الصحيحين عن النبى أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ولمسلم وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وفى الصحيحين عنه أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ولكن إن قال لا إله إلا الله خالصا صادقا من قلبه ومات على ذلك فإنه لا يخلد فى النار إذ لا يخلد فى النار من فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان كما صحت بذلك الأحاديث عن النبى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٣٤٨-٣٥١

لكن من دخلها من فساق أهل القبلة من أهل السرقة والزنا وشرب الخمر وشهادة الزور وأكل الربا وأكل مال اليتيم وغير هؤلاء فإنهم إذا عذبوا فيها عذبهم على قدر ذنوبهم كما جاء فى الأحاديث الصحيحة منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومكثوا فيها ما شاء الله أن يمكثوا أخرجوا بعد ذلك كالحمم فيلقون فى نهر يقال له الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة فى حميل السيل ويدخلون الجنة مكتوب على رقابهم هؤلاء الجهنميون عتقاء الله من النار وتفصيل هذه الجملة طويل لا يحتمله هذا الموضع و الله أعلم[1]

الناس ثلاثة أصناف

فإن الله منذ بعث محمدا وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف مؤمن به وكافر به مظهر الكفر ومنافق مستخف بالكفر ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتين في الكفار وبضع عشر آية في المنافقين وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن كقوله {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ }الأحزاب٤٨ وقوله { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً }النساء١٤٠ وقوله {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا }الحديد١٥ وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام وإلا فهم في الباطن شر من الكفار كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}النساء١٤٥ وكما قال {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ }التوبة٨٤ وكما قال {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٣ }وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ {٥٤ }التوبة٥٣-٥٤ وإذا كان كذلك فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة وأول من ابتدع الرفض كان منافقا وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة فهذا ليس بكافر ولا منافق ثم قد يكون منه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا وقد يكون مخطئا متأولا مغفورا له خطأه وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه[2]

النور هو مادة كل خير وصلاح كل شيء

سورة النور وسطها بذكر النور الذى هو مادة كل خير وصلاح كل شيء وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه وعن الصبر على ذلك فانه ضياء فان حفظ الحدود بتقوى الله يجعل الله لصاحبه نورا كما قال تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٢٠٢-٢٠٣ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢١٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٥٣-٣٥٤

وَيَغْفِرْ لَكُمْ }الحديد٢٨ فضد النور الظلمة ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال فقال{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ }النور٣٩ إلى قوله { ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ }النور٤٠ وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة وظلم العبد نفسه من الظلم فان للسيئة ظلمة فى القلب وسوادا فى الوجه ووهنا فى البدن ونقصا فى الرزق وبغضا فى قلوب الخلق كما روى ذلك عن ابن عباس يوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال الكفار بالظلمة و الإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه و الكفر اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه اصل الايمان وبعض فروع الكفر من المعاصى كما لا يكون مؤمنا إذا كان معه اصل الكفر وبعض فروع الإيمان ولغض البصر اختصاص بالنور كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى وقد روى أبو هريرة عن النبى أنه قال إن العبد اذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فذلك الران الذى ذكر الله {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }المطففين١٤ رواه الترمذى وصححه وفى الصحيح انه قال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفارا يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لاتصير رينا وقال حذيفة إن الإيمان يبدو فى القلب لمظة بيضاء فكلما إزداد العبد إيمانا إزداد قلبه بياضا فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقا وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء فكلما إزداد العبد نفاقا إزداد قلبه سوادا فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربدا وقال صلى الله عليه وسلم إن النور إذا دخل القلب إنشرح وإنفسح قيل فهل لذلك من علامة يا رسول الله قال نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإستعداد للموت قبل نزوله وفى خطبة الإمام أحمد التى كتبها فى كتابه فى الرد على الجهمية والزنادقة قال الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحبون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لأبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه حيران قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم نعوذ بالله من شبه المضلين قلت وقد قرن الله سبحانه فى كتابه فى غير موضع بين أهل الهدى والضلال وبين أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا كقوله تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {١٩} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {٢٠} وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ {٢١} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ {٢٢ } فاطر ١٩-٢٢وقال {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } هود٢٤الآية وقال فى المنافقين {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً }البقرة١٧ الآيات وقال {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ }البقرة٢٥٧ الآية وقال {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }إبراهيم١ والآيات فى ذلك كثيرة وهذا النور الذى يكون للمؤمن فى الدنيا على حسن عمله وإعتقاده يظهر فى الآخرة كما قال تعالى { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }التحريم٨ الآية فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة كما ذكره فى سورة النور عقيب أمره بغض البصر وامره بالتوبة فى قوله{ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }النور٣١ وذكر ذلك بعد أمره بحقوق

الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء وقال في سورة الحديد {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥} الحديد١٢-١٥ فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذى كان المؤمنون يمشون به ويطلبون الإقتباس من نورهم فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم وبين المؤمنين كما أن المنافقين لما فقدوا النور فى الدنيا كان {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} البقرة١٧ [1]

" ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورا يوم القيامة "

قال تعالى {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} التحريم٨ وقوله {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} الحديد١٢ نص عام في المؤمنين الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم وسياق الكلام يدل على عمومه والآثار المروية في ذلك تدل على عمومه قال ابن عباس ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورا يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره يوم القيامة والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق فهو يقول ربنا أتمم لنا نورنا فان العموم في ذلك [2]

نور المنافقين يطفأ

ويوم القيامة يكون المنافقون فى العذاب كما قال تعالى {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ{١٤} الحديد١٣ -١٤ الآية وقد قال غير واحد من السلف أن المنافق يعطى يوم القيامة نورا ثم يطفأ ولهذا قال تعالى {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا} التحريم٨ قال المفسرون اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة قال إبن عباس ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورا يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق فهو يقول {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} التحريم٨ وهو كما قال فقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وهو ثابت من وجوه اخر عن النبى ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٢٨٢- ٢٨٥

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٥٧

من حديث ابن مسعود وهو أطولها ومن حديث أبى موسى فى الحديث الطويل الذى يذكر فيه أنه ينادى يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه وفى رواية فيكشف عن ساقه وفى رواية فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساقه فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا اذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه فتبقى ظهورهم مثل صياصى البقر فيرفعون رؤوسهم فاذا نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ويطفأ نور المنافقين فيقولون ذرونا نقتبس من نوركم فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين فى الظاهر كما كانوا معهم فى الدنيا ثم وقت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم وأولئك لا يتمكنون من السجود فإنهم لم يسجدوا فى الدنيا له بل قصدوا الرياء للناس والجزاء فى الآخرة هو من جنس العمل فى الدنيا فلهذا أعطوا نورا ثم طفىء لأنهم فى الدنيا دخلوا فى الايمان ثم خرجوا منه [1]

نطق القران بكفر المنافقين

وقد نطق القران بكفر المنافقين في غير موضع وجعلهم أسوأ حالا من الكافرين وانهم في الدرك الاسفل من النار وانهم يوم القيامة يقولون للذين امنوا { انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ {١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ {١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {١٥} الحديد١٣-١٥ وامر نبيه في اخر الامر بان لايصلي علي احد منهم واخبر انه لن يغفر لهم وامره بجهادهم والاغلاظ عليهم واخبر انهم ان لم ينتهوا ليغرين الله نبيه بهم حتى يقتلوا في كل موضع [2]

الانحياز عن أمة محمد واللحاق بأهل الكفر

ومما يتعلق بأحكام الآخرة والانحياز عن أمة محمد واللحاق بأهل الكفر و نحو ذلك فهذا قد يجوز على كثير ممن يدعي الإسلام و هم المنافقون الذين أمرهم بالكتاب و السنة معلوم الذين قيل فيهم { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ {١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٧٢ ـ ٢٧٥

[2] الصارم المسلول ج: ٢ ص:٧٩ـ ٨٠

الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥}الحديد١٣-١٥ [1]

{ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً }

قال تعالى{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ {١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥}الحديد١٣-١٥ وقال تعالى {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }التوبة٧٩ روى عن ابن عباس أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار فيسرعون اليه فيغلق ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق فيضحك منهم المؤمنون قال تعالى { فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{٣٤} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{٣٥} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{٣٦} المطففين٣٤-٣٦ وعن الحسن البصرى اذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد الاهالة من القدر فيمشون فيخسف بهم وعن مقاتل اذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب فيبقون فى الظلمة فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا [2]

المضاف إلى الله نوعان

قال تعالى{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ {١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥}الحديد١٣-١٥ والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله { حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }الحديد١٤ فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بائنة عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق [3]

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٩٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١١٢

[3] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٥٧

لفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول

قال تعالى{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ {١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥}الحديد١٣-١٥ ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول فالمفعول مخلوق كما قال {أَتَى أَمْرُ اللّهِ }النحل١ و قال { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً }الأحزاب٣٨ فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه و هذه الآية التى إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع و هو الأمر و القدر و قد ضل في هذا الموضع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً }الأحزاب٣٨ و يقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق و هؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله وقدره وأمره و قدره غير مخلوق و مثار الشبهة أن إسم القدر والأمر والشرع يراد به المصدر ويراد به المفعول ففي قوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً }الأحزاب٣٨ المراد به المأمور به المقدور وهذا مخلوق و أما فى قوله {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ }الطلاق٥ فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التى أمرنا بها و إنما أنزل القرآن و هذا كقوله {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا }النساء٥٨ فهذا الأمر هو كلامه [1]

لفظ الكفر و النفاق

لفظ الكفر و النفاق فالكفر اذا ذكر مفردا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ }البينة٦ وأمثال هذه النصوص كثير فى القرآن فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شىء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله بذلك فى كتابه ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ففى أول البقرة ذكر أربع آيات فى صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين فقال تعالى {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٥}الحديد١٢-١٥ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٤

الشارع استعمل الأسماء مقيدة لا مطلقة

قال تعالى{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ }الحديد١٣ وبسبب الكلام فى مسألة الأيمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وكذلك لفظ الكفر مقيدا ولكن لفظ النفاق قد قيل أنه لم تكن العرب تكلمت به لكنه مأخوذ من كلامهم فان نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ومنه نافقاء اليربوع والنفق فى الأرض قال تعالى { فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ }الأنعام٣٥ فالمنافق هو الذى خرج من الايمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهرا وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقا عليه لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الاسماء كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا[1]

لطائف لغوية

١-قال تعالى{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}الحديد١٢ قوله تعالى {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ }البقرة٢٥ فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا }يوسف٨٢ وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال[2]

٢-قال تعالى{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ }الحديد١٣ ورحمته اسم جامع لكل خيرودار الرحمة الخالصة هى الجنة[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٤

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

الحديد ١٦-٢١

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{١٦} اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{١٧} إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١٨} وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{١٩} اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ{٢٠} سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢١}

نهي مطلق عن مشابهة اهل الكتاب

قال تعالى{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد١٦ فقوله{ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ }الحديد١٦ نهي مطلق عن مشابهتهم وهو خاص أيضا في النهي عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي وقد وصف الله سبحانه بها اليهود في غير موضع فقال تعالى { فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٧٣} ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }البقرة٧٣-٧٤ [1]

النهى عن إتباع كتب غير القرآن

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٨٩-٩٠

روى إبن أبي حاتم عن المسعودى عن القاسم أن أصحاب رسول الله ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ }يوسف٣ ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فنزلت {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ }الزمر٢٣ ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد١٦ وقد روى أ بو عبيد فى فضائل القرآن عن بعض التابعين فقال حدثنا حجاج عن المسعودى عن عون بن عبدالله بن عتبة قال مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ملة فقالوا يا رسول الله حدثنا فأنزل الله تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}الزمر٢٣ قال ثم نعته فقال { كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }الزمر٢٣ إلى آخر الآية قال ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا شيئا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص فأنزل الله {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{١} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ{٣}يوسف١-٣ قال فإن أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث وإن أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص ورواه إبن أبي حاتم بإسناد حسن مرفوعا عن مصعب بن سعد عن سعد قال نزل على رسول الله القرآن فتلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{١} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ{٣}يوسف١-٣ فتلاه عليهم زمانا ولما كان القرآن أحسن الكلام نهوا عن إتباع ما سواه قال تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ }العنكبوت٥١ وروى النسائى وغيره عن النبى أنه رأي بيد عمر بن الخطاب شيئا من التوراة فقال لو كان موسى حيا ثم إتبعتموه وتركتمونى لضللتم وفى رواية ما وسعه إلي إتباعى وفى لفظ فتغير وجه النبى صلى الله عليه و سلم لما عرض عليه عمر ذلك فقال له بعض الأنصار يا إبن الخطاب ألا ترى إلى وجه رسول الله فقال عمر رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ولهذا كان الصحابة ينهون عن إتباع كتب غير القرآن[1]

أثنى على أهل السماع للحديث الذي نزله

فأثنى على أهل السماع والوجد للحديث الذي نزله وهو أحسن الحديث و على أهل ذكره والاستماع لحديثه كما جمع بينهما في قوله { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد١٦ [2]

خشوع القلب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص:٣٩- ٤١

[2] الاستقامة ج: ١ ص: ٢٢٣

الخشوع يتضمن معنيين أحدهما التواضع والذل والثانى السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافى للقسوة فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضا ولهذا كان الخشوع فى الصلاة يتضمن هذا وهذا التواضع والسكون وعن ابن عباس فى قوله {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }المؤمنون٢ قال مخبتون أذلاء وعن الحسن وقتادة خائفون وعن مقاتل متواضعون وعن على الخشوع فى القلب وان تلين للمرء المسلم كنفك ولا تلتفت يمينا ولا شمالا وقال مجاهد غض البصر وخفض الجناح وكان الرجل من العلماء اذ قام الى الصلاة يهاب الرحمن ان يشد بصره أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا وعن عمرو بن دينار ليس الخشوع الركوع والسجود ولكنه السكون وحب حسن الهيئة فى الصلاة وعن ابن سيرين وغيره كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يرفعون أبصارهم فى الصلاة الى السماء وينظرون يمينا وشمالا حتى نزلت هذه {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{٢} المؤمنون ١-٢ الآية فجعلوا بعد ذلك أبصارهم حيث يسجدون وما رؤى أحد منهم بعد ذلك ينظر الا الى الأرض وعن عطاء هو أن لا تعبث بشيء من جسدك وأنت فى الصلاة وأبصر النبى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ولفظ الخشوع ان شاء الله يبسط فى موضع آخر و خشوع الجسد تبع لخشوع القلب اذا لم يكن الرجل مرائيا يظهر ما ليس فى قلبه كما روى تعوذوا بالله من خشوع النفاق وهو أن يرى الجسد خاشعا والقلب خاليا لاهيا فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد١٦ فدعاهم الى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الامد فقست قلوبهم وهؤلاء هم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وكذلك قال فى الآية الأخرى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }الزمر٢٣ و{ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ }الزمر٢٣ هم الذين اذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم فان قيل فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب قيل نعم لكن الناس فيه على قسمين مقتصد وسابق فالسابقون يختصون بالمستحبات والمقتصدون الابرار هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ومن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء فهو ظالم لنفسه وفى الحديث الصحيح عن النبى اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع فى غير موضع فقال تعالى {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً }البقرة٧٤ قال الزجاج قست فى اللغة غلظت ويبست وعسيت فقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه والقاسى والعاسى الشديد الصلابة وقال ابن قتيبة قست وعست وعتت أى يبست وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة فانه ينبغى أن يكون قويا من غير عنف ولينا من غير ضعف وفى الأثر القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها الى الله أصلبها وارقها وأصفاها وهذا كاليد فانها قوية لينة بخلاف ما يقسو من العقب فانه يابس لا لين فيه وان كان فيه قوة وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره ثم ذكر زيادة الايمان عند تلاوة كتابه علما وعملا ثم لابد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه ومن طاعته فيما يقدر عليه واصل ذلك الصلاة و الزكاة فمن قام بهذه الخمس كما أمر لزم أن يأتى بسائر الواجبات بل الصلاة نفسها اذا فعلها كما أمر فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر كما روى عن ابن مسعود وابن عباس أن فى الصلاة منتهى ومزدجرا عن معاصى الله فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله الا بعدا وقوله لم يزدد الا بعدا اذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله أبعده ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل وهذا كما فى الصحيح

عن النبى أنه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا وقد قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء١٤٢ وفى السنن عن عمار عن النبى أنه قال ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها الا ثلثها حتى قال الا عشرها وعن ابن عباس قال ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها وهذا وان لم يؤمر باعادة الصلاة عند أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتى من التطوعات بما يجبر نقص فرضه ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة وكان يخشى الله الخشية التى أمره بها فانه يأتى بالواجبات ولا يأتى كبيرة ومن أتى الكبائر مثل الزنا أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك فلابد أن يذهب ما فى قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور وان بقى أصل التصديق فى قلبه وهذا من الايمان الذى ينزع منه عند فعل الكبيرة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فان المتقين كما وصفهم الله بقوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }الأعراف٢٠١ فاذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان تذكروا فيبصرون قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ وقال ليث عن مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه والشهوة والغضب مبدأ السيئات فاذا أبصر رجع ثم قال {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ }الأعراف٢٠٢ أى واخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغى ثم لا يقصرون قال ابن عباس لا الانس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم فاذا لم يبصر بقى قلبه فى غى والشيطان يمده فى غيه وان كان التصديق فى قلبه لم يكذب فذلك النور والابصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه وهذا كما أن الانسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا وان لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وان لم يكن أعمى كعمى الكافر وهكذا جاء فى الآثار قال أحمد بن حنبل فى كتاب الايمان حدثنا يحيى عن أشعث عن الحسن عن النبى قال ينزع منه الايمان فان تاب أعيد اليه وقال حدثنا يحيى عن عوف قال قال الحسن يجانبه الايمان ما دام كذلك فان راجع راجعه الايمان وقال أحمد حدثنا معاوية عن أبى اسحاق عن الاوزاعى قال وقد قلت للزهرى حين ذكر هذا الحديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن فانهم يقولون فان لم يكن مؤمنا فما هو قال فأنكر ذلك وكره مسألتى عنه وقال أحمد حدثنا عبدالرحمن بن مهدى عن سفيان عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لغلمانه من أراد منكم الباءة زوجناه لا يزنى منكم زان الا نزع الله منه نور الايمان فان شاء ان يرده رده وان شاء ان يمنعه منعه وقال أبو داود السجستانى حدثنا عبدالوهاب بن نجدة حدثنا بقية بن الوليد حدثنا صفوان بن عمرو عن عبدالله بن ربيعة الحضرمى أنه اخبره عن أبى هريرة أنه كان يقول إنما الايمان كثوب أحدكم يلبسه مرة ويقلعه أخرى وكذلك رواه باسناده وروى عن الحسن عن النبى مرسلا وفى حديث عن أبى هريرة مرفوع الى النبى اذا زنى الزانى خرج منه الايمان فكان كالظلة فاذا انقطع رجع اليه الايمان وهذا ان شاء الله يبسط فى موضع آخر [١]

قسوة القلوب من ثمرات المعاصى

[١]مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨-٣٣

قال تعالى{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد١٦ وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي وقد وصف الله سبحانه بها اليهود في غير موضع فقال تعالى { وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{١٢} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{١٣}المائدة ١٢-١٣ وإن قوما من هذه الأمة ممن ينسب إلى علم أو دين قد أخذوا من هذه الصفات بنصيب يرى ذلك من له بصيرة فنعوذ بالله من كل ما يكرهه الله ورسوله ولهذا كان السلف يحذرون هذا فروى البخاري في صحيحه عن أبي الأسود قال بعث أبو موسى إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم وإنا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أني حفظت منها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ }الصف٢ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة فحذر أبو موسى القراء أن يطول عليهم الأمد فتقسوا قلوبهم ثم لما كان نقض الميثاق يدخل فيه نقض ما عهد الله إليهم من الأمر والنهي وتحريف الكلم عن مواضعه وتبديل وتأويل كتاب الله أخبر ابن مسعود رضي الله عنه بما يشبه ذلك فروى الأعمش عن عمارة بن عمير عن الربيع بن أبي عميلة الفزاري حدثنا عبد الله حديثا ما سمعت حديثا هو أحسن منه إلا كتاب الله أو رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم فاخترعوا كتابا من عند أنفسهم اشتهته قلوبهم واستحلته أنفسهم وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون فقالوا اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل فإن تابعوكم فاتركوهم وإن خالفوكم فاقتلوهم ثم قالوا لا بل أرسلوا إلى فلان رجل من علمائهم فاعرضوا عليه هذا الكتاب فإن تابعكم فلن يخالفكم أحد بعده وإن خالفكم فاقتلوه فلن يختلف عليكم بعده أحد فأرسلوا إليه فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله ثم جعلها في قرن ثم علقها في عنقه ثم لبس عليها الثياب ثم أتاهم فعرضوا عليه الكتاب فقالوا أتؤمن بهذا فأوما إلى صدره فقال آمنت بهذا ومالي لا اومن بهذا يعني الكتاب الذي في القرن فخلوا سبيله وكان له أصحاب يغشونه فلما مات نبشوه فوجدوا القرن ووجدوا فيه الكتاب فقالوا ألا ترون قوله آمنت بهذا ومالي لا أومن بهذا إنما عنى هذا الكتاب فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة وخير مللهم أصحاب ذي القرن قال عبد الله وإن من بقي منكم سيرى منكرا وبحسب امرئ يرى منكرا لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره ولما نهى الله عن التشبه بهؤلاء الذين قست قلوبهم ذكر أيضا في آخر السورة حال الذين ابتدعوا الرهبانية فما رعوها حق رعايتها فعقبها بقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد٢٨-٢٩ فإن الإيمان بالرسول هو تصديقه وطاعته واتباع شريعته وفي ذلك مخالفة للرهبانية لأنه لم يبعث بها بل نهى عنها وأخبر أن من اتبعه من أهل الكتاب كان له أجران وبذلك جاءت الأحاديث الصحيحة من طريق ابن عمر وغيره في مثلنا ومثل أهل الكتاب وقد صرح صلى الله عليه وسلم بذلك فيما

رواه أبو داود في سننه من حديث ابن وهب أخبرني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم هذا الذي في رواية اللؤلؤي عن أبي داود وفي رواية ابن داسة عنه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة في زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير بالمدينة فإذا هو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريب منها فلما سلم قال يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته قال إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ثم غدا من الغد فقال ألا تركب وننظر لنعتبر قال نعم فركبا جميعا فإذا بديار باد أهلها وانقضوا وفنوا خاوية على عروشها قال أتعرف هذه الديار فقال نعم ما أعرفني بها وبأهلها هؤلاء أهل ديار أهلكهم الله ببغيهم وحسدهم إن الحسد يطفئ نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه[1]

القاسى القلب لا يلين للسماع والذكر

حال الظالم لنفسه الذى هو قاسى القلب لا يلين للسماع والذكر وهؤلاء فيهم شبه من اليهود قال الله تعالى {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}البقرة٧٤ وقال تعالى {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}الحديد١٦ [2]

يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به

قال تعالى{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الحديد١٧ فما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجبه الله من ذلك كقوله {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}المائدة٩٨ وقول {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}محمد١٩ ولذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به[3]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٩١-٩٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٦

[3] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٥٦

لفظ العقل فى القران

قال تعالى{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} الحديد١٧

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة[1]

ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلكم تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }الحج٤٦ وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }آل عمران١١٨ ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }الحج٤٦ والعقل المشروط فى التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التى فى الانسان التى بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن فى العين قوة بها يبصر وفى اللسان قوة بها يذوق وفى الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء[2]

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} الحديد١٧

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى }طه٥٤ أى العقول وقال تعالى {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ }الفجر٥ أى لذى عقل وقال تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }البقرة١٩٧ وقال {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ }الأنفال٢٢ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف٢ فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦

أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف١٧٩ وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان٤٤ [1]

لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب

قال تعالى{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الحديد١٧ ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب كما جعل المطر سببا لإنبات النبات وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه بهما وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت فإن ذلك من الأسباب التى يرحمه الله بها ويثيب عليها المصلين عليه[2]

العقود تصح بكل ما دل على مقصودها

قال تعالى{ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}الحديد١٨

هذه القاعدة الجامعة التي ذكرناها من أن العقود تصح بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل هي التى تدل عليها أصول الشريعة وهي التى تعرفها القلوب و ذلك أن الله سبحانه و تعالى قال { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء٣ و قال {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ }النور٣٢ و قال { وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ }البقرة٢٧٥ و قال { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً }النساء٤ و قال { إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ }النساء٢٩ و قال { فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}الطلاق٦ و قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ }البقرة٢٨٢إلى قوله {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٢٨٢} وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ {٢٨٣}البقرة٢٨٢-٢٨٣ [3]

ابطال استدلال الرافضى [4] بقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } على إمامة علي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٣٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص:١٣- ٢١

[4] **الرافضى هو**

قال الرافضي المنهج الثاني في الأدلة المأخوذة من القرآن والبراهين الدالة على إمامة علي من الكتاب العزيز كثيرة قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}الحديد١٩ روى أحمد بن حنبل بإسناد عن أبي ليلى عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصديقون ثلاثة حبيب بن موسى النجار مؤمن آل ياسين الذي قال يا قوم اتبعوا المرسلين وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال اتقتلوا رجلا أن يقول ربي الله وعلي بن أبي طالب الثالث وهو أفضلهم ونحوه روى أبن المغازلي الفقيه الشافعي وصاحب كتاب الفردوس هذه وفضيلة تدل على إمامته والجواب من وجوه إحدهما المطالبة بصحة الحديث وهذا ليس في مسند أحمد ومجرد روايته له في الفضائل لو كان رواه لا يدل على صحته عنده باتفاق أهل العلم فإنه يروي ما رواه الناس وأن لم تثبت صحته وكل من عرف العلم يعلم أنه ليس كل حديث رواه أحمد في الفضائل ونحوه يقول أنه صحيح بل ولا كل حديث رواه في مسنده يقول أنه صحيح بل أحاديث مسنده هي التي رواها الناس عمن هو معروف عند الناس بالنقل ولم يظهر كذبه وقد يكون في بعضها علة تدل على أنه ضعيف بل باطل لكن غالبها وجمهورها أحاديث جيدة يحتج بها وهي أجود من أحاديث سنن أبي داود و أما ما رواه في الفضائل فليس من هذا الباب عنده والحديث قد يعرف أن محدثه غلط فيه أو كذبه من غير علم بحال المحدث بل بدلائل آخر والكوفيون كان قد اختلط كذبهم بصدقهم فقد يخفى كذب أحدهم أو غلطه على المتأخرين ولكن يعرف ذلك بدليل آخر فكيف وهذا الحديث لم يروه أحمد لا في المسند ولا في كتاب الفضائل وإنما هو من زيادات القطيعى رواه عن محمد بن يونس القرشي حدثنا الحسن بن محمد الأنصاري حدثنا عمرو بن جميع حدثنا بن أبي ليلى عن أخيه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره ورواه القطيعي أيضا من طريق آخر قال كتب إلينا عبد الله بن غنام الكوفي يذكر أن الحسن بن عبد الرحمن بن أبي ليلى المكفوف حدثهم قال حدثنا عمرو بن جميع حدثنا محممد بن أبي ليلى عن عيسى ثم ذكر الحديث وعمرو بن جميع ممن لا يحتج بنقله بل قال بن عدي يتهم بالوضع قال يحيى كذاب خبيث وقال النسائي والدار قطني متروك وقال بن حبان يروي الموضوعات عن الإثبات والمناكير عن المشاهير لا يحل كتب حديثه إلا على سبيل الاعتبار الثاني أن هذا الحديث موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالث أن في الصحيح من غير وجه تسميه غير علي صديقا كتسمية أبي بكر الصديق فكيف يقال الصديقون الثلاثة وفي الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحدا وتبعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق وشهيدان ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد عن قتادة عن أنس وفي رواية ارتج بهم أحد وفي الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا الوجه الرابع أن الله تعالى قد سمى مريم صديقة فكيف يقال الصديقون ثلاثة الوجه الخامس أن قول قول القائل الصديقون ثلاثة أن أراد به أنه لا صديق إلا هؤلاء فإنه كذب مخالف للكتاب والسنة و إجماع المسلمين وأن أراد أن الكامل في الصديقية هم الثلاثة فهو أيضا خطا لأن امتنا خير أمة أخرجت للناس فكيف يكون المصدق بموسى ورسل عيسى أفضل من المصدقين بمحمد والله تعالى لم يسم مؤمن آل فرعون صديقا ولا يسمى صاحب آل ياسين صديقا ولكنهم صدقوا بالرسل والمصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل منهم وقد سمى الله الأنبياء صديقين في مثل قوله {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً }مريم٤١ {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ

كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً }مريم٥٦ وقوله عن يوسف { أَيُّهَا الصِّدِّيقُ }يوسف٤٦ الوجه السادس أن الله تعالى قال {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ } الحديد١٩ وهذا يقتضي أن كل مؤمن آمن بالله ورسله فهو صديق السابع أن يقال أن كان الصديق هو الذي يستحق الإمامة فأحق الناس بكونه صديقا أبو بكر فإنه الذي ثبت له هذا الاسم بالدلائل الكثيرة وبالتواتر الضروري عند الخاص والعام حتى أن أعداء الإسلام يعرفون ذلك فيكون هو المستحق للإمامة وأن لم يكن كونه صديقا يستلزم الإمامة بطلت الحجة [١]

نص عام في المؤمنين

قال تعالى {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }التحريم٨ وقوله {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }الحديد١٢ نص عام في المؤمنين الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم وسياق الكلام يدل على عمومه والآثار المروية في ذلك تدل على عمومه قال ابن عباس ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورا يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره يوم القيامة والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق فهو يقول ربنا أتمم لنا نورنا [٢]

الوعد بالجنة علق باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ }التوبة٧٢ وقوله{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}الحديد١٩ فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة٢٧٧ الآيات فى هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٢٢-٢٢٨

[٢] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٥٧

الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ }المرسلات٤١ وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }المطففين٢٢ وباسم أولياء الله كقوله { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} يونس٦٢-٦٤ فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان [1]

أساس الطريق الارادة

الزهد خلاف الرغبة يقال فلان زاهد فى كذا وفلان راغب فيه و الرغبة هى من جنس الإرادة فالزهد فى الشيء إنتفاء الإرادة له أما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ولا كارها له وكل من لم يرغب فى الشيء ويريده فهو زاهد فيه وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه ولهذا كان أساس الطريق الإرادة كما قال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الأنعام٥٢ وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء١٩ ونظائرة متعددة كما رغب فى الزهد وذم ضده في قوله {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ{١٥} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ{١٦} هود١٥-١٦ وقال تعالى{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{١} التكاثر ١ السورة و قال تعالى {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً {١٩} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{٢٠}الفجر١٩ -٢٠ وقال { إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{٦} وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ{٧} وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{٨} العاديات ٦-٨ وقال تعالى { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} الحديد٢٠ وهذا باب واسع وإنما المقصود هنا تميز الزهد الشرعى من غيره وهو الزهد المحمود وتميز الرغبة الشرعية من غيرها وهى الرغبة المحمودة فإنه كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذى ضل سعى صاحبه [2]

أن هذه الأمر فيها من التنعم باللذة والسرور في الدنيا ما لا نزاع فيه ولهذا قال تعالى {ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ } غافر٧٥ وقال تعالى { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا }الأحقاف٢٠ وقال تعالى {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً }المزمل١١ وقال تعالى{ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ }الحجر٣ وقال تعالى { وَما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:٦١٦- ٦١٧ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٥١

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }آل عمران١٨٥ { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}الحديد٢٠ وهذا أمر محسوس[1]

جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم

قال تعالى{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}الحديد٢٠ و قد جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم فقال {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ }هود١٠٠ و قال { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{٤} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{٥} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{٦} فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{٧} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ{٨}التين ٤ـ٨ فقوله { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{٤} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{٥} الاعلى٤ـ٥هو مثل للحياة الدنيا و عاقبة الكفار و من إغتر بالدنيا فإنهم يكونون فى نعيم و زينة و سعادة ثم يصيرون إلى شقاء فى الدنيا و الآخرة كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى[2]

المؤمنون فى كل زمان هم أهل الجنة والسعادة

قال تعالى{ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }الحديد٢١ فمن الناس من آمن بالله ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله وأطاعهم فيما أمروا به وهؤلاء هم المؤمنون فى كل وقت وزمان وهم أهل الجنة والسعادة[3]

والعذاب انما اعد للكافرين فان جهنم لهم خلقت لانهم لابد ان يدخلوها وما هم منها بمخرجين واهل الكبائر من المؤمنين يجوز ان لا يدخلوها اذا غفر الله لهم وإذا دخلوها فانهم يخرجون منها ولو بعد حين قال سبحانه {وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }آل عمران١٣١ وهذا كما ان الجنة { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ{١٣٣} الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء {١٣٤}ال عمران ١٣٣ـ١٣٤ وان كان يدخلها الابناء بعمل ابائهم ويدخلها قوم بالشفاعة وقوم بالرحمة وينشيء الله لما فضل منها خلق اخر في الدار الاخرة فيدخلهم اياها وذلك لان الشيء انما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ولمن هو اولى الناس به ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبع او لسبب اخر[4]

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٦٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٥٣

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٣٤

[4] الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١١٢

الايمان الواجب الذي يستحق به الجنة

أما أهل السنة فقد يقول بعضهم (ان الايمان) هو منقول كالأسماء الشرعية من الصلاة والزكاة وقد يقول بعضهم بل هو متروك على ما كان وزادت عليه الشريعة أشياء ومنهم من يقول بل هو باق على أصله من التصديق مع دخول الأعمال فيه فإن الأعمال داخلة في التصديق فالمؤمن يصدق قوله بعمله كما قال الحسن البصري ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ومنه قول النبي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ومنهم من يقول ليس الايمان في اللغة هو التصديق بل هو الاقرار وهو في الشرع الاقرار أيضا والاقرار يتناول القول العمل وليس هذا موضع بسط ذلك فقد بسطته في غير هذا الموضع وإذا عرف مسمى الايمان فعند ذكر استحقاق الجنة والنجاة من النار وذم من ترك بعضه ونحو ذلك يراد به الايمان الواجب كقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }الحجرات١٥ وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }الأنفال٢ الآية وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ }النور٦٢ وقوله في الجنة { أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ }الحديد٢١ وقوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فنفي عنه الايمان الواجب الذي يستحق به الجنة ولا يستلزم ذلك نفي أصل الايمان وسائر اجزائه وشعبه وهذا معنى قولهم نفي كمال الايمان لا حقيقته أي الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحب المذكور في قول الفقهاء الغسل كامل ومجزىء ومن هذا الباب قوله من غشنا فليس منا ليس المراد به أنه كافر كما تأولته الخوارج ولا أنه ليس من خيارنا كما تأولته المرجئة ولكن المضمر يطابق المظهر والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب السالمون من العذاب والغاش ليس منا لأنه متعرض لسخط الله وعذابه وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الايمان الواجب لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم مثل أن لا تبلغه الرسالة أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأمورا بما يعجز عنه ولم يكن ذلك من الايمان والدين الواجب في حقه وإن كان من الدين والايمان الواجب في الأصل بمنزلة صلاة المريض والخائف والمستحاضة وسائر أهل الاعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا إذ ذاك وإن كانت صلاة القادر على الاتمام أكمل وأفضل كما قال النبي المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف في كل خير رواه مسلم عن أبي هريرة في حديث حسن السياق وقوله صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم وصلاة النائم على النصف من صلاة القاعد ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الايمان به علما واعتقادا دون العمل [١]

المسارعة إلى الخيرات مأمور بها

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص:٤٧٨- ٤٧٩

إن الأصل في الصلاة في أول الوقت افضل من آخره ألا لمعنى يقتضي استحباب التأخير لأن الله تعالى قال { فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ }البقرة١٤٨ و قال تعالى {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ }آل عمران١٣٣ و قال تعالى { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }الحديد٢١ و قال تعالى {أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }المؤمنون٦١ و قال {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ }الواقعة١٠ أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الجنة و قال تعالى { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ }فاطر٣٢ و قال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ }التوبة١٠٠ و قال عن نبيه موسى { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى }طه٨٤ و هذه الآيات تقتضي إن المسارعة إلى الخيرات مأمور بها و إن فاعلها مستوجب لثناء الله و رضوانه و لذلك يقتضي الاستباق إلى الخيرات و إلى أسباب المغفرة أمرا بها و ثناء على أهلها و تفضيلا لهم على غيرهم و الصلاة من افضل الخيرات و اعظم أسباب المغفرة و عن محمد ابن عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن النبي صلى الله عليه و سلم قال ثلاث يا علي لا تؤخرهن الصلاة إذا أتت و الجنازة إذا حضرت و الايم إذا وجدت لها كفؤا [1]

السعداء هم الذين اتبعوا الرسل

القرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ولا يكون الكامل إلا سعيدا وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل وقد قال تعالى في حق السعداء {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }الحديد٢١ فبين أن الجنة أعدت للذين آمنوا بالله ورسله[2]

لطائف لغوية

١-قال تعالى{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد١٦ و الخشوع يتضمن معنيين أحدهما التواضع والذل والثانى السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافى للقسوة فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته [3]

٢-قال تعالى{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}الحديد١٧

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ١٩١

[2] الصفدية ج: ٢ ص: ٢٤٦

[3] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨-٣٣

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١

الحديد ٢٢-٢٤

{ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{٢٤}

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا }

الله سبحانه قدر و كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنةوكان عرشه على الماء و فى البخاري عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه و سلم قال كان الله و لم يكن شيء قبله و كان عرشه على الماء و كتب فى الذكر كل شيء و خلق السموات و الأرض و فى رواية ثم خلق السموات و الأرض فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة كما فى السنن عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال أكتب فقال ما أكتب فقال أكتب ما يكون إلى يوم القيامة و أحاديث تقديره سبحانه و كتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جدا روى إبن أبي حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }القمر ٤٩ فقال قال إبن عباس إن الله قدر المقادير بقدرته و دبر الأمور بحكمته و علم ما العباد صائرون إليه و ما هو خالق و كائن من خلقه فخلق الله لذلك جنة و نارا فجعل الجنة لأوليائه و عرفهم و أحبهم و تولاهم و وفقهم و عصمهم و ترك أهل النار إستحوذ عليهم إبليس و أضلهم و أزلهم فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه ما يصلحه من رزقه في بر أو فى بحر فجعل للبعير خلقا لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب و كذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها فى خلقها فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف قال إبن أبي حاتم ثنا أبى ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز نا حبان بن عبيدالله قال سألت الضحاك عن هذه الآية {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }القمر ٤٩ قال الضحاك قال ابن عباس فذكره و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا طلحة بن سنان عن عاصم عن الحسن قال من كذب بالقدر فقد كذب بالحق خلق الله خلقا و أجل أجلا و قدر رزقا و قدر مصيبة و قدر بلاء و قدر عافية فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن و قال حدثنا الحسن بن عرفة ثنا مروان بن شجاع الجزري عن عبد الملك بن جريح عن عطاء بن أبى رباح قال أتيت إبن عباس و هو ينزع من زمزم و قد إبتلت أسافل ثيابه فقلت له قد تكلم فى القدر فقال أو قد فعلوها قلت نعم قال فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ{٤٨} إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ{٤٩}القدر ٤٨-٤٩ أولئك شرار هذه الأمة فلا تعودوا مرضاهم و لا تصلوا على موتاهم إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين و قال

أيضا حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا سهل الخياط ثنا أبو صالح الحداني نا حبان بن عبيدالله قال سألت الضحاك عن قوله {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣}الحديد٢٢-٢٣ قال قال ابن عباس إن الله خلق العرش فإستوى عليه ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه و عظم القلم كقدر ما بين السماء و الأرض فقال القلم بما يا رب أجرى فقال بما أنا خالق و كائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر يعنى به العمل أو رزق أو أجل فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فأثبته الله في الكتاب المكنون عنده تحت العرش[1]

قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }القمر٤٩ وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما فى قوله {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{١٧٣}الصافات١٧١-١٧٣ وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه كما قال {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحج٧٠ قال ابن عباس إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك فى قوله {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحج٧٠ وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحديد٢٢ وقال للملائكة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة٣٠ فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء فكيف لا يعلمه الله سواء علموه بإعلام الله فيكون هو أعلم بما علمهم إياه كما قاله أكثر المفسرين أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم كما قاله طائفة منهم أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لا علم لهم إلا ما علمهم وما اوحاه إلى أنبيائه وغيرهم مما سيكون هو أعلم به منهم فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء[2]

الإيمان بالقدر

وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر الإيمان بأن الله تعالى عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣}الحديد٢٢-٢٣ وهذا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٣٦-١٣٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٨١-٣٨٢

التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء وإذا خلق جسد الجنين قبل خلق الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ونحو ذلك[1]

و التوحيد فى العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحج٧٠ وفى الصحيح عن النبى أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه[2]

الإيمان بالقدر على درجتين

تؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له أكتب قال ما أكتب قال أكتب ما هو كائن الى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال سبحانه وتعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحج٧٠ وقال{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣}الحديد٢٢-٢٣ وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء واذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ونحو ذلك فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكره اليوم قليل وأما الدرجة الثانية فهو مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما فى السموات والارض من حركة ولا سكون إلا بمشية الله سبحانه لا يكون فى ملكه إلا ما يريد وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق فى الارض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه[3]

---

[1] العقيدة الواسطية ج: ١ ص: ٣٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٨٩

[3] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٤٩

من تاب من ذنبه أشبه أباه آدم ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس

كثير من الرجال غلطوا فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل في حكم ربوبيته ومقتضي مشيئته فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام١٤٨ وقالوا { أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ }يس٤٧ {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم }الزخرف٢٠ ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به ونصبر على موجبه في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن١١ قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣}الحديد٢٢-٢٣ وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال احتج آدم وموسى فقال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا علي قبل أن أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لإبليس وقوم نوح وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة إجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدرا وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضا ب الله ربا وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }غافر٥٥ وقال تعالى { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً }آل عمران١٢٠ وقال { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }آل عمران١٨٦ وقال يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف٩٠ وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر بحسب قدرته يجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله ويحب في الله ويبغض في الله كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ }الممتحنة١ إلى قوله {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ }الممتحنة٤ وقال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ }المجادلة٢٢ إلى قوله { أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}المجادلة٢٢ وقال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ }القلم٣٥ وقال {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص٢٨ وقال تعالى أم {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية٢١ وقال تعالى{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {١٩} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {٢٠} وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ {٢١} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ {٢٢} فاطر ١٩-٢٢ وقال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً }الزمر٢٩وقال تعالى {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ

}النحل٧٥ إلى قوله { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٧٥} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ } النحل ٧٦ إلى قوله {وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٧٦} النحل ٧٦ وقال تعالى {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ }الحشر٢٠ ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل وأهل الطاعة وأهل المعصية وأهل البر وأهل الفجور وأهل الهدى والضلال وأهل الغي والرشاد وأهل الصدق والكذب فمن شهد الحقيقة الكونية دون الدينية سوى بين هذه الأجناس المختلفة التي فرق الله بينها غاية التفريق حتى يؤول به الأمر إلى أن يسوي الله بالأصنام كما قال تعالى عنهم { تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٩٧} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٩٨} الشعراء٩٧-٩٨ بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقا لكل موجود إذ جعلوه هو وجود المخلوقات وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد لا بمعنى أنهم معبدون و لا بمعنى أنهم عابدون إذ يشهدون أنفسهم هي الحق كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله من الملحدين المفترين كابن سبعين وأمثاله ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون وهذا ليس بشهود لحقيقة لا كونية ولا دينية بل هو ضلال وعمي عن شهود الحقيقة الكونية حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتا للخالق والمخلوق إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم وأما المؤمنون ب الله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم أهل الكتاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن أهلين من الناس قيل من هم يا رسول الله قال أهل القرآن هم أهل الله وخاصته فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوق ليس هو حالا فيه ولا متحدا به ولا وجوده وجوده و النصارى كفرهم الله بأن قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة فكيف من جعل ذلك عاما في كل مخلوق ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله وأنه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وأن على الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره ويستعينوا به على ذلك كما قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة٥ [1]

المؤمن مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب لا عند الذنوب

المؤمن مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعاصي فيصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ } غافر٥٥ وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الحديد٢٢-٢٣ وقال {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } التغابن١١ قال ابن مسعود رضي الله عنه هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ولهذا قال غير واحد من السلف والصحابة والتابعين لهم بإحسان لا يبلغ الرجل حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم يكن ليصيبه فالإيمان بالقدر والرضا بما قدره الله من المصائب والتسليم لذلك هو من حقيقة الإيمان وأما الذنوب فليس لأحد

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦٧-٣٦٨ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٦١- ١٦٢

أن يحتج فيها بقدر الله تعالى بل عليه أن لا يفعلها وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها كما فعل آدم ولهذا قال بعض الشيوخ اثنان أذنبا ذنبا آدم وإبليس فآدم تاب فتاب الله عليه واجتباه وهداه وإبليس أصر واحتج بالقدر فمن تاب من ذنبه أشبه أباه آدم ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس [١]

العبد له في المقدور حالان

كل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون و لا ينفع فما لا يكون به لا يكون و ما لا يكون له لا ينفع و لا يدوم فلذلك أمر العبد أن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة٥ والعبد له في المقدور حالان حال قبل القدر و حال بعده فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله و يتوكل عليه و يدعوه فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به و إن كان بفعله و هو نعمة حمد الله على ذلك و إن كان ذنبا إستغفر إليه من ذلك وله في المأمور حالان حال قبل الفعل و هو العزم على الإمتثال و الإستعانة بالله على ذلك و حال بعد الفعل و هو الأستغفار من التقصير و شكر الله على ما أنعم به من الخير و قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} غافر٥٥ أمره أن يصبر على المصائب المقدرة و يستغفر من الذنب و إن كان إستغفار كل عبد بحسبه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين و قال تعالى { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ } آل عمران١٨٦ و قال يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف٩٠ فذكر الصبر على المصائب و التقوى بترك المعائب و قال النبى صلى الله عليه و سلم إحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر و لا يتحسر على الماضي بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالنظر إلى القدر عند المصائب و الإستغفار عند المعائب قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣} الحديد٢٢ -٢٣ و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} التغابن١١ قال علقمة و غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و الله سبحانه و تعالى أعلم [٢]

خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب

خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ } غافر٥٥ وقال تعالى { مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣} الحديد٢٢-٢٣ وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن

---

[١] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٦

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٧٦- ٧٧

مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن١١ قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم قال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }آل عمران١٣٥ وقد ذكر الله تعالى عن ادم عليه السلام انه لما فعل من فعل قال {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }الأعراف٢٣ وعن ابليس انه قال { بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }الحجر٣٩ فمن تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس[1]

العباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم

قال تعالى{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣}الحديد٢٢-٢٣ ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى{ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{٢٨} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٢٩} التكوير٢٩ وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبى مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته وإختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها[2]

الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صبارا شكورا

أن الله رب كل شيء و خالقه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له فنقول إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية و يستعينه على طاعته أعانه و هداه و كان ذلك سبب سعادته فى الدنيا و الآخرة و إذا خذل العبد فلم يعبد الله و لم يستعن به و لم يتوكل عليه و كل الى حوله و قوته فيوليه الشيطان و صد عن السبيل و و شقي فى الدنيا و الآخرة و كل ما يكو ن في الوجو د هو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٠٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٤٩

بقضاء الله و قدره لا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ ليس لأحد على الله حجة بل { فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }الأنعام١٤٩ كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله فالإيمان به هدى و الإحتجاج به على الله ضلال وغي بل الإيمان بالقدر يو جب أن يكون العبد صبارا شكورا صبورا على البلاء شكورا على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سو اء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيرا حصل بسبب سعيها فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات و هو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد فى ذلك كله و إذا أصابته مصيبة صبر عليها و إن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره فالله هو الذي سلط ذلك الشخص و هو الذي خلق أفعاله و كانت مكتوبة على العبد كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣}الحديد٢٢-٢٣ و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن١١ قالو ا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و عليه إذا أذنب أن يستغفر و يتو ب و لا يحتج على الله بالقدر و لا يقو ل أي ذنب لي و قد قدر علي هذا الذنب بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب و إن كان ذلك كله بقضاءالله و قدره و مشيئته إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته و قدرته و خلقه لكن العبد هو الذي أكل الحرام و فعل الفاحشة و هو الذي ظلم نفسه كما أنه هو الذي صلى و صام و حج و جاهد فهو الموصوف بهذه الأفعال وهو المتحرك بهذه الحركات و هو الكاسب بهذه المحدثات له ما كسب و عليه ما إكتسب و الله خالق ذلك و غيره من الأشياء لما له فى ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة و مشيئته النافذة قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }غافر٥٥ فعلى العبد أن يصبر على المصائب و أن يستغفر من المعائب و الله تعالى لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر و لايحب الفساد و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و مشيئة العبد للخيرو الشر موجودة فإن العبد له مشيئة للخير و الشر وله قدرة على هذا و هذا و هو العامل لهذا و هذا و الله خالق ذلك كله و ربه و مليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و قد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد و بين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب فى قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{٢٩} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{٣٠} الانسان ٢٩-٣٠ و قال تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٢٧} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{٢٨} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{٢٩} التكوير٢٧-٢٩ و قد قال تعالى { أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{٧٨} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{٧٩}النساء٧٨-٧٩ [1]

القدر يؤمن به ولا يحتج به

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٣٦-٢٣٨

القدر يؤمن به ولا يحتج به بل العبد مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب ويستغفر الله عند الذنوب والمعايب كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر٥٥ ولهذا حج آدم موسى عليهما السلام لما لام موسى آدم لأجل المصيبة التي حصلت لهم بأكله من الشجرة فذكر له آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فحج آدم موسى كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣} الحديد٢٢-٢٣ وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } التغابن١١ قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم فهذا وجه احتجاج آدم بالقدر ومعاذ الله أن يحتج آدم أو من هو دونه من المؤمنين على المعاصي بالقدر فإنه لو ساغ هذا لساغ أن يحتج إبليس ومن اتبعه من الجن والإنس بذلك ويحتج به قوم نوح وعاد وثمود وسائر أهل الكفر والفسوق والعصيان ولم يعاقب ربنا أحدا وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار شرعا وعقلا فإن هذا القول لا يطرده أحد من العقلاء فإن طرده يوجب أن لا يلام أحد على شيء ولا يعاقب عليه وهذا المحتج بالقدر لو جنى عليه جان لطالبه فإن كان القدر حجة فهو حجة للجاني عليه وإلا فليس حجة لا لهذا ولا لهذا ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا لم يمكن للناس أن يعيشوا إذ كان لكل من اعتدى عليهم أن يحتج بذلك فيقبلوا عذره ولا يعاقبوه ولا يمكن اثنين من أهل هذا القول أن يعيشا إذ لكل منهما أن يقتل الآخر ويفسد جميع أموره محتجا على ذلك بالقدر[١]

الصبر صبران

الشجاعة ليست هي قوة البدن فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب وانما هي قوة القلب وثباته فأن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال وعلى قوة القلب وخبرته به والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد وقد تقدم ان جماع ذلك هو الصبر فإنه لا بد منه والصبر صبران صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة كما قال الحسن رحمه الله ما تجرع عبد جرعة اعظم من جرعة حلم عند الغضب وجرعة صبر عند المصيبة وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم وهذا هوالشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم والمؤلم ان كان مما يمكن دفعه اثار الغضب وان كان مما لا يمكن دفعه اثار الحزن ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز ولهذا جمع النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما تعدون الرقوب فيكم قالوا الرقوب الذي لا يولد له قال ليس ذاك بالرقوب ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا ثم قال ماتعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا يصرعه الرجال فقال

---

[١] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٦٢

ليس بذلك ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النعمة كما في قوله تعالى {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }الحديد٢٣ وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين حيث قال ليسوا مفاريح ان نالت رماحهم كثرا وليسوا مجازيعا اذا نيلوا وكذلك قال حسان بن ثابت في صفة الانصار لا فخر ان هم اصابوا من عدوهم وان اصيبوا فلا خور ولا هلع وقال بعض العرب في صفة النبي صلى الله عليه وسلم يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ولما كان الشيطان يدعوالناس عند هذين النوعين الى تعدي الحدود بقلوبهم واصواتهم وايديهم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال لما قيل له لما رأى ابراهيم في النزع أتبكي او لم تنه عن البكاء فقال انما نهيت عن صوتين احمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية فجمع بين الصوتين وأما نهيه عن ذلك في المصائب فمثل قوله صلى الله عليه وسلم ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى والشاقة وقال ما كان من العين والقلب فمن الله وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان وقال ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب ولكن يعذب بهذا او يرحم واشار الى لسانه وقال من ينح عليه فانه يعذب بما نيح عليه واشترط على النساء في البيعة الا ينحن [1]

لا يأسوا على ما فاتهم من الدنيا

قال تعالى{ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }الحديد٢٣
فقد دعا الناس إلى أن لا يأسوا على ما فاتهم من الدنيا [2]

الحزن قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين

هذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين كقوله تعالى {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران١٣٩ وقوله {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }النمل٧٠ وقوله { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ وقوله {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ }يونس٦٥ وقوله { لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ }المائدة٤١ وقوله وأمثال ذلك كثير وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم وأشار بيده إلى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ومنه قوله تعالى يوسف فتولى

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ٢٧٤-٢٧٨ و مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٦٠

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٤٦٠

عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ويكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة منهى عنها وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن وأما إن أفضى إلىضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وإن كان محمودا من جهة أخرى وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وإنما يخرج عنها كافر ومنافق وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه[1]

القرآن بعضه يفسر بعضا

قوله تعالى { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} الهمزة١ هو الطعان العياب كما قال{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ }القلم١١ و قال {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ}التوبة٥٨ و قال {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }التوبة٧٩ و الهمز أشد لأن الهمز الدفع بشدة و منه الهمزة من الحروف و هي نقرة في الحلق و منه {وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ }المؤمنون٩٧ و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه و قال همزه الموتة و هى الصرع فالهمز مثل الطعن لفظا و معنى و اللمز كالذم و العيب و إنما ذم من يكثر الهمز و اللمز فإن الهمزة و اللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيرا و الهمزة و اللمزة الذي يفعل ذلك به كما فى نظائره مثل الضحكة و الضحكة و اللعبة و اللعبة وقوله {الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ }الهمزة٢ و صفه بالطعن فى الناس و العيب لهم و بجمع المال و تعديده و هذا نظير قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ {٣٧}النساء ٣٦-٣٧ { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ {٢٤} الحديد ٢٣-٢٤ في النساء و الحديد فإن الهمزة اللمزة يشبه المختال الفخور و الجماع المحصي نظير البخيل و كذلك نظيرهما قوله { هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ{١١} مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{١٢} عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ{١٣}القلم١١-١٣ و صفه بالكبر و البخل و كذلك قوله {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى }الليل٨ فهذه خمس مواضع و ذلك ناشيء عن حب الشرف و المال فإن محبة الشرف تحمل إنتقاص غيره بالهمز و اللمز و الفخر و الخيلاء و محبة المال تحمل على البخل و ضد ذلك من أعطى فلم يبخل و إتقى فلم يهمز و لم يلمز و أيضا فإن المعطى نفع الناس و المتقى لم يضرهم فنفع و لم يضر و أما المختال الفخور البخيل فإنه ببخله منعهم الخير و بفخره سامهم الضر فضرهم و لم ينفعهم و كذلك الهمزة الذي جمع مالا و نظيره

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٦ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٢-٤٣ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٦-١٧ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٢-٤٣

قارون الذي جمع مالا و كان من قوم موسى فبغى عليهم و من تدبر القرآن و جد بعضه يفسر بعضا [1]

التصور الباطل

يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق و الاقرار به و سبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام و الاستماع التام لآيات الحق وأعلامه وسبب عدم النظر والاستماع إما عدم المقتضى فيكون عدما محضا وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد فى النفس {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}الحديد٢٣ و هو تصور باطل و سببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل [2]

الزهد المشروع

الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع فى الدار الآخر وثقة القلب بما عند الله كما فى الحديث الذى فى الترمذى ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعه المال ولكن الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق بما فى يدك وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك لأن الله تعالى يقول {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}الحديد٢٣ فهذا صفة القلب وأما فى الظاهر فترك الفضول التى لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك كما قال الإمام أحمد إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وصبر أيام قلائل
جماع ذلك خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان يقول خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وكان عادته فى المطعم أنه لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك وكان القطن أحب اليه وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدى فيزيد فى الزهد أو العبادة على المشروع فيقول أينا مثل رسول الله يغضب لذلك ويقول والله إنى لأخشاكم لله وأعلمكم بحدود الله تعالى وبلغه أن بعض أصحابه قال أما أنا فأصوم فلا أفطر وقال الآخر أما أنا فأقوم فلا أنام وقال آخر أما أنا فلا أتزوج النساء وقال آخر أما أنا فلا آكل اللحم فقال لكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ولا هو من دين الأنبياء بل قد قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً}الرعد٣٨ والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبا تارة ومستحبا أخرى فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٥٢١- ٥٢٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٦

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٤١ و الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٧٣

تكره الشهرة من الثياب

قال تعالى{ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} الحديد٢٣
فإن النبى قال إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمه عليه وقال إن الله جميل يحب الجمال ومن ترك لبس الرفيع من الثياب تواضعا لله لا بخلا ولا إلتزاما للترك مطلقا فإن الله يثيبه على ذلك ويكسوه من حلل الكرامة وتكره الشهرة من الثياب وهو المترفع الخارج عن العادة والمتخفض الخارج عن العادة فإن السلف كانوا يكرهون الشهرتين المترفع والمتخفض وفى الحديث من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة وخيار الأمور أوساطها والفعل الواحد فى الظاهر يثاب الإنسان على فعله مع النية الصالحة ويعاقب على فعله مع النية الفاسدة فمن حج ماشيا لقوته على المشي وآثر بالنفقة كان مأجورا أجرين أجر المشى وأجر الإيثار ومن حج ماشيا بخلا بالمال إضرارا بنفسه كان آثما إثمين إثم البخل وإثم الإضرار ومن حج راكبا لضعفه عن المشى وللإستعانة بذلك على راحته ليتقوى بذلك على العبادة كان مأجورا أجرين ومن حج راكبا يظلم الجمال والحمال كان آثما إثمين وكذلك اللباس فمن ترك جميل الثياب بخلا بالمال لم يكن له أجر ومن تركه متعبدا بتحريم المباحات كان آثما ومن لبس جميل الثياب إظهارا لنعمة الله وإستعانة على طاعة الله كان مأجورا ومن لبسه فخرا وخيلاء كان آثما فإن الله لا يحب كل مختال فخور ولهذا حرم إطالة الثوب بهذه النية كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله يوم القيامة إليه فقال أبوبكر يا رسول الله إن طرف إزارى يسترخى إلا أن أتعاهد ذلك منه فقال يا أبا بكر إنك لست ممن يفعله خيلاء وفى الصحيحين عن النبى أنه قال بينما رجل يجر إزاره خيلاء إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة فهذه المسائل ونحوها تتنوع بتنوع علمهم وإعتقادهم والعبد مأمور أن يقول فى كل صلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ والله سبحانه وتعالى أعلم[1]

من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة

قال تعالى{ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} الحديد٢٣
و يكره إسبال القميص و نحوه إسبال الرداء و إسبال السراويل و الإزار و نحوهما إذا كان على وجه الخيلاء و أطلق جماعة من أصحابنا لفظ الكراهة و صرح غير واحد منهم بان ذلك حرام و هذا هو المذهب بلا تردد قال أبو عبد الله لم احدث عن فلان كان سراويله شراك نعله و قال ما اسفل من الكعبين في النار و السراويل بمنزلة الإزار لا يجر شيئا من ثيابه فأما إن كان على غير وجه الخيلاء بل كان على علة أو حاجة أو لم يقصد الخيلاء و التزين بطول الثوب و لا غير ذلك فعنه أنه لا بأس به و هو اختيار القاضي و غيره و قال في رواية حنبل جر الإزار و إرسال الرداء في الصلاة إذا لم يرد الخيلاء لا بأس به و قال ما اسفل من الكعبين في النار و السراويل بمنزلة الرداء لا يجر شيئا من ثيابه و من أصحابنا من قال لا يحرم إذا لم يقصد به الخيلاء لكن يكره و ربما يستدل بمفهوم كلام احمد في رواية ابن الحكم في جر القميص و الإزار و الرداء سواء إذا جره لموضع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٣٨-١٣٩

الحسن ليتزين به فهو الخيلاء وأما إن كان من قبح في الساقين كما صنع ابن مسعود أو علة أو شيء لم يتعمده الرجل فليس عليه من جر ثوبه خيلاء فنفى عنه الجر خيلاء فقط و الأصل في ذلك قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً }النساء٣٦ و قوله تعالى {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }لقمان١٨ و قال سبحانه و {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ }الأنفال٤٧ فذم الله سبحانه و تعالى الخيلاء و المرح و البطر و إسبال الثوب تزينا موجب لهذه الأمور و صادر عنها و عن ابن عمر رضي الله عنهما إن النبي صلى الله عليه و سلم قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقال أبو بكر إن أحد شقي إزاري يسترخي ألا إن أتعاهد ذلك منه فقال انك لست ممن يفعل ذلك خيلاء متفق عليه و عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة رواه البخاري و عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال الإسبال في الإزار و القميص و العمامة من جر شيئا خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة رواه أبو داود و النسائي و ابن ماجة و عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا متفق عليه و في رواية لأحمد و البخاري ما اسفل من الكعبين من الإزار في النار و عن أبي هريرة قال بينما رجل يصلي مسبلا إزاره فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم اذهب فتوضأ فذهب فتوضا ثم جاء ثم قال اذهب فتوضا فقال له الرجل يا رسول الله مالك أمرته إن يتوضأ ثم سكت عنه قال أنه كان يصلي و هو مسبل إزاره و إن الله لا يقبل صلاة رجل مسبلا رواه أبو داود[١]

جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل

قال تعالى { إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً {٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦ -٣٧ وقال تعالى { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٢٤}الحديد٢٣-٢٤ فى النساء و فى الحديد أنه لايحب كل مختال فخور الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل قد تؤولت فى البخل بالمال و المنع و البخل بالعلم و نحوه و هي تعم البخل بكل ما ينفع فى الدين و الدنيا من علم و مال و غير ذلك كما تأولوا قوله { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }البقرة٣ النفقة من المال و النفقة من العلم و قال معاذ فى العلم تعلمه لمن لا يعلمه صدقه و قال أبو الدرداء ماتصدق رجل بصدقه أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون و قد نفعهم الله بها أو كما قال و فى الأثر نعمة العطية و نعمت الهدية الكلمة من الخبر يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له أو كما قال وهذه صدقة الأنبياء و ورثتهم العلماء و لهذا كان الله و ملائكته و حيتان البحر و طير الهواء يصلون على معلم الناس الخير كما أن كاتم العلم يلعنه الله و يلعنه اللاعنون و بسط هذا كثير فى فضل بيان العلم و ذم ضده والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به فالبخيل به الذي منعه و المختال إما أن يختال فلا يطلبه و لا يقبله و اما ان يختال على بعض الناس فلا يبذله و هذا كثيرا ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم و يختال به و أنه يختال عن أن يتعدى من غيره و ضد ذلك التواضع فى طلبه و بذله و التكرم بذلك و قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء و الفخر و بين البخل كما فى قوله { إِنَّ اللَّهَ

[١] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٣٦٢-٣٦٣

لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً {٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦ -٣٧
{ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٢٤}الحديد٢٣-٢٤
في النساء و الحديد و ضد ذلك الاعطاء و التقوى المتضمنة للتواضع كما قال {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى }الليل٥ و قال {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ و هذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال التعظيم لأمر الله و الرحمة لعباد الله فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع و التواضع و ذلك اصل التقوى و الرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم و هذان هما حقيقة الصلاة و الزكاة فان الصلاة متضمنة للخشوع لله و العبودية له و التواضع له و الذل له و ذلك كله مضاد للخيلاء و الفخر و الكبر و الزكاة متضمنه لنفع الخلق و الاحسان إليهم و ذلك مضاد للبخل ولهذا و غيره كثر القرآن بين الصلاة و الزكاة في كتاب الله وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكرا لله أو دعاء له كما قال عبد الله بن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت فى صلاة و لو كنت فى السوق و هذا المعنى و هو دعاء الله أي قصده و التوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة كصلاة القائم و القاعد و المضطجع و القارىء و الأمي و الناطق و الأخرس و ان تنوعت حركاتها و ألفاظها فإن اطلاق لفظ الصلاة على مواردها هو بالتواطئ المنافى للاشتراك و المجاز و هذا مبسوط في غير هذا الموضع إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك و منهم من ادعى المجاز بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي أو مزيدة أو على غير ذلك و ليس الأمر كذلك بل اسم الجنس العام المتواطئ المطلق إذا دل على نوع أو عين كقولك هذا الانسان و هذا الحيوان أو قولك هات الحيوان الذي عندك و هى غنم فهنا اللفظ قد دل على شيئين على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد و على ما يختص به هذا النوع أو العين فاللفظ المشترك الموجود فى جميع التصاريف على القدر المشترك و ما قرن باللفظ من لام التعريف مثلا أو غيرها دل على الخصوص و التعيين كما أن المعنى الكلى المطلق لا وجود له فى الخارج فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة فان الكلام انما يفيد بعد العقد و التركيب و ذلك تقييد و تخصيص كقولك اكرم الانسان أو الانسان خير من الفرس و مثله قوله {أَقِمِ الصَّلاَةَ }هود١١٤ و نحو ذلك و من هنا غلط كثير من الناس فى المعانى الكلية حيث ظنوا و جودها في الخارج مجردة عن القيود و في اللفظ المتواطىء حيث ظنوا تجرده فى الاستعمال عن القيود و التحقيق أنه لايوجد المعنى الكلي المطلق فى الخارج إلا معينا مقيدا و لا يوجد اللفظ الدال عليه فى الاستعمال إلا مقيدا مخصصا و إذا قدر المعنى مجردا كان محله الذهن و حينئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود فى الاستعمال مجردا و المقصود هنا أن اسم الصلاة فيه عموم و اطلاق و لكن لا يستعمل الا مقرونا بقيد إنما يختص ببعض موارده كصلواتنا و صلاة الملائكة و الصلاة من الله سبحانه و تعالى و انما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا مع علمهم بان هذا ليس مثل هذا فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته و ان كان بينهما قدر متشابه كما قد حققنا هذا فى الرد على الاتحادية و الجهمية و المتفلسفة و نحوهم ومن هذا الباب اسماء الله و صفاته التى يسمى و يوصف العباد بما يشبهها كالحى و العليم و القدير و نحو ذلك وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كل معروف صدقة و لهذا ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال على كل مسلم صدقة و أما الزكاة المالية المفروضة فانما تجب على بعض المسلمين فى بعض الأوقات و الزكاة المقارنة للصلاة تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قال النبى صلى الله عليه و سلم قالوا فان لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه و يتصدق قالوا فان لم يستطع قال يعين صانعا او يصنع لأخرق قالوا فان لم يستطع قال يكف نفسه على الشر

واما قوله في الحديث الصحيح حديث ابي ذر و غيره على كل سلامى من احدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة و كل تكبيرة صدقة و كل تهليلة صدقة و امر بالمعروف صدقة و نهى عن المنكر صدقة فهذا إن شاء الله كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق فانه بمثل هذا العامل يحصل الرزق و النصر و الهدى فيكون ذلك من الصدقة على الخلق ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة و جنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة و الصدقة ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة و صدقة و كذلك كل دعاء للغير و استغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضا كما قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا و كل الله به ملكا كلما دعا له بدعوة قال الملك الموكل به آمين و لك بمثل و قول الناس الآدمى جبار ضعيف او فلان جبار ضعيف فان ضعفه يعود الى ضعف قواه من قوة العلم والقدرة واما تجبره فانه يعود الى اعتقاداته وارادته اما اعتقاده فان يتوهم فى نفسه انه أمر عظيم فوق ما هو ولا يكون ذلك وهذا هو الاختيال والخيلاء والمخيلة وهو ان يتخيل عن نفسه ما لا حقيقة له ومما يوجب ذلك مدحه بالباطل نظما ونثرا وطلبه للمدح الباطل فانه يورث هذا الاختيال واما الارادة فارادة ان يتعظم ويعظم وهو ارادة العلو فى الأرض والفخر على الناس وهو ان يريد من العلو ما لا يصلح له ان يريده وهو الرئاسة والسلطان حتى يبلغ به الأمر الى مزاحمة الربوبية كفرعون ومزاحمة النبوة وهذا موجود فى جنس العلماء والعباد والامراء وغيرهم وكل واحد من الاعتقاد والارادة يستلزم جنس الآخر فان من تخيل انه عظيم اراد ما يليق بذلك الاختيال ومن اراد العلو فى الأرض فلابد ان يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره حتى يطلب ذلك ففى الارادة يتخيله مقصودا وفى الاعتقاد يتخيله موجودا ويطلب توابعه من الارادات وقد قال الله تعالى { إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً }النساء٣٦ وقال النبى الكبر بطر الحق وغمط الناس فالفخر يشبه غمط الناس فان كلاهما تكبر على الناس واما بطر الحق وهو جحده ودفعه فيشبه الاختيال الباطل فانه تخيل ان الحق باطل بجحده ودفعه ثم هنا وجهان أحدهما ان يجعل الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات وهو ان يجعل الحق باطلا والباطل حقا فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها فيجحد الحق الذى يخالف هواها وعلوها ويتخيل الباطل الذى يوافق هواها وعلوها ويجعل الفخر وغمط الناس من باب الارادات فان الفاخر يريد ان يرفع نفسه ويضع غيره وكذلك غامط الناس يؤيد هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انه اوحى الى أن تواضعوا حتى لا يفخر احد على احد ولا يبغى أحد على أحد فبين ان التواضع المأمور به ضد البغى والفخر وقال فى الخيلاء التى يبغضها الله الاختيال فى الفخر والبغى فكان فى ذلك ما دل على أن الاستطالة على الناس ان كانت بغير حق فهى بغى اذ البغى مجاوزة الحد وان كانت بحق فهى الفخر لكن يقال على هذا البغى يتعلق بالارادة فلا يجوز ان يجعل هو من باب الاعتقاد وقسيمه من باب الارادة بل البغى كانه فى الأعمال والفخر فى الأقوال او يقال البغى بطر الحق والفخر غمط الناس الوجه الثانى ان يكونا جميعا متعلقين بالاعتقاد والارادة لكن الخيلاء غمط الحق يعود الى الحق فى نفسه الذى هو حق الله وان لم يكن يتعلق به حق آدمى والفخر وغمط الناس يعود الى حق الآدميين فيكون التنويع لتمييز حق الادميين مما هو حق لله لا يتعلق الادميين بخلاف الشهوة فى حال الزنا واكل مال الغير فلما قال سبحانه { إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ

وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ {٣٧}النساء٣٦-٣٧ والبخل منع النافع قيد هذا بهذا وقد كتبت فيما قبل هذا من التعاليق الكلام فى التواضع والاحسان والكلام فى التكبر والبخل [١]

الله سبحانه هو المستحق للمحامد الكاملة

قال تعالى { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}الحديد٢٤
اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب [٢]

الله سبحانه أحد صمد غنى بنفسه

قال تعالى { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}الحديد٢٤
ان الذى علم بالعقل والسمع أنه يمتنع ان يكون الرب تعالى فقيرا الى خلقه بل هو الغنى عن العالمين وقد علم أنه حى قيوم بنفسه وان نفسه المقدسة قائمة بنفسه وموجودة بذاته وأنه أحد صمد غنى بنفسه ليس ثبوته وغناه مستفادا من غيره وانما هو بنفسه لم يزل ولا يزال حقا صمدا قيوما [٣]

لطائف لغوية

قال تعالى { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}الحديد٢٤
غني منزه عن الفقر [٤]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢١٢-٢٢١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٨٤

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٣٤٨

[٤] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

الحديد ٢٥

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}

الآيات التى أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فان آيات الله هي دلالاته و براهينه التى بها يعرف العباد خبره و شهادته كما عرفهم بها أمره و نهيه و هو عليم حكيم فخبره يتضمن أمره و نهيه و فعله يبين حكمته فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية و لابد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه و ذلك قد عرفه بآياته التى أيد بها الأنبياء و دل بها على صدقهم فإنه لم يبعث نبيا إلا بآية تبين صدقه إذ تصديقه بمالا يدل على صدقه غير جائز كما قال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ }الحديد٢٥ أي بالآيات البينات و قال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٤٣} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{٤٤}النحل٤٣ - ٤٤ و قال { قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ }آل عمران١٨٣ و قال { فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ }آل عمران١٨٤ وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ما من نبى من الأنبياء إلا و قد اوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذي أوتيته و حيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة فالآيات و البراهين التى أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دل بها العباد و هي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه و الذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به و لهذا قال بعض النظار أن المعجزة تصديق الرسول و هي تجري مجرى المرسل صدقت فهي تصديق بالفعل تجري مجرى التصديق بالقول إذ كان الناس لايسمعون كلام الله المرسل منه وتصديقه إخبار بصدقه و شهادة له بالصدق و شهادة له بأنه أرسله و شهادة له بأن كلما يبلغه عنه كلامه و هو سبحانه إسمه المؤمن و هو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التى دل بها على صدقه [1]

أخبر سبحانه بنعمته على بني آدم بما انزله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:١٨٨ـ ١٩٠

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فأخبر سبحانه بنعمته على بني آدم بما انزله كما قال { وانزلنا الحديد } سورة الحديد ٢٥[1]

أنزل مع رسله الكتاب والميزان

فان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فانهم يكونوا أضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ قوله { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ }الزخرف٥٨ إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة٢١٣ ولهذا قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }النساء٥٩ وقد أنزل مع رسله الكتاب والميزان كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وقال {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧ والميزان قال كثير من المفسرين هو العدل وقال بعضهم هو ما به توزن الامور وهو ما به يعرف العدل وكذلك قالوا في قوله {وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }الرحمن٧ الامثال المضروبة والاقيسة العقلية التي تجمع بين المتماثلات وتفرق بين المختلفات وإذا أطلق لفظ الكتاب كما في قوله { وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ }البقرة٢١٣ دخل فيه الميزان لان الله تعالى بين في كتابه من الامثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يعرف به الحق والباطل وهذا كلفظ الحكمة تارة يقرن ب الكتاب كما في قوله { وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }النساء١١٣ وتارة يفرد الكتاب كقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ }الكهف١ وإذا افرد دخلت الحكم في معناه وكذلك في لفظ القرآن والايمان قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى٥٢ وإذا أفرد لفظ القرآن فهو يدل على الايمان كما الايمان يدل على القرآن فهما متلازمان[2]

الكتاب يهدي والسيف ينصر

---

[1] الاستقامة ج: ٢ ص: ١٦٩

[2] الرد على المنطقيين ج: ١ ص:٣٣٢- ٣٣٤

الصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام وقال تعالى {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }الحشر٨ فأخبر ان الصادقين فى دعوى الايمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب ايمانهم ريبة وجاهدوا فى سبيله باموالهم وانفسهم قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد و هو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }الزمر١ وقال تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }هود١ وقال النمل {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ }النمل٦ والحديد أنزل من الجبال التي يخلق فيها وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }البقرة١٧٧ [1]

قوام الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد

قوله في الحديث القدسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا فإنها تجمع الدين كله فإن ما نهى الله عنه راجع الى الظلم وكل ما أمر به راجع إلى العدل ولهذا قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فأخبر أنه أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق فالكتاب يهدي والسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا ولهذا كان قوام الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد كما قال من قال من السلف صنفان إذا صلحوا صلح الناس الأمراء والعلماء وقالوا في قوله تعالى { أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ }النساء٥٩ أقوالا تجمع العلماء والأمراء ولهذا نص الإمام أحمد وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله وكان نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته كعلي ومعاذ وأبي موسى وعتاب بن أسيد وعثمان بن أبي العاص وأمثالهم يجمعون الصنفين وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم ولهذا كانت السنة أن الذي يصلي بالناس صاحب الكتاب وهو الذي يقوم بالجهاد صاحب الحديد إلى أن تفرق الأمر بعد ذلك فإذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بجمع الأموال وقسمها يجب أن يطاع فيما يأمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يصدق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقوم الناس بالقسط ولهذا لما كان المشركون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٢ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٠ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٠

يحرمون أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ويأمرون بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان أنزل الله في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما يذمهم على ذلك وذكر ما أمر به هو وما حرمه هو فقال {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }الأعراف٢٩ وقال تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }الأعراف٣٣ وهذه الآية تجمع أنواع المحرمات كما قد بيناه في غير هذا الموضع وتلك الآية تجمع أنواع الواجبات كما بيناه أيضا وقوله { أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }الأعراف٢٩ أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}النساء٤٨ وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم [١]

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس فى دينهم ودنياهم ثم بعد ذلك تفرقت الأمور فصار امراء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع اليهم فيه من العلم والدين وهؤلاء أولوا أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولوا أمرها وهو كذلك فسر أولوا الأمر فى قوله { أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ }النساء٥٩ بأمراء الحرب من الملوك ونوابهم وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ويأمرونهم بطاعة الله فان قوام الدين بالكتاب والحديد كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ }الحديد٢٥ وإذا كان ولاة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيزهم وتأديبهم ما يتمكنون منه إذا لم يقم به غيرهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو اضعف الايمان [٢]

دين الاسلام ان يكون السيف تابعا للكتاب

وقد ثبت في الصحيح عنه أنه قال ان بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما مات نبى قام نبى وانه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء يكثرون قالوا فما تأمرنا قال اوفوا ببيعة الأول فالأول واعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم فلما صارت الخلافة في ولد العباس واحتاجوا الى سياسة الناس وتقلد لهم القضاء من تقلده من فقهاء العراق ولم يكن ما معهم من العلم كافيا فى السياسة العادلة احتاجوا حينئذ الى وضع ولاية المظالم وجعلوا ولاية حرب غير ولاية شرع وتعاظم الامر فى كثير من امصار المسلمين حتى صار يقال الشرع والسياسة وهذا يدعو خصمه الى الشرع وهذا يدعو الى السياسة سوغ حاكما ان يحكم بالشرع والآخر بالسياسة والسبب فى ذلك ان الذين انتسبوا الى الشرع قصروا فى معرفة السنة فصارت امور كثيرة اذا حكموا ضيعوا الحقوق وعطلوا الحدود حتى تسفك الدماء وتؤخذ الاموال وتستباح المحرمات والذين انتسبوا الى السياسة صاروا يسوسون بنوع

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٥٧ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤١٤

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٥١

من الرأى من غير اعتصام بالكتاب والسنة وخيرهم الذي يحكم بلا هوى وتحرى العدل وكثير منهم يحكمون بالهوى ويحابون القوي ومن يرشوهم ونحو ذلك وكذلك كانت الامصار التى ظهر فيها مذهب اهل المدينة يكون فيها من الحكم بالعدل ما ليس في غيرها من جعل صاحب الحرب متبعا لصاحب الكتاب مالا يكون فى الامصار التى ظهر فيها مذهب اهل العراق ومن اتبعهم حيث يكون في هذه والى الحرب غير متبع لصاحب العلم وقد قال الله تعالى فى كتابه {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ }الحديد٢٥ الاية فقوام الدين بكتاب يهدى وسيف ينصر { وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً }الفرقان٣١ ودين الاسلام ان يكون السيف تابعا للكتاب فاذا ظهر العلم بالكتاب والسنة وكان السيف تابعا لذلك كان أمر الاسلام قائما واهل المدينة أولى الامصار بمثل ذلك اما على عهد الخلفاء الراشدين فكان الامر كذلك وأما بعدهم فهم فى ذلك أرجح من غيرهم واما اذا كان العلم بالكتاب فيه تقصير وكان السيف تارة يوافق الكتاب وتارة يخالفه كان دين من هو كذلك بحسب ذلك[1]

الشرع الذى يقاتل عليه المجاهدون

قال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ }الشورى١٣ فدين الأنبياء واحد وهو دين الإسلام كلهم مسلمون مؤمنون كما قد بين الله فى غير موضع من القرآن لكن بعض الشرائع تتنوع فقد يشرع فى وقت أمرا لحكمه ثم يشرع فى وقت آخر أمرا آخر لحكمه كما شرع فى أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة فتنوعت الشريعة والدين واحد وكان إستقبال الشام ذلك الوقت من دين الإسلام وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام ثم لما نسخ صار دين الإسلام هو الناسخ وهو الصلاة إلى الكعبة فمن تمسك بالمنسوخ دون الناسخ فليس هو على دين الإسلام ولا هو متبع لأحد من الأنبياء ومن بدل شرع الأنبياء وإبتدع شرعا فشرعه باطل لايجوز إتباعه كما قال {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ }الشورى٢١ ولهذا كفر اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع مبدل منسوخ والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ومحمد خاتم الرسل فعلى جميع الخلق إتباعه وإتباع ما شرعه من الدين وهو ما أتى به من الكتاب والسنة فما جاء به الكتاب والسنة وهو الشرع الذى يجب على جميع الخلق إتباعه وليس لأحد الخروج عنه وهو الشرع الذى يقاتل عليه المجاهدون وهو الكتاب والسنة وسيوف المسلمين تنصر هذا الشرع وهو الكتاب والسنة كما قال جابر إبن عبد الله أمرنا رسول الله أن نضرب بهذا يعنى السيف من خرج عن هذا يعنى المصحف قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فبين سبحانه وتعالى أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط وأنزل الحديد فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد فالكتاب والعدل متلازمان والكتاب هو المبين للشرع فالشرع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٣٩٢

هو العدل والعدل هو الشرع ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع ولكن كثيرا من الناس ينسبون ما يقولونه إلى الشرع وليس من الشرع بل يقولون ذلك إما جهلا وإما غلطا وإما عمدا وإفتراء وهذا هو الشرع المبدل الذى يستحق أصحابه العقوبة ليس هو الشرع المنزل الذى جاء به جبريل من عند الله إلى خاتم المرسلين فإن هذا الشرع المنزل كله عدل ليس فيه ظلم ولا جهل قال تعالى {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }المائدة٤٢ وقال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ }المائدة٤٩ فالذى أنزل الله هو القسط والقسط هو الذى أنزل الله وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ }النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ }النساء١٠٥ فالذى أراه الله فى كتابه هو العدل وقد يقول كثير من علماء المسلمين أهل العلم والدين من الصحابة والتابعين وسائر إئمة المسلمين كالأربعة وغيرهم أقوالا بإجتهادهم فهذه يسوغ

القول بها ولا يجب على كل مسلم أن يلتزم إلا قول رسول الله فهذا شرع دخل فيه التأويل والإجتهاد وقد يكون فى نفس الأمر موافقا للشرع المنزل فيكون لصاحبه أجران وقد لا يكون موافقا له لكن لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فإذا إتقى العبد الله ما إستطاع آجره الله على ذلك وغفر له خطأه ومن كان هكذا لم يكن لأحد أن يذمه ولا يعيبه ولا يعاقبه ولكن إذا عرف الحق بخلاف قوله لم يجز ترك الحق الذى بعث الله به رسوله لقول أحد من الخلق وذلك هو الشرع المنزل من عند الله وهو الكتاب والسنة وهو دين الله ورسوله لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله لا يجاهدون على قول عالم ولا شيخ ولا متأول بل يجاهدون ليعبد الله وحده ويكون الدين له كما فى المسند عن إبن عمر قال قال النبى صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم وقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه }الأنفال٣٩ وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال قيل يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله فالمقصود بالجهاد أن لا يعبد أحد إلا الله فلا يدعو غيره ولا يصلى لغيره ولا يسجد لغيره ولا يصوم لغيره ولا يعتمر ولا يحج إلا إلى بيته ولا يذبح القرابين إلا له ولا ينذر إلا له ولا يحلف إلا به ولا يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا إياه ولا يتقى إلا إياه فهو الذى لا يأتى بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ولا يهدى الخلق إلا هو ولا ينصرهم إلا هو ولا يرزقهم إلا هو ولا يغنيهم إلا هو ولا يغفر ذنوبهم إلا هو قال تعالى { وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ{٥١} وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ{٥٢} وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ{٥٣} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{٥٤} لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{٥٥}النحل ٥١-٥٥ [1]

فإن حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق وعلى كل من ولى أمر الأمة أو حكم بين إثنين أن يحكم بالعدل والقسط وأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله وهذا هو الشرع المنزل من عندالله قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص:٣٦٤- ٣٧٠

قال تعالى{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ}النساء١٠٥ وقال تعالى {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ}المائدة٤٨ [1]

أكثر الآيات والأحاديث النبوية فى الصلاة و الجهاد

أعلم أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه و سلم بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله وأكمل لأمته الدين و أتم عليهم النعمة و جعله على شريعة من الأمر وأمره أن يتبعها و لا يتبع سبيل الذين لايعلمون و جعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من الكتب و مصدقا لها و جعل له شرعة و منهاجا و شرع لأمته سنن الهدى و لن يقوم الدين إلا بالكتاب و الميزان و الحديد كتاب يهدى به وحديد ينصره كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فالكتاب به يقوم العلم و الدين و الميزان به تقوم الحقوق فى العقود المالية و القبوض و الحديد به تقوم الحدود على الكافرين و المنافقين ولهذا كان فى الأزمان المتأخرة الكتاب للعلماء و العباد و الميزان للوزراء و الكتاب و أهل الديوان والحديد للأمراء و الأجناد و الكتاب له الصلاة و الحديد له الجهاد و لهذا كان أكثر الآيات والأحاديث النبوية فى الصلاة و الجهاد و كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى عيادة المريض اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة و ينكألك عدوا و قال عليه السلام رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة و ذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ولهذا جمع بينهما فى مواضع من القرآن كقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }الحجرات١٥ و الصلاة أول أعمال الاسلام و أصل أعمال الايمان و لهذا سماها إيمانا فى قوله {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}البقرة١٤٣ أى صلاتكم الى بيت المقدس هكذا نقل عن السلف و قال تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ}التوبة١٩ و قال { فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}المائدة٥٤ فوصفهم بالمحبة التى هى حقيقة الصلاة كما قال {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً }الفتح٢٩ فوصفهم بالشدة على الكفار و الضلال وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم سئل أى العمل أفضل قال إيمان بالله و جهاد فى سبيله فقيل ثم ماذا قال ثم حج مبرور مع قوله فى الحديث الصحيح لما سأله إبن مسعود أي العمل أفضل قال الصلاة فى و قتها قال ثم ماذا قال بر الوالدين قال ثم ماذا قال الجهاد فى سبيل الله فإن قوله إيمان بالله دخل فيه الصلاة و لم يذكر فى الأول بر الوالدين إذ ليس لكل أحد والدان فالأول مطلق و الثانى مقيد بمن له والدان ولهذا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص:٣٨٨- ٣٨٩

كانت سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و سائر خلفائه الراشدين و من سلك سبيلهم من ولاة الأمور فى الدولة الأموية و العباسية أن الإمام يكون إماما فى هذين الأصلين جميعا الصلاة والجهاد فالذى يؤمهم فى الصلاة يؤمهم فى الجهاد وأمر الجهاد والصلاة واحد فى المقام و السفر و كان النبى صلى الله عليه و سلم إذا استعمل رجلا على بلد مثل عتاب بن أسيد على مكة و عثمان بن أبى العاص على الطائف و غيرهما كان هو الذي يصلى بهم و يقيم الحدود و كذلك إذا استعمل رجلا على مثل غزوة كإستعماله زيد بن حارثة و ابنه أسامة و عمرو بن العاص و غيرهم كان أمير الحرب هو الذي يصلي بالناس و لهذا استدل المسلمون بتقديمه أبا بكر فى الصلاة على أنه قدمه فى الامامة العامة وكذلك كان أمراء الصديق كيزيد بن أبى سفيان و خالد بن الوليد و شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص وغيرهم أمير الحرب هو إمام الصلاة وكان نواب عمر بن الخطاب كإستعماله على الكوفة عمار بن ياسر على الحرب و الصلاة و ابن مسعود على القضاء و بيت المال و عثمان بن حنيف على الخراج ومن هنا أخذ الناس ولاية الحرب وولاية الخراج و ولاية القضاء فإن عمر بن الخطاب هو أمير المؤمنين فلما انتشر المؤمنون وغلبوا الكافرين على البلاد و فتحوها واحتاجوا الى زيارة فى الترتيب و ضع لهم الديوان ديوان الخراج للمال المستخرج و ديوان العطاء و النفقات للمال المصروف و مصر لهم الأمصار فمصر الكوفة و البصرة و مصر الفسطاط فإنه لم يؤثر أن يكون بينه و بين جند المسلمين نهر عظيم كدجلة والفرات والنيل فجعل هذه الأمصار مما يليه فصل وكانت مواضع الأئمة و مجامع الأمة هى المساجد فإن النبى صلى الله عليه و سلم أسس مسجده المبارك على التقوي ففيه الصلاة و القراءة و الذكر و تعليم العلم و الخطب و فيه السياسة وعقد الألوية و الرايات و تأمير [1]

من عدل عن الكتاب قوم بالحديد

وقد قال الله تعالى لما أمر بالجهاد {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه }الأنفال٣٩ وقيل للنبى يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله أخرجاه فى الصحيحين فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الله اسم جامع لكلماته التى تضمنها كتابه و هكذا قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد٢٥ فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط فى حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال تعالى { وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ }الحديد٢٥ فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نضرب بهذا يعنى السيف من عدل عن هذا يعنى المصحف [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٣٦-٣٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص:٢٦٣- ٢٦٤

يظهر الدين بنصره و تأييده

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }الصف٩ فيظهره بالدلائل و الآيات العلمية التى تبين أنه حق و يظهره أيضا بنصره و تأييده على مخالفيه و يكون منصورا كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥[1]

العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح

وقد قال سبحانه وتعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧ وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ والميزان يفسره السلف بالعدل ويفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر انه انزل ذلك مع رسله كما أنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من الميزان وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات فمعرفة أن هذه الدارهم أو غيرها من الاجسام الثقيلة بقدر هذه تعرف بموازينها وكذلك معرفة أن هذا الكيل مثل هذا يعرف بميزانه وهو المكاييل وكذلك معرفة أن هذا الزمان مثل هذا الزمان يعرف بموازينه التي يقدر بها الاوقات كما يعرف به مظلال وكما يعرف بجرى من ماء ورمل وغير ذلك وكذلك معرفة أن هذا بطول هذا يعرف بميزانه وهو الذارع فلا بد بين كل متماثلين من قدر مشترك كلى يعرف به ان احدهما مثل الاخر فكذلك الفروع المقيسة على اصولها في الشرعيات والعقليات تعرف بالموازين المشتركة بينهما وهي الوصف الجامع المشترك الذي يسمى الحد الاوسط فانا إذا علمنا أن الله حرم خمر العنب لما ذكره من انها تصد عن ذكر الله وعن الصلوة وتوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ثم رأينا نبيذ الحبوب من الحنطة والشعير والرز وغير ذلك يماثلها في المعنى الكلى المشترك الذي هو علة التحريم كان هذا القدر المشترك الذي هو العلة هو الميزان التي انزلها الله في قلوبنا لنزن بها هذا ونجعله مثل هذا فلا نفرق بين المتماثلين والقياس الصحيح هو من العدل الذي امر الله تعالى به ومن علم الكليات من غير معرفة المعين فمعه الميزان فقط والمقصود بها وزن الامور الموجودة في الخارج وإلا فالكليات لولا جزئياتها المعينات لم يكن بها اعتبار كما أنه لولا الموزونات لم يكن الى الميزان من حاجة ولا ريب أنه إذا احضر احد الموزونين واعتبر بالاخر بالميزان كان اتم في الوزن من ان يكون الميزان وهو الوصف المشترك الكلى في العقل أي شئ حضر من الاعيان المفردة وزن بها فان هذا ايضا وزن صحيح وذلك احسن في الوزن فانك إذا وزنت بالصنجة قدرا من النقدين ثم وزنت بها نظيره والاول شاهد والناس يشهدون ان هذا وزن به هذا فظهر مثله او اكثر او اقل كان احسن من ان يوزن احدهما في مغيب الاخر فانه قد يظن ان الوازن لم يعدل في الوزن كما يعدل إذا وزنها معا فان هذا يعتبر بأن يوزن أحدهما بالاخر بلا صنجة وهكذا الموزونات بالعقل وقد بسطنا الكلام في هذا في غير هذا الموضع وبينا ان القياس الصحيح هو من العدل الذي انزله وانه لا يجوز قط ان يختلف الكتاب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٩٥

والميزان فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح لا قياس شرعي ولا عقلي ولا يجوز قط ان الادلة الصحيحة النقلية تخالف الادلة الصحيحة العقلية وأن القياس الشرعي الذي روعيت شروط صحته يخالف نصا من النصوص وليس في الشريعة شئ على خلاف القياس الصحيح بل على خلاف القياس الفاسد كما قد بسطنا ذلك في مصنف مفرد وذكرنا في كتاب درء تعارض العقل والنقل ومتى تعارض في ظن الظان الكتاب والميزان النص والقياس الشرعي او العقلي فأحد الامرين لازم إما فساد دلالة ما احتج به من النص إما بأن لا يكون ثابتا عن المعصوم او لا يكون دالا على ما ظنه او فساد دلالة ما احتج به من القياس سواء كان شرعيا او عقليا بفساد بعض مقدماته او كلها لما يقع في الاقيسة من الالفاظ المجملة المشتبهة [1]

أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فانه موافق لصريح المعقول وان العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ولكن كثيرا من الناس يغلطون إما فى هذا وإما فى هذا فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية وليس فى المعقول ما يخالف المنقول ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل قال معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلى من حفظه أى معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه والفقه فيه معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الاصولية والفروعية أحب إلى من أن يحفظ من غير معرفة وفقه وهكذا قال على بن المدينى وغيره من العلماء فانه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول أو بلفظ ثابت عن الرسول وحمله على مالم يدل عليه فانما أتى من نفسه وكذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحا لم تكن إلا حقا لا تناقض شيئا مما قاله الرسول والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التى بها يعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله وبها يعرف امكان المعاد ففى القرآن من بيان أصول الدين التى تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله فى كلام أحد من الناس بل عامة ما يأتى به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها قال تعالى {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً }الفرقان٣٣ وقال {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ }الزمر٢٧ وقال {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }الحشر٢١ وأما الحجج الداحضة التى يحتج بها الملاحدة وحجج الجهمية معطلة الصفات وحجج الدهرية وأمثالها كما يوجد مثل ذلك فى كلام المتأخرين الذين يصنفون فى الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون انها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد مالا يحصيه إلا رب العباد وقد بسط الكلام على هؤلاء فى مواضع أخر وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول وما كان عليه السلف ومعرفة المعقول الصريح فان هذا هو الكتاب وهذا هو الميزان وقد قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ [2]

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣٧٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٨٢

الحكمة معرفة الدين والعمل به

قال مالك رحمه الله الحكمة معرفة الدين والعمل به ولذلك قال ابن قتيبة الحكمة عند العرب العلم و العمل و الحكمة العملية عندهم و عند غيرهم تتضمن علم الأخلاق وسياسة المنزل وسياسة المدنية وبنى ذلك كله على هذه القضايا المشهورة بل وكل عمل يؤمر به فلا بد فيه من العدل فالعدل مأمور به في جميع الأعمال والظلم منهى عنه نهيا مطلقا ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكلميه فأوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ }النساء١٣٥ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }المائدة٨ وقال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ }النساء٥٨ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }النحل٩٠ ومثل هذا كثير وكذلك تحريم الظلم بمجموع أنواعه كثير في النصوص الالهية حتى في الحديث الالهى حديث ابي ذر الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال يا عبادي إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني اغفر لكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عبادي لو ان أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكى شيئا يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادي لو أن اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط يا عبادي إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم اوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[١]

أن الله أمرنا بالعدل

فأن الله أمرنا بالعدل وأمرنا أن نعدل بين الأمم كما قال تعالي لرسوله { وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ }الشورى١٥ وقال تعالي {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة٢١٣ وقال تعالي { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

---

[١] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٢٥ والصفدية ج: ٢ ص: ٣٢٧

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ [1]

الشريعة مبناها على العدل

فان الشريعة مبناها على العدل كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}البقرة٢٨٦ [2]

والاصل فى العقود جميعها هو العدل فانه بعثت به الرسل وانزلت الكتب قال تعالى{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد٢٥ والشارع نهى عن الربا لما فيه من الظلم وعن الميسر لما فيه من الظلم والقرآن جاء بتحريم هذا وهذا وكلاهما أكل المال بالباطل وما نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم من المعاملات كبيع الغرر وبيع الثمر قبل بدو صلاحه وبيع السنين وبيع حبل الحبلة وبيع المزابنة والمحاقلة ونحو ذلك هي داخلة اما فى الربا واما في الميسر فالاجارة بالاجرة المجهولة مثل ان يكريه الدار بما يكسبه المكتري فى حانوته من المال هو من الميسر فهذا لا يجوز واما المضاربة والمساقاة والمزارعة فليس فيها شيء من الميسر بل هو من اقوم العدل [3]

أصل العدل العدل في حق الله تعالى

فإن الأنبياء بعثوا بالعلم والعدل فالهدى يتضمن العلم النافع ودين الحق يتضمن العمل الصالح ومبناه على العدل كما قال تعالى {٢٤} لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ {٢٥} سورة الحديد الآية ٢٥ وأصل العدل العدل في حق الله تعالى وهو عبادته وحده لا شريك له فإن الشرك ظلم عظيم كما قال لقمان لابنه { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ{١٣} سورة لقمان الآية ١٣ [4]

كل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٦٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٣٥١

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥١٠

[4] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٠٦

أن العدل محمود محبوب باتفاق أهل الأرض وهو محبوب في النفوس مركوز حبه في القلوب تحبه القلوب وتحمده وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه والله تعالى أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط قال الله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ }النساء٥٨ وقال { فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }المائدة٤٢ وقال { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ }المائدة٤٨ فأمره أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله فدل ذلك على أن القسط هو ما أنزل الله فما أنزل الله هو القسط والقسط هو ما أنزل الله ولهذا وجب على كل من حكم بين أثنين أن يحكم بالعدل لقوله تعالى {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ }النساء٥٨ فليس لحاكم أن يحكم بظلم أبدا والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلا بل حكم الله أحسن الأحكام والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل[1]

الشرع والعدل متلازمان

فإن من العلماء من قال قولا برأيه وخالفه فيه آخرون وليس معه شرع منزل من عند الله بل الأدلة الشرعية قد تدل على نقيض قوله وقد يتفق أن من يحكم بذلك يزيد ذلك ظلما بجهله وظلمه ويتفق أن كل أهل ظلم وشر يزيدون الشر شرا وينسبون هذا الظلم كله إلى شرع من نزهه الله عن الظلم وبعثه بالعدل والحكمة والرحمة وجعل العدل المحض الذى لا ظلم فيه هو شرعه ولهذا كان العدل وشرعه متلازمين قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ }النساء٥٨ وقال تعالى {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ }المائدة٤٨ فما أنزل عليه والقسط متلازمان فليس فيما أنزل الله عليه ظلم قط بل قد قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥[2]

و صلاح أمر دنياهم و دينهم فلا تتم إلا بالعدل الذي أنزل الله له الكتب و بعث به الرسل[3]

أن الله انما حرم المعاملات الفاسدة لما فيها من الظلم فان الله تعالى يقول فى كتابه العزيز {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٢٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٥٥

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٩٠

وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ و الغصب و أنواعه و السرقة و الخيانة داخل فى الظلم [1]

القسط الذى أرسل الله له الرسل

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ القسط الذي أرسل الله له الرسل و أنزل له الكتب و هو مقابلة الحسنة بمثلها و السيئة بمثلها كما قال تعالى {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ }الرحمن٦٠ و قال {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}النساء٨٦ و قال {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا }الشورى٤٠ وقال { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى }البقرة١٧٨ و قال { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ }البقرة١٩٤ و قال{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ }النحل١٢٦ لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل واجب و الزيادة إحسان مستحب و النقص ظلم محرم و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم و النقص إحسان مستحب فالظلم للظالم و العدل للمقتصد و الاحسان المستحب للسابق بالخيرات و الأمة ثلاثة ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات [2]

الكتاب هو الحاكم بين الناس شرعا ودينا

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وأنه بعث محمدا بالكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط و الكتاب القرآن و الميزان العدل [3]

والكتاب هو الحاكم بين الناس شرعا ودينا وينصر القائم نصرا وقدرا وقد قال الله تعالى{إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }الأعراف١٩٦ وقال تعالى {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا }الجاثية١٨ الى قوله { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ }الجاثية١٩ وقال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد٢٥ الى قوله {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ و الميزان هو العدل به يعرف العدل وأنزل الحديد لينصر الكتاب فان قام صاحبه بذلك كان سعيدا مجاهدا فى سبيل الله فان الله نصر الكتاب بأمر من عنده وانتقم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ }التوبة٤٠ الى قوله { وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }التوبة٤٠ وقوله لأبى بكر { إِنَّ اللّهَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣٢٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٥٢١

[3] مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ٢١٠

مَعَنَا }التوبة٤٠ وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل١٢٨ وقال تعالى { إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة١٥٣ وكل من وافق الرسول فى أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه فى ذلك وله نصيب من قوله { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هى لما جاء به الى يوم القيامة وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه وقال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }فصلت٥٣ الى آخر السورة وقال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }القصص٨٣ [1]

صحة القلب وصلاحه في العدل

و العدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى البقرة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت و العمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى فصلت من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقال تعالى الإسراء إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها قال بعض السلف إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ولكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا ولكن الأمثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس و الظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها قال أحمد بن حنبل لبعض الناس لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٧

[2] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٧

قد كان النبى يقول اذا قام من الليل ما رواه مسلم فى صحيحه اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم [١]

صنفان اذا صلحوا صلح الناس العلماء والامراء

اعلم ان عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات فى هذا القدر وغيره وانما وقع فى الامة فى اواخر الخلفاء الراشدين كما اخبر به النبى حيث قال من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاءالراشدين المهديين من بعدي ومعلوم انه اذا استقام ولاة الامور الذين يحكمون في النفوس والاموال استقام عامة الناس كما قال ابو بكر الصديق فيما رواه البخارى فى صحيحه للمرأة الاحمسية لما سالته فقالت ما بقاؤنا على هذا الامر الصالح قال ما استقامت لكم ائمتكم وفى الاثر صنفان اذا صلحوا صلح الناس العلماء والامراء اهل الكتاب واهل الحديد كما دل عليه قوله { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وهم اولوا الامر فى قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ }النساء٥٩ وكذلك من جهتهم يقع الفساد كما جاء فى الحديث مرفوعا وعن جماعة من الصحابة ان اخوف ما خاف عليكم زلة عالم وجدال منافق بالقرآن وائمة مضلون فالائمة المضلون هم الامراء والعالم والمجادل هم العلماء لكن احدهما صحيح الاعتقاد يزل وهو العالم كما يقع من ائمة الفقهاء اهل السنة والجماعة و الثاني كالمتفلسفة والمتكلمين الذين يجادلون بشبهات القرآن مع انهم فى الحقيقة منسلخون من ايات الله وانما احتجاجهم به دفعا للخصم لاهتداء به واعتماد عليه ولهذا قال جدال منافق بالقرآن فان السنة والاجماع تدفع شبهته والدين القائم بالقلب من الايمان علما وحالا هو الاصل والاعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الايمان فالدين اول ما يبنى من اصوله ويكمل بفروعه كما انزل الله بمكة اصوله من التوحيد والامثال التى هي المقاييس العقلية والقصص والوعد والوعيد ثم انزل بالمدينة لما صار له قوة فروعه الظاهرة من الجمعه والجماعة والاذن والاقامة والجهاد والصيام وتحريهم الخمر والزنا والميسر وغير ذلك من واجبانه ومحرماته فأصوله تمد فروعة وتثبتها وفروعه تكمل اصوله وتحفظها فاذا وقع فيه نقص ظاهر فانما يقع ابتداء من جهة فروعة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اول ما تفقدون من دينكم الامانه واخر ما تفقدون من دينكم الصلاة وروى عنه انه قال اول ما يرفع الحكم بالامانه والحكم وهو عمل الامراء وولاة الامور كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ}النساء٥٨ وأما الصلاة فهي اول فرض وهي من اصول الدين والايمان مقرونة بالشهادتين فلا تذهب فى الاخر كما قال بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء فاخبر ان عوده كبدئه فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشداين وصار ملكا ظهر النقص في الامراء فلا بد ان يظهر ايضا فى اهل العلم والدين

[١]

فحدث في اخر خلافة علي بدعتا الخوارج والرافضة اذ هي متعلقة بالامانه والخلاقة وتوابع ذالك من الاعمال والاحكام الشرعية وكان ملك وكان ملك معاوية ملكا ورحمة فلما ذهب معاوية رحمة الله عليه وجاءت امارة يزيد وجرت فيها فتنة قتل الحسين بالعراق وفتنة اهل الحرة بالمدنية وحصروا مكة لما قام عبد الله بن الزبير وحاصروا مكة لما قام عبد الله بن الزبير ثم ملت يزيد وتفرقت الامة ابن الزبير بالحجاز وبنوا الحكم بالشام ووثب المخت بن أبي عبيد وغيرة بالعراق وذلك فى اواخر عصر الصحابه وقد بقى فيهم مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وابو سعيد الخدري وغيرهم حدثت بدعة القدرية والمرجئة فردها بقايا الصحابه كابن عباس وابن عمر وجابر وواثلة بن الاسقع وغيرهم رضي الله عنهم مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والراوفض وعامه ما كانت القدرية اذ ذاك يتكلمون فيه اعمال العباد كما يتكلم فيها المرحئة فصار كلامهم فى الطاعة والمعصية والمؤمن والفاسق ونحو ذلك من مسائل الاسماء والاحكام و الوعد و الوعيد ولم يتكلموا بعد فى ربهم ولا فى صفاتةالا في اواخر عصر صغار التابعين من حين اواخر الدولةالاموية حين شرع القرن الثالث تابعواالتابعين ينقرض اكثرهم فان الاعتبار فى القرون الثلاثة بجمهوراهل القرن وهم وسطه وجمهورالصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الاربعة حتى انه لم يكن بقى من اهل بدر الا نفر قليل وجمهور التابعين باحسان انقرضوا فى اواخر عصر اصاغر الصحابة فى امارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين انقرضوا فى اواخر الدوله الاموية واوائل الدولة العباسية وصار فى ولاة الاموركثير من الاعاجم وخرج كثير من الامر عن ولاية العرب وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم وظهر ماقاله النبي ثم يفشو الكذب حتى يشهدالرجل ولا بستشهد ويحلف ولا يستحلف حدث ثلاثة اشياء الراي و الكلام و التصوف وحدث التجهم وهو نفى الصفات وبازائه التمثيل فكان جمهور الرأى من الكوفة اذ هو غالب على أهلها مع ما كان فيهم من التشيع الفاحش وكثرة الكذب فى الرواية مع ان فى خيار اهلها من العلم والصدق والسنة والفقه والعبادة امر عظيم لكن الغرض ان فيها نشأ كثرة الكذب فى الرواية وكثرة الآراء فى الفقه والتشيع فى الاصول وكان جمهور الكلام والتصوف فى البصرة فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن اتبعهما من اهل الكلام والاعتزال [1]

وجوب الولاية

أخبر الله فى كتابه انه أنزل الكتاب والحديد ليقوم الناس بالقسط فقال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ ولهذا أمر النبى أمته بتولية ولاة أمور عليهم وأمر ولاة الأمور ان يردوا الأمانات الى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل وأمرهم بطاعة ولاة الامور فى طاعة الله تعالى ففى سنن أبى داود عن أبى سعيد ان رسول الله قال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٥٤-٣٥٨

اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم   وفى سننه ايضا عن أبى هريرة مثله وفى مسند الامام احمد عن عبد الله ابن عمر أن النبى قال   لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الارض الا أمروا أحدهم فاذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات ان يولى أحدهم كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو اكثر من ذلك ولهذا كانت الولاية لمن يتخذها دينا يتقرب به الى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الامكان من أفضل الاعمال الصالحة حتى قد روى الامام أحمد فى مسنده عن النبى انه قال إن أحب الخلق الى الله امام عادل وأبغض الخلق الى الله امام جائر [1]

أحب الخلق إلى الله إمام عادل

المقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من امر دنياهم وهو نوعان قسم المال بين مستحقيه وعقوبات المعتدين فمن لم يعتد أصلح له دينه ودنياه ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقيموا بينكم دينكم فلما تغيرت الرعية من وجه والرعاة من وجه تناقضت الأمور فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه وكان منن أفضل المجاهدين في سبيل الله فقد روي يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وفي مسند الإمام أحمد عن النبي أنه قال أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغضهم إليه إمام جائر وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إني اخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجنة ثلاثة سلطان مقسط ورجل رحيم القلب بكل ذي قربى ومسلم ورجل غني عفيف متصدق وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الساعي على الصدقة بالحق كالمجاهد في سبيل الله وقد قال الله تعالى لما أمر بالجهاد وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله أخرجاه في الصحيحين فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه وهكذا قال الله تعالى{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فالمقصود من ارسال الرسل وإنزال الكتب أني قوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال تعالى وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٦٤

الدين بالمصحف والسيف وقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا يعني السيف من عدل عن هذا يعني المصحف [1]

العدل الحقيقى قد يكون متعذرا

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ أن العدل جماع الدين والحق والخير كله والعدل الحقيقى قد يكون متعذرا أو متعسرا إما علمه وإما العمل به لكون التماثل من كل وجه غير متمكن او غير معلوم فيكون الواجب فى مثل ذلك ما كان اشبه بالعدل وأقرب إليه وهى الطريقة المثلى ولهذا قال سبحانه { وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا }الأنعام١٥٢ [2]

إن الأمر بالإحسان والعفو يحسنه كل أحد وأما معرفة العدل والحكم بين الناس به فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس ولهذا يوجد الذي يصلح بين الناس بالإحسان خلق كثير وأما الذي يحسن أن يفصل بينهم بالعدل فناس قليل والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ [3]

العلم هو طريق إلى العمل وسبب

والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة كما يعرف الخيرات الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة فيفرق بين أحكام الأمور الواقعة الكائنة والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة ليقدم ما هو أكثر خيرا وأقل شرا علي ما هو دونه ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما فإن من لم يعرف الواقع في الخلق والواجب في الدين لم يعرف أحكام الله في عباده وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح وإذا عرف ذلك فلا بد أن يقترن بعلمه العمل الذي أصله محبته لما يحبه الله ورسوله وبغضه لما يبغضه الله ورسوله وما اجتمع فيه الحبيب والبغيض المأمور به والمنهي عنه أو الحلال والمحظور أعطي كل ذي حق حقه ليقوم الناس بالقسط فإن الله بذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل فالعلم بالعدل قبل فعل العدل فإذا علم وأحب كان من تمامه الجهاد عليه كما قال تعالي {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ }الحديد٢٥ والعلم هو طريق إلي العمل وسبب كما قيل في قوله تعالي {وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً }الكهف٨٤ أي علما فالعلم بالخير سبب إلى فعله والعلم بالشر سبب إلى منعه

---

[1] السياسة الشرعية ج: ١ ص: ٢٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٣٢

[33] الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ١٠٨

هذا مع حسن النية وإلا فالنفس الأمارة بالسوء قد يكون علمها بالسوء سبب لفعله وبالخير سبب لمنعه وكذلك الإثم والبغي بغير الحق مثل الخمر الذي اتخذ منه أنواع من المسكرات وقيل إنها حلال وسميت بغير أسماء الخمر وهي من الخمر وكذلك ظلم العباد في النفوس والأموال والأعراض فيه ما قد سمي حقا وعدلا وشرعا وسياسة وجهادا في سبيل الله وهو من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يحصيه إلا الله وكذلك الإشراك بالله بغير حق والقول بما لا يعلم مثل أنواع الغلو في الدين واتخاذ العلماء والعباد أربابا من دون الله والقول بتحريم الحلال وتحليل الحرام وأنواع الإشراك بالمخلوقات عبادة لها واستعانة بها وغلوا فيها وقولا علي الله في أسمائه وصفاته وأحكامه ما قد دخل في ذلك من الباطل الذي سمي بأسماء محمودة أو غير مذمومة كالعبادة والزهادة والتحقيق وأصول الدين والفقه والعلم والتوحيد والكلام والفقر والتصوف ما لا يحصيه إلا الله [1]

بيان حال أئمة البدع وتحذير الأمة منهم واجب

قال النبى الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وقد قالوا لعمر بن الخطاب فى أهل الشورى أمر فلانا وفلانا فجعل يذكر فى حق كل واحد من الستة وهم أفضل الأمة أمرا جعله مانعا له من تعيينه واذا كان النصح واجبا فى المصالح الدينية الخاصة والعامة مثل نقلة الحديث الذين يغلطون أو يكذبون كما قال يحي بن سعيد سألت مالكا والثورى والليث بن سعد أظنه والأوزاعى عن الرجل يتهم فى الحديث أو لا يحفظ فقالوا بين أمره وقال بعضهم لاحمد ابن حنبل انه يثقل على أن أقول فلان كذا وفلان كذا فقال اذا سكت أنت وسكت أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة او العبادات المخالفة للكتاب والسنة فان بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لاحمد بن حنبل الرجل يصوم ويصلى ويعتكف أحب اليك أو يتكلم فى أهل البدع فقال اذا قام وصلى واعتكف فانما هو لنفسه واذا تكلم فى أهل البدع فانما هو للمسلمين هذا أفضل فبين أن نفع هذا عام للمسلمين فى دينهم من جنس الجهاد فى سبيل الله اذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغى هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب فان هؤلاء اذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين الا تبعا وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء وقد قال النبى إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وذلك ان الله يقول فى كتابه { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فأخبر انه أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانه أنزل الحديد كما ذكره فقوام الدين بالكتاب الهادى والسيف الناصر { وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً }الفرقان٣١ والكتاب هو الأصل ولهذا أول ما بعث الله رسوله أنزل عليه الكتاب ومكث بمكة لم يأمره بالسيف حتى هاجر وصار له أعوان على الجهاد وأعداء الدين نوعان الكفار والمنافقون وقد أمر الله نبيه بجهاد الطائفتين فى قوله { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ }التوبة٧٣ و

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١١٩

التحريم٩ فى آيتين من القرآن فاذا كان أقوام منافقون يبتدعون بدعا تخالف الكتاب ويلبسونها على الناس ولم تبين للناس فسد أمر الكتاب وبدل الدين كما فسد دين أهل الكتاب قبلنا بما وقع فيه من التبديل الذى لم ينكر على أهله [١]

القسط فى جميع أمور الدين والدنيا

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ أمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة وان يعدل بين الناس كلهم فيعطى كل ذى حق حقه ويمنع كل مبطل عن باطله فان القسط والعدل فى جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به وهو المقصود بارسال الرسل وإنزال الكتب [٢]

الكلام يجب ان يكون بالعلم والقسط

والكلام يجب ان يكون بالعلم والقسط فمن تكلم فى الدين بغير علم دخل فى قوله تعالى {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ }الإسراء٣٦ وفى قوله تعالى { وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }الأعراف٣٣ ومن تكلم بقسط وعدل دخل فى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ }النساء١٣٥ وفى قوله تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ }الأنعام١٥٢ وفى قوله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ [٣]

من أعظم أسباب ظهور الدين ظهور المعارضين

فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضيا لظهوره كما وعد به في الكتاب فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين وبيان حقيقة أنباء المرسلين ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين وذلك أن الحق إذا جحد وعورض بالشبهات أقام الله تعالى له مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة فالقرآن لما كذب به المشركون واجتهدوا على ابطاله بكل طريق مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله ثم بالإتيان بعشر سور ثم بالإتيان بسورة واحدة كان ذلك مما دل ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص:٢٣١- ٢٣٨

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٤٢

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٤١

الاجتهاد وقوة الأسباب ولو اتبعوه من غير معارضة وإصرار على التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام وأبطل الله ما جاؤا به كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات وبين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشيطان من التصرفات فإن بين هذين فروقا متعددة منها ما ذكره الله تعالى في قوله { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{٢٢١} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ {٢٢٢} سورة الشعراء الآيتان ٢٢١-٢٢٢ ومنها ما بينه في آيات التحدي من آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل فضلا عن الأقوى ولا يمكن أحدا إبطالها بخلاف خوارق السحرة والشياطين فإنه يمكن معارضتها بمثلها وأقوى منها ويمكن إبطالها وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ويموهون في ذلك بما يلفقونه من منقول ومعقول كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وعد بظهوره على الدين كله بالبيان والحجة والبرهان ثم بالسيف واليد والسنان قال الله تعالى{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{٢٥} سورة الحديد الآية ٢٥ وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل والخالي من العاطل والهدى من الضلال والصدق من المحال والغي من الرشاد والصلاح من الفساد والخطأ من السداد وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب [1]

كل من قرب للسنة كان اقل اختلافا ممن بعد عنها

فان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب كان اعظم فى تفرقهم واختلافهم فانهم يكونون اضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابى امامة عن النبى انه قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل ثم قرأ قوله تعالى { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ }الزخرف٥٨ اذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه الا كتابا منزل ونبى مرسل كما قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة٢١٣ الآية وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وقال {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ }النساء٥٩ الآية وقد بين الله في كتابه من الامثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يعرف به الحق والباطل وأمر الله بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف واخبران أهل الرحمة لا يختلفون فقال { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ{١١٨} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ {١١٩} هود ١١٨-١١٩ ولهذا يوجد اتبع

[1] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٨٧

الناس للرسول اقل اختلافا من جميع الطوائف المنتسبة للسنة وكل من قرب للسنة كان اقل اختلافا ممن بعد عنها كالمعتزلة والرافضة فنجدهم اكثر الطوائف اختلافا[١]

الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية والمقاييس العقلية

ومن اعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف فاذا رأى الشيئين المتماثلين علم ان هذا مثل هذا فجعل حكمها واحد كما اذا رأى الماء والماء والتراب والهواء والهواء ثم حكم بالحكم الكلي على القدر المشترك واذا حكم على بعض الاعيان ومثله بالنظير وذكر المشترك كان احسن فى البيان فهذا قياس الطرد واذا رأى المختلفين كالماء والتراب فرق بينهما وهذا قياس العكس وما أمر الله به من الاعتبار فى كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس فانه لما اهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم كان من الاعتبار ان يعلم ان من فعل مثل ما فعلوا اصابه مثل ما اصابهم فيتقى تكذيب الرسل حذرا من العقوبة وهذا قياس الطرد ويعلم ان من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك وهذا قياس العكس وهو المقصود من الاعتبار بالمعذبين فان المقصود أن ما ثبت فى الفرع عكس حكم الاصل لا نظيره والاعتبار يكون بهذا وبهذا وقال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ }يوسف١١١ وقال {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ }آل عمران١٣ الى قوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ }آل عمران١٣ وقد قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧ وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ والميزان فسره السلف بالعدل وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر تعالى انه انزل ذلك كما انزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من الميزان وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات فاذا علمنا ان الله تعالى حرم الخمر لما ذكره من انها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وتوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ثم رأينا النبيذ يماثلها فى ذلك كان القدر المشترك الذي هو العلة هو الميزان الذي انزله الله فى قلوبنا لنزن به هذا ونجعله مثل هذا فلا نفرق بين المتماثلين فالقياس الصحيح هو من العدل الذي امر الله به ومن علم الكليات من غير معرفة المعين فمعه الميزان فقط والمقصود بها وزن الامور الموجودة في الخارج وإلا فالكليات لولا جزئياتها المعينة لم يكن بها اعتبار كما انه لولا الموزونات لم يكن الى الميزان من حاجة ولا ريب أنه إذا حضر أحد الموزونين واعتبر بالآخر بالميزان كان اتم فى الوزن من ان يكون الميزان وهو الوصف الكلي المشترك في العقل اى شيء حضر من الاعيان المفردة وزن بها مع مغيب الآخر ولا يجوز لعاقل ان يظن ان الميزان العقلى الذي انزله الله هو منطق اليونان لوجوه احدهما ان الله انزل الموازين مع كتبه قبل ان يخلق اليونان من عهد نوح وابراهيم وموسى وغيرهم وهذا المنطق اليوناني وضعه ارسطو قبل المسيح بثلاثمائة سنة فكيف كانت الامم المتقدمة تزن به الثانى أن أمتنا أهل الاسلام ما زالوا يزنون بالموازين العقلية ولم يسمع سلفا بذكر هذا المنطق اليونانى وإنما ظهر في الاسلام لما عربت الكتب الرومية فى عهد دولة المأمون أو قريبا منها الثالث انه ما زال نظار المسلمين بعد ان عرب وعرفوه يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون اليه ولا الى أهله فى موازينهم العقلية والشرعية ولا يقول القائل ليس فيه مما انفردوا به إلا إصطلاحات لفظية وإلا

١

فالمعانى العقلية مشتركة بين الامم فانه ليس الأمر كذلك بل فيه معانى كثيرة فاسدة ثم هذا جعلوه ميزان الموازين العقلية التى هى الأقيسة العقلية وزعموا أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن ان يزل في فكره وليس الامر كذلك فانه لو احتاج الميزان الى ميزان لزم التسلسل و أيضا فالفطرة ان كانت صحيحة وزنت بالميزان العقلي وان كانت بليدة او فاسدة لم يزدها المنطق الا بلادة وفسادا ولهذا يوجد عامة من يزن به علومه لابد ان يتخبط ولا يأتى بالادلة العقلية على الوجه المحمود ومتى أتى بها على الوجه المحمود اعرض عن اعتبارها بالنطق لما فيه من العجز والتطويل وتبعيد الطريق وجعل الواضحات خفيات وكثرة الغلط والتغليط فانهم اذا علموا عن المعرفة الفطرية العقلية للمعينات التى أقيسة كلية وضعوا الفاظها وصارت مجملة تتناول حقا وباطلا حصل بها من الضلال ما هو ضد المقصود من الموازين وصارت هذه الموازين عائلة لا عادلة وكانوا فيها من المطففين {الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{٢} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{٣} المطففين ٢-٣ واين البخس فى الاموال من البخس في العقول والأديان مع أكثرهم لا يقصدون البخس بل هم بمنزلة من ورث موازين من ابيه يزن بها تارة له وتارة عليه ولا يعرف أهي عادلة ام عائلة والميزان التى انزلها الله مع الكتاب ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه فتسوى بين المتماثلين وتفرق بين المختلفين بما جعله الله فى فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف فإذا قيل إن كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله مما ارسل به الرسل قيل لأن الرسل ضربت للناس الامثال العقلية التى يعرفون بها التماثل والاختلاف فان الرسل دلت الناس وارشدتهم الى ما به يعرفون العدل ويعرفون الأقسية العقلية الصحيحة التى يستدل بها على المطالب الدينية فليست العلوم النبوية مقصورة على الخبر بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التى بها يتم دين الله علما وعملا وضربت الأمثال فكملت الفطرة بما نبتها عليه وارشدتها لما كانت الفطرة معرضة عنه أو كانت الفطرة قد فسدت بما يحصل لها من الآراء والاهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد والقرآن والحديث مملوءان من هذا يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية٢١ الآية وقوله {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٦}القلم٣٥ -٣٦ اي هذا حكم جائر لا عادل فان فيه تسوية بين المختلفين ومن التسوية بين المتماثلين قوله {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ }القمر٤٣ وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم }البقرة٢١٤ الآية و المقصود التنبيه على ان الميزان العقلى حق كما ذكر الله فى كتابه وليست هي مختصة بمنطق اليونان بل هي الاقسية الصحيحة المتضمنة للتسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين سواء صيغ ذلك بصيغة قياس الشمول او بصيغة قياس التمثيل وصيغ التمثيل هي الاصل وهي الحمل والميزان هو القدر المشترك وهو الجامع[١]

[١]مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٣٩-٢٤٣

من الموازيين التي أنزلها الله عز وجل

١ـالقياس العقلي من الميزان الذي أنزله الله

فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد وذم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعمى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ{٢٣} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ {٢٤} ص ٢٣- ٢٤ الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }الزمر٢٧ وقال تعالى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }العنكبوت٤٣ وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧ وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ [1]

ان الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين وأما اجماع الأمة فهو في نفسه حق لا تجتمع الأمة على ضلالة وكذلك القياس الصحيح حق فان الله بعث رسله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب والميزان يتضمن العدل وما يعرف به العدل وقد فسروا انزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح وقد ضرب الله فى القرآن من كل مثل وبين القياس الصحيح وهى الأمثال المضروبة ما بينه من الحق لكن القياس الصحيح يطابق النص فان الميزان يطابق الكتاب والله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل فهو أنزل الكتاب وانما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ }المائدة٤٩ { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ }المائدة٤٢ واما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة ولله الحمد على ضلالة كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة فقال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ }آل عمران١١٠ وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر [2]

٢ ـ التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين

أنهم(الفلاسفة) إذا عدلوا عن المعرفة الفطرية العقلية للمعينات الى اقيسة كلية وضعوا الفاظها وصارت مجملة تتناول حقا وباطلا حصل بها من الضلال ما هو ضد المقصود من الموازين وصارت هذه الموازين عائلة لا عادلة وكانوا فيها من المطففين { الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٣٤٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٧٦-١٧٧

يَسْتَوْفُونَ{٢} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{٣} المطففين ٢-٣ واين البخس في الاموال من البخس في العقول والاديان مع ان اكثرهم لا يقصدون البخس بل هم بمنزلة من قد ورث موازين من ابيه يزن بها تارة له وتارة عليه ولا يعرف أهى عادلة ام عائلة والميزان التي انزلها الله مع الكتاب حيث قال الله تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧ وقال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ }الحديد٢٥هي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشئ بمثله وخلافه فيسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عبادة وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف فان قيل إذا كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل قيل لان الرسل ضربت للناس الامثال العقليه التي يعرفون بها التماثل والاختلاف فان الرسل دلت الناس وارشدتهم الى ما به يعرفون العدل ويعرفون الاقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علما وعملا وضربت الامثال فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه او كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الاراء والاهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد وبينت ما كانت الفطرة معرضة عنه حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبينها رسله والقرآن والحديث مملوء من هذا يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة ويبين طرق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية٢١ وقوله {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٦}القلم٣٥ -٣٦ أي هذا حكم جائر لا عادل فان فيه تسوية بين المختلفين وقال {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص٢٨ ومن التسوية بين المتماثلين قوله {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ }القمر٤٣ وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ }البقرة٢١٤ والقرآن مملوء من ذلك لكن ليس هذا موضعه وإنما المقصود التنبيه على جنس الميزان العقلى وانها حق كما ذكر الله في كتابه وليست هي مختصة بمنطق اليونان وإن كان فيه قسط منها بل هى الاقيسة الصحيحة المتضمنة التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين سواء صيغ ذلك بصيغة قياس الشمول أو بصيغة قياس التمثيل وصيغ التمثيل هى الاصل وهي أكمل والميزان القدر المشترك وهو الجامع وهو الحد الاوسط وإنزاله تعالى الميزان مع الرسل كانزاله الايمان وهو الامانة معهم والايمان لم يحصل إلا بهم كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى٥٢ وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الاخر حدثنا ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة وحدثنا عن رفع الامانة قال ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منترا وليس فيه شئ فقد بين في هذا الحديث أن الامانة التي هى الايمان أنزلها في أصل القلوب فان الجذر هو الاصل وهذا إنما كان بواسطة الرسل لما اخبروا بما اخبروا به فسمع ذلك ف ألهم الله القلوب الايمان وانزله في القلوب وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب لما بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الامور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الالات الحسية ما

يحتاج اليه في ذلك كما وضعت موازين النقدين وغير ذلك وهذا من وضعه تعالى الميزان قال تعالى { وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ{٧} أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ{٨} وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ{٩} الرحمن ٧-٩ وقال كثير من المفسرين هو العدل وقال بعضهم ما يوزن به ويعرف العدل وهما متلازمان [1]

٣-لكل حق ميزان يوزن به

و الانبياء فانهم اخبروا بالقضايا الصادقة التى تفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب فكل ما ناقض الصدق فهو كاذب وكل ما ناقض الحق فهو باطل فلهذا جعل الله ما أنزله من الكتاب حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه وأنزل ايضا الميزان وما يوزن به ويعرف به الحق من الباطل ولكل حق ميزان يوزن به بخلاف ما فعله الفلاسفة المنطقيون فانه لا يمكن ان يكون هاديا للحق ولا مفرقا بين الحق والباطل ولا هو ميزان يعرف به الحق من الباطل وأما المتكلمون فما كان في كلامهم موافقا لما جاءت به الانبياء فهو منه وما خالفه فهو من البدع الباطلة شرعا وعقلا [2]

٤-ننزل الناس منازلهم

قالت عائشة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم وهذا من القسط الذي أمر الله به وأنزل به كتبه وبعث به رسوله قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحديد٢٥ [3]

٥-المجهول لا يعرف الا بالمعلومات

ان المجهول لا يعرف الا بالمعلومات والناس يحتاجون الى ان يزنوا ما جهلوه بما علموه وهذا من الموازين التى انزلها الله حيث قال {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى١٧ وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحديد٢٥ وهذا موجود عند امتنا وغير امتنا [4]

ليس لأحد أن يمتنع من شرع الله لاختلاف لغته

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣٨٢-٣٨٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٥١

[3] العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٨١

[4] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ١٧٢

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ والله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذي أنزله وهو القسط الذي بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغته مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة والناس في مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها فيتبايعون وبينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض ويتراسلون في عمارة بلادهم وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم [1]

الحديد ينزله الله

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ انزال الميزان ذكره مع الكتاب فى موضعين وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل وعن مجاهد رحمه الله هو ما يوزن به ولا منافاة بين القولين وكذلك العدل وما يعرف به العدل منزل فى القلوب والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين كقوله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ }الأنفال١٢ فذلك الثبات نزل فى القلوب بواسطة الملائكة وهو السكينة قال النبى من طلب القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده فالله ينزل عليه ملكا وذلك الملك يلهمه السداد وهو ينزل فى قلبه ومنه حديث حذيفة رضى الله عنه الذى فى الصحيحين عن النبى قال أن الله أنزل الامانة فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة والأمانة هى الايمان أنزلها فى أصل قلوب الرجال وهو كانزال الميزان والسكينة وقد ذكر سبحانه انزال الحديد والحديد يخلق فى المعادن وما يذكر عن إبن عباس رضى الله عنهما أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد السندان والكلبتان والمنقعة والمطرقة والابرة فهو كذب لا يثبت مثله وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض فأنزل الحديد والماء والنار والملح حديث موضوع مكذوب فى اسناده سيف بن محمد بن أخت سفيان الثورى رحمه الله وهو من الكذابين المعروفين بالكذب قال بن الجوزى هو سيف بن محمد إبن أخت سفيان الثورى يروى عن الثورى وعاصم الأحوال والاعمش قال أحمد رحمه الله هو كذاب يضع الحديث وقال مرة ليس بشىء وقال يحى كان كذابا خبيثا وقال مرة ليس بثقة وقال أبو داود كذاب وقال ذكريا الساجى يضع الحديث وقال النسائى ليس بثقة ولا مأمون وقال الدار قطنى ضعيف متروك والناس يشهدون ان هذه الآلات تصنع من حديد

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٠٦-١٠٧

المعادن فان قيل أن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات فهذه مكابرة للعيان وأن قيل بل نزل معه آلة واحدة وتلك لا تعرف فأى فائدة فى هذا لسائر الناس ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات مع أن المأثور أن أول من خط وخاط ادريس عليه السلام وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالابرة ثم أخبر أنه أنزل الحديد فكان المقصود الاكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما اشبه ذلك الذى به ينصر الله ورسوله وهذه لم تنزل من السماء فان قيل نزلت الآلة التى يطبع بها قيل فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة والآلة وحدها لا تكفى بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله معناه جعله نزلا كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسنا أى جعله نزلا قال ومثله قوله تعالى {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ }الزمر٦ وهذا ضعيف فإن النزل إنما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به قال الله تعالى {فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ }الواقعة٩٣ والضيافة سميت نزلا لأن العادة ان الضيف يكون راكبا فينزل فى مكان يؤتى إليه بضيافته فيه فسميت نزلا لاجل نزوله ونزل ببنى فلان ضيف ولهذا قال نوح عليه السلام { رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ }المؤمنون٢٩ لأنه كان راكبا فى السفينة وسميت المواضع التى ينزل بها المسافرون منازل لأنهم يكونون ركبانا فينزلون والمشاة تبع للركبان وتسمى المساكن منازل وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق لأنه أخرجه من المعادن وعلمهم صنعته فان الحديد انما يخلق فى المعادن والمعادن إنما تكون فى الجبال فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال لينتفع به بنو آدم [1]

الفرق بين أمره الدينى وخلقه الكونى

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلقه الكونى فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء فى ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله فى كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك فى أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال فى الحكم الدينى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }المائدة٥٠ وقال فى الحكم الكونى {فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }يوسف٨٠ وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة فى مسألة الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية وقد يجمع الحكمين مثل ما فى قوله{ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ }يوسف٤٠ وقال فى الإرسالين{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }الفتح٨ {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ }الحديد٢٥ وقد قال {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً }مريم٨٣ وقال {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ }الحجر٢٢ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٢٤٩-٢٥٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤١٣

وفي ذلك حكم أخرى

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وفي إنزال الكتاب والميزان حكم أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦} سورة يس الآية ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم[١]

لطائف لغوية

١-قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥

قوي عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب [٢]

---

[١] القواعد النورانية ج: ١ ص: ٤٣٣

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

الحديد ٢٦-٢٧

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٢٦} ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٢٧}

يعم جميع من أرسله الله

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ وقوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا اسم جمع مضاف يعم جميع من أرسله الله تعالى الثاني أن أحق الرسل بهذا الحكم الذين سماهم في القرآن كما قال تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{١٦٣} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{١٦٤} النساء ١٦٣-١٦٤[1]

أن الرسل الذين ذكرهم الله في قوله لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ يتناول الرسل الذين أرسلهم الله تعالى كلهم ومن احقهم بذلك الرسل الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلى عباده وقال تعالى { وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }الحديد٢٥ فذكر أنه أنزل الحديد أيضا ليتبين من يجاهد في سبيل الله بالحديد ثم قال بعد ذلك { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٢٦} ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٢٧} الحديد ٢٦-٢٧ وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التي امتاز بها عن غيره مما دخل في العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد ويأمر فلانا وفلانا بأن يفعلوا كذا وكذا ومثل أن يقال أرسل رسله إلى فلان وأرسل إليهم فلانا وأمره بكذا وكذا قال تعالى ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة وقال في نوح {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ }الصافات٧٧ وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته كما قال تعالى في

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٢٧

إبراهيم ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ {٢٧} الحديد ٢٧ فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى بن مريم وآتاه الإنجيل وهؤلاء رسل قبل المسيح وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحدا من أتباع المسيح بل أخبر أنه جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة[1]

الرسول الذى بين أهل الكفر يكون أكمل من غيره

الرسول الذى ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأبيد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم ولهذا يضيف الله الأمر إليها في مثل قوله { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد ٢٦ {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ }آل عمران٣٣ الآية وذلك ان نوحا أول رسول بعث إلى المشركين وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين وقوم إبراهيم مبدأه من عبادة الكواكب ذاك الشرك الأرضي وهذا السماوي ولهذا سد ذريعة هذا وهذا[2]

لم يثن الله على أحد فى القرآن بنسبه

لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلا لا على ولد نبي ولا على أبي نبي وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم وإذا ذكر صنفا وأثنى عليهم فلما فيهم من الإيمان والعمل لا لمجرد النسب ولما ذكر الأنبياء ذكرهم في الأنعام وهم ثمانية عشر قال {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام٨٧ فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم لا بنفس القرابة وقد يوجب النسب حقوقا ويوجب لأجله حقوقا ويعلق فيه أحكاما من الإيجاب والتحريم والإباحة لكن الثواب والعقاب والوعد والوعيد على الأعمال لا على الأنساب ولما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ }آل عمران٣٣ وقال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً }النساء٥٤ كان هذا مدحا لهذا المعدن الشريف لما فيهم من الإيمان والعمل الصالح ومن لم يتصف بذلك منهم لم يدخل في المدح كما في قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد٢٦ وقال تعالى {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ }الصافات١١٣ [3]

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٤١-٢٤٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣١

[3] منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٢٢٣

امتن الله على نوح وإبراهيم

قال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد ٢٦ فقد جعلهم نوعين نوعا مؤمنين ونوعا فاسقين وهم أكثرهم[١]

كما امتن الله على نوح وإبراهيم بقوله { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } الحديد٢٦ بما جعل في ذريتهما من الإيمان والنبوة[٢]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد ٢٦ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ } الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا } الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ} النحل١٢١ { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا[٣]

ليس فى القرآن مدح للرهبانية

قال تعالى { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد٢٧ فهو حق كما قال تعالى وليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم أي وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله {مَا جَعَلَ

---

[١]الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢١١

[٢]الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٢٢٠

[٣]مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦

اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }المائدة١٠٣ وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبته للمشروع بقوله تعالى { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً }المائدة٤٨ وقوله {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ }الحج٦٧ فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله وللناس في قوله ورهبانية قولان أحدهما أنها منصوبة يعني ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده أو يقال هذا الفعل عمل في المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله {يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الإنسان٣١ وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ }الأعراف٣٠وعلى هذا القول فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة والرحمة والقول الثاني إنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة ويكون هذا جعلا خلقيا كونيا والجعل الكوني يتناول الخير والشر كقوله تعالى وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار وعلى هذا القول فلا مدح للرهبانية بجعلها في القلوب فثبت على التقديرين أنه ليس في القرآن مدح للرهبانية ثم قال إلا ابتغاء رضوان الله أي لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع وهذا يسمى استثناء منقطعا كما في قوله {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً }النساء١٥٧ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً }النساء٢٩ وهذا أصح الأقوال في هذه الآية كما هو مبسوط في موضع آخر[1]

غلط الذين جعلوا الرهبانية ممدوحة

قال تعالى { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد٢٧ ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله فإن الله لا يفعل شيئا ابتغاء رضوان نفسه ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين كما قد بسط في موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية وما رعوها حق رعايتها وليس في ذلك مدح لهم بل هو ذم ثم قال تعالى فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وهم الذين آمنوا بمحمد وكثير منهم فاسقون ولو أريد الذين آمنوا بالميسح أيضا فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل وإلا فكلهم يقولون إنهم مؤمنون بالمسيح وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل ومن آمن بمحمد لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد فإن قيل قد قال بعض الناس إن قوله تعالى ورهبانية ابتدعوها عطف على رأفة ورحمة وإن المعنى أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية أيضا ابتدعوها وجعلوا الجعل شرعيا ممدوحا قيل هذا غلط لوجوه منها أن

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٨٨

الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت في قلب كل من اتبعه ومنها أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة فإنهم لم يبتدعوها وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم فإن كان المراد هوالجعل الشرعي الديني لا الجعل الكوني القدري فلم تدخل الرهبانية في ذلك وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني فلا مدح للرهبانية في ذلك ومنها أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب والرهبانية لا تختص بالقلوب بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك وقد كان طائفة من الصحابة رضوان الله عليهم هموا بالرهبانية فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} المائدة٨٧ وثبت في الصحيحين أن نفرا من أصحاب النبي قال أحدهم أما أنا فأصوم لا أفطر وقال آخر أما أنا فأقوم لا أنام وقال آخر أما أنا فلا أتزوج النساء وقال آخر أما أنا فلا آكل اللحم فقام النبي خطيبا فقال ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني وفي صحيح البخاري أن النبي رأى رجلا قائما في الشمس فقال ما هذا قالوا هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه وثبت في صحيح مسلم عن النبي أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وفي السنن عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة قال الترمذي حديث حسن صحيح وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فإن قيل قد قال طائفة معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وقالت طائفة ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله قيل كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم بل لم يشرعها لا إيجابا ولا استحبابا ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك فإنه قال ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها فإن قيل قوله تعالى فما رعوها حق رعايتها يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين قيل ليس في الكلام ما يدل على ذلك بل يدل على أنهم مع عدم الرعاية يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها وإن لم يكن واحد منهما محمودا بل مذموما مثل نصارى بني تغلب ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شرا منهم والنار دركات كما أن الجنة درجات وأيضا فالله تعالى إذا كتب شيئا على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله وأيضا فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية وأما قول من قال ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن في ذلك مدح للرهبانية فإن من فعل ما لم يأمر الله به بل نهاه عنه مع حسن مقصده غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه ولا على ما ليس بواجب ولا مستحب فكيف والكلام لا يدل عليه فإن الله قال ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ولم يقل ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ولا قال ما ابتدعوها إلا ابتغاء

رضوان الله ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله لكان منصوبا على المفعولية ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفي الابتداع بل أثبته لهم وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحظور لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه عن تركه والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم ينه عنه [1]

ابتلى طوائف من المسلمين من الرهبانية المبتدعة

وأما تطاول بعضهم إلى السنة بما يظن أنه من عند الله فكوضع الوضاعين الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين وليس بحجة وهذا الضرب من نوع أخلاق اليهود وذمها في النصوص كثير لمن تدبر في كتاب الله وسنة رسوله ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من الأحداث وقال سبحانه عن النصارى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}المائدة٧٧ وقال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ }المائدة١٧ إلى غير ذلك من المواضع ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلال المتعبدة والمتصوفة حتى خالط كثيرا منهم من مذاهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه وقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة٣١ الآية وفسره النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم أحلوا الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمره به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال وقال سبحانه عن الضالين { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ }الحديد٢٧ وقد ابتلى طوائف من المسلمين من الرهبانية المبتدعة بما الله به عليم [2]

وصف النصارى بالشرك والضلال والغلو والبدع

قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه استكبارا وحسدا وغلوا واتباعا للهوى وهذا هو الغي والنصارى ليس لهم علم بما يفعلونه من العبادة والزهد والأخلاق بل فيهم الجهل والغلو والبدع والشرك جهلا منهم وهذا هو الضلال وإن كان كل من الأمتين فيه ضلال وغي لكن الغي أغلب على اليهود والضلال أغلب على النصارى ولهذا وصف الله اليهود بالكبر والحسد واتباع الهوى والغي وإرادة العلو في الأرض والفساد قال تعالى { أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ }البقرة٨٧ وقال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٩٣-٢٠٠

[2] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٩

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً }النساء٥٤ وقال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ }الأعراف١٤٦ وقال تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء٤ ووصف النصارى بالشرك والضلال والغلو والبدع فقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة٣١ وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة٧٧ وقال تعالى { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا }الحديد٢٧ [1]

وقد روى في حديث عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ما عبدوهم قال أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فتلك عبادتهم إياهم وهذا الغلو الذي في النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذي كان يهوديا فأسلم واتبع المسيح نفاقا ليلبس على النصارى دينهم فأحدث لهم مقالات غالية وكثرت البدع في النصارى في اعتقاداتهم وعباداتهم كما قال تعالى ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون سورة الحديد ٢٧ [2]

من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الاسلام

قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }الملك٢ قال أخلصه وأصوبه قيل له يا أبا على أما أخلصه واصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وكان يقول من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الاسلام ومن زوج كريمته لصاحب بدعة فقد قطع رحمها ومن انتهر صاحب بدعة ملاء الله قلبه أمنا وإيمانا وأكثر إشارته وإشارات غيره من المشائخ بالبدعة إنما هى إلى البدع فى العبادات والأحوال كما قال عن النصارى { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ }الحديد٢٧ وقال ابن مسعود عليكم بالسبيل والسنة فانه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا فدمعت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدا وان اقتصادا فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم وإن كانت اجتهادا أو اقتصادا على منهاج الأنبياء وسننهم [3]

البدع كلها ضلالة

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص:١٢- ١٣

[2] رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٦٠

[3] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٠٠

قال تعالى { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد٢٧ والدين الذى يتقرب العباد به إلى الله لابد أن يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه وإلا فالبدع كلها ضلالة وما عبدت الأوثان إلا بالبدع وكذلك إدخال الألحان فى الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون وبالجملة فعامة أنواع العبادات والأعياد التى هم عليها لم ينزل بها الله كتابا ولا بعث بها رسولا لكن فيهم رأفة ورحمة وهذا من دين الله بخلاف الأولين فإن فيهم قسوة ومقتا وهذا مما حرمه الله تعالى لكن الأولون لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله [1]

في الامر باتباع شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم مخالفة للرهبانية

ولما نهى الله عن التشبه بهؤلاء الذين قست قلوبهم ذكر أيضا في آخر السورة حال الذين ابتدعوا الرهبانية فما رعوها حق رعايتها فعقبها بقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد ٢٨-٢٩ فإن الإيمان بالرسول هو تصديقه وطاعته واتباع شريعته وفي ذلك مخالفة للرهبانية لأنه لم يبعث بها بل نهى عنها وأخبر أن من اتبعه من أهل الكتاب كان له أجران وبذلك جاءت الأحاديث الصحيحة من طريق ابن عمر وغيره في مثلنا ومثل أهل الكتاب وقد صرح صلى الله عليه وسلم بذلك فيما رواه أبو داود في سننه من حديث ابن وهب أخبرني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم هذا الذي في رواية اللؤلؤي عن أبي داود وفي رواية ابن داسة عنه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة في زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير بالمدينة فإذا هو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريب منها فلما سلم قال يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته قال إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ثم غدا من الغد فقال ألا تركب وننظر لنعتبر قال نعم فركبا جميعا فإذا بديار باد أهلها وانقضوا وفنوا خاوية على عروشها قال أتعرف هذه الديار فقال نعم ما أعرفني بها وبأهلها هؤلاء أهل ديار أهلكهم الله ببغيهم وحسدهم إن الحسد يطفئ نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه فأما سهل بن أبي أمامة فقد وثقه يحيى بن معين وغيره وروى له مسلم وغيره أما ابن أبي العمياء فمن أهل بيت المقدس ما أعرف حاله لكن رواية أبي داود للحديث وسكوته عنه يقتضي أنه حسن عنده وله شواهد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٦١١

في الصحيح فأما ما فيه من وصف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخفيف ففي الصحيحين عنه أعني أنس بن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجز الصلاة ويكملها وفي الصحيحين أيضا عنه قال ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من صلاة النبي صلى الله عليه وسلم زاد البخاري وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتتن أمه وما ذكره أنس بن مالك من التخفيف فهو بالنسبة إلى ما كان يفعله بعض الأمراء وغيرهم في قيام الصلاة فإن منهم من كان يطيل زيادة على ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله في غالب الأوقات ويخفف الركوع والسجود والإعتدال عما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله في غالب الأوقات ولعل أكثر الأئمة أو كثيرا منهم كانوا قد صاروا يصلون كذلك ومنهم من كان يقرأ في الآخريين مع الفاتحة سورة وهذا كله قد صار مذاهب لبعض الفقهاء وكان الخوارج أيضا قد تعمقوا وتنطعوا كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ولهذا لما صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالبصرة قال عمران بن حصين لقد أذكرني هذا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدلة كان يخفف القيام والقعود ويطيل الركوع والسجود وقد جاء هذا مفسرا عن أنس بن مالك نفسه فروى النسائي عن قتيبة عن العطاف بن خالد عن زيد بن أسلم قال دخلنا على أنس بن مالك فقال صليتم قلنا نعم قال يا جارية هلمي لي وضوءا ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم هذا قال زيد وكان عمر بن عبد العزيز يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود وهذا حديث صحيح فإن العطاف بن خالد المخزومي قال فيه يحيى بن معين غير مرة هو ثقة وقال أحمد بن حنبل هو من أهل مكة ثقة صحيح الحديث روى عنه نحو مائة حديث وقال ابن عدي يروي قريبا من مائة حديث ولم أر بحديثه بأسا إذا حدث عنه ثقة وروى أبو داود والنسائي من حديث عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان حدثني أبي عن وهب بن مانوس سمعت سعيد بن جبير يقول سمعت أنس بن مالك يقول ما صليت وراء أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى يعني عمر بن عبد العزيز قال فحزرنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات وقال يحيى بن معين إبراهيم بن عمر بن كيسان يماني ثقة وقال هشام بن يوسف أخبرني إبراهيم بن عمر وكان من أحسن الناس صلاة وابنه عبد الله قال فيه أبو حاتم صالح الحديث ووهب بن مانوس بالنون يقوله عبد الله هذا وكان عبد الرزاق يقوله بالباء المنقوطة بواحدة من أسفل وهو شيخ كبير قديم قد أخذ عنه إبراهيم هذا واتبع ما حدثه به ولولا ثقته عنده لما عمل بما حدثه به وحديثه موافق لرواية زيد بن أسلم وما أعلم فيه قدحا وروى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس ابن مالك قال ما صليت خلف أحد أوجز صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم متقاربة وكانت صلاة أبي بكر متقاربة فلما كان عمر رضي الله عنه مد في صلاة الفجر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال سمع الله لمن حمده قام حتى نقول قد أوهم ثم يسجد ويقعد بين السجدتين حتى نقول قد أوهم ورواه أبو داود من حديث حماد بن سلمة أنبأنا ثابت وحميد عن أنس بن مالك قال ما صليت خلف رجل أوجز صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال سمع الله لمن حمده قام حتى نقول قد أوهم ثم يكبر ثم يسجد وكان يقعد بين السجدتين حتى نقول قد أوهم فجمع أنس رضي الله عنه في هذا الحديث الصحيح بين الإخبار بإيجاز النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة وإتمامها وبين أن من إتمامها الذي أخبر به إطالة الاعتدالين وأخبر في الحديث المتقدم أنه ما رأى أوجز من صلاته ولا أتم فيشبه والله أعلم أن يكون الإيجاز عاد إلى القيام والإتمام إلى الركوع والسجود لأن القيام لا يكاد يفعل إلا تاما فلا يحتاج إلى الوصف بالإتمام بخلاف

الركوع والسجود والاعتدالين وأيضا فإنه بإيجاز القيام وإطالة الركوع والسجود تصير الصلاة تامة لاعتدالها وتقاربها فيصدق قوله ما رأيت أوجز ولا أتم فأما إن أعيد الإيجاز إلى لفظ لا أتم والإتمام إلى لفظ لا أوجز فإنه يصير في الكلام تناقضا لأن من طول القيام على قيامه صلى الله عليه وسلم لم يكن دونه في إتمام القيام إلا أن يقال الزيادة في الصورة تصير نقصا في المعنى وهذا خلاف ظاهر اللفظ فإن الأصل أن يكون معنى الإيجاز والتخفيف غير معنى الإتمام والإكمال ولأن زيد بن أسلم قال كان عمر يخفف القيام والقعود ويتم الركوع والسجود فعلم أن لفظ الإتمام عندهم هو إتمام الفعل الظاهر وأحاديث أنس كلها تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطيل الركوع والسجود والاعتدالين زيادة على ما فعله أكثر الأئمة وسائر روايات الصحيح تدل على ذلك ففي الصحيحين عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال إني لا آلو أن أصلي لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا قال ثابت فكان أنس يصنع شيئا لا أراكم تصنعونه وإذا رفع رأسه من الركوع انتصب قائما حتى يقول القائل قد نسي وإذا رفع رأسه من السجدة مكث حتى نقول قد نسي وفي رواية في الصحيح وإذا رفع رأسه بين السجدتين وفي رواية للبخاري من حديث شعبة عن ثابت كان أنس ينعت لنا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يصلي فإذا رفع رأسه من الركوع قام حتى نقول قد نسي فهذا يبين لك أن أنسا أراد بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطالة الركوع والسجود والرفع فيهما على ما كان الناس يفعلونه وتقصير القيام عما كان الناس يفعلونه وروى مسلم في صحيحه من حديث جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة فبين أن التخفيف الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم هو تخفيف القراءة وإن كان يقتضي ركوعا وسجودا يناسب القراءة ولهذا قال كانت صلاته متقاربة أي يقرب بعضها من بعض وصدق أنس فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر بنحو الستين إلى المائة يقرأ في الركعتين بطول المفصل بآلم تنزل وهل أتى وبالصافات وبقاف وربما قرأ أحيانا بما هو أطول من ذلك وأحيانا بما هو أخف فأما عمر رضي الله عنه فكان يقرأ في الفجر بيونس وهود ويوسف ولعله علم أن الناس خلفه يؤثرون ذلك وكان معاذ رضي الله عنه قد صلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم العشاء الآخرة ثم ذهب إلى بني عمرو بن عوف بقباء فقرأ فيها بسورة البقرة فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال أفتان أنت يا معاذ إذا أممت الناس فخفف فإن من ورائك الكبير والضعيف وذا الحاجة هلا قرأت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها ونحوهما من السور فالتخفيف الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم معاذا وغيره من الأئمة هو ما كان يفعله بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم فإنه كما قال أنس كان أخف الناس صلاة في تمام وقد قال صلوا كما رأيتموني أصلي ثم إن عرض حال عرف منها إيثار المأمومين للزيادة على ذلك فحسن فإنه صلى الله عليه وسلم قرأ في المغرب بطولى الطوليين وقرأ فيها بالطور وإن عرض ما يقتضي التخفيف عن ذلك فعل كما قال في بكاء الصبي ونحوه فقد تبين أن حديث أنس تضمن مخالفة من خفف الركوع والسجود تخفيفا كثيرا ومن طول القيام تطويلا كثيرا وهذا الذي وصفه أنس ووصفه سائر الصحابة وروى مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه عن هلال بن أبي حميد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال رمقت الصلاة مع محمد

صلى الله عليه وسلم فوجدت قيامه فركعته فاعتداله بعد ركوعه فسجدته فجلسته بين السجدتين فجلسته ما بين التسليم والانصراف قريبا من السواء [1]

أماط بمحمد صلى الله عليه وسلم عن التوراة والإنجيل ما ليس بحقها من التحريف

والله سبحانه أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للناس رحمة وأنعم به نعمة يا لها من نعمة قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }الأنبياء١٠٧ وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ }إبراهيم٢٨ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فإرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده يجمع الله لأمته بخاتم المرسلين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين ما فرقه في غيرهم من الفضائل وزادهم من فضله أنواع الفواضل بل أتاهم كفلين من رحمته كما قال تعالى { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٢٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} سورة الحديد الآية ٢٨ ٢٩ وفي الصحيحين عن ابن عمر وأبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود إلى نصف النهار ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى فقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء فقال الله تعالى فهل ظلمتكم من حقكم شيئا قالوا لا قال الله تعالى فإنه فضلي أعطيه من شئت أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأكمل له ولأمته الدين وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل فأحيا به ما درس من معالم الإيمان وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشك والأرتياب وأقام به منار دينه الذي ارتضاه وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه وأظهر به ما كان مخفيا عند أهل الكتاب وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب وحقق به صدق التوراة الزبور والإنجيل وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل [2]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٩٢-٩٧

[2] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٧٧-٧٨

لا رهبانية فى الاسلام

الامر والنهي الذي يسميه بعض العلماء التكليف الشرعي هو مشروط بالممكن من العلم والقدرة فلا تجب الشريعة على من لا يمكنه العلم كالمجنون والطفل ولا تجب على من يعجز كالاعمى والاعرج والمريض فى الجهاد وكما لا تجب الطهارة بالماء والصلاة قائما والصوم وغير ذلك على من يعجز عنه سواء قيل يجوز تكليف مالا يطاق او لم يجز فانه لا خلاف ان تكليف العاجز الذي لا قدرة له على الفعل بحال غير واقع في الشريعة بل قد تسقط الشريعة التكليف عمن لم تكمل فيه اداة العلم والقدرة تخفيفا عنه وضبطا لمناط التكليف وان كان تكليفه ممكنا كما رفع القلم عن الصبى حتى يحتلم وان كان له فهم وتمييز لكن ذاك لانه لم يتم فهمه ولان العقل يظهر فى الناس شيئا فشيئا وهو يختلفون فيه فلما كانت الحكمة خفية ومنتشرة قيدت بالبلوغ وكما لايجب الحج الا على من ملك زادا وراحلة عند جمهور العلماء مع امكان المشي لما فيه من المشقة وكما لا يجب الصوم على المسافر مع امكانه منه تخفيفا عليه وكما تسقط الواجبات بالمرض الذي يخاف معه زيادة المرض وتاخر البرء وان كان فعلها ممكنا لكن هذه المواضع هي مما تختلف فيها الشرائع فقد يوجب الله فى شريعة ما يشق ويحرم ما يشق تحريمه كالاصار والاغلال التى كانت على بني اسرائيل وقد يخفف في شريعة اخرى كما قال مؤمنين { رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا }البقرة٢٨٦ وكما قال الله تعالى { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}البقرة١٨٥ وقال { مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ }المائدة٦ وقال {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }الحج٧٨ وقال {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ }النساء٢٨ وقال النبى لاصحابه فى قصة الأعرابي انما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين وقال لمعاذ وابي موسى يسرا ولا تعسرا وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه وقال لا تشددوا على انفسكم فيشدد الله عليكم فان اقواما شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ }الحديد٢٧ وقال لا رهبانية فى الاسلام وقال لكني اصوم وافطر واقوم وانام واتزوج النساء واكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس مني وقال ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته وروى عنه انه قال بعثت بالحنيفية السمحة [1]

إن اقتصادا في سبيل وسنة خير عن اجتهاد في خلاف سبيل وسنة

فالسعادة مشروطة بشرطين بالإيمان والعمل الصالح بعلم نافع وعمل صالح بكلم طيب وعمل صالح وكلاهما مشروط بأن يكون على موافقة الرسل كما قال أبي بن كعب رضي الله عنه عليكم بالسبيل والسنة فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا فاقشعر جلده من خشية الله إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجر وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدا وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير عن اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم إن كانت اجتهادا أو اقتصادا على منهاج الأنبياء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:٣٤٤- ٣٤٧

وسننهم وهؤلاء (يقصد الفلاسفة) ظنوا أن الكمال ليس إلا في العلم وأن العمل إنما هو وسيلة فقط ثم خرجوا في العلم والعمل عن منهاج الأنبياء وسننهم وإذا كانت النصارى لكونهم أدخلوا في عبادتهم نوعا من الشرك والبدع خرجوا عن الحنيفية إذ كانت الحنيفية أن لا نعبد إلا الله وحده وأن نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع والنصارى كما قال الله تعالى فيهم { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }الحديد٢٧ ولهذا قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }الملك٢ قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فإذا كانت النصارى على هذه الحال فكيف بهؤلاء (الفلاسفة)الذين هم أضل منهم فإن ما عند هؤلاء من الحكمة هو جزء مما عند النصارى فإن السياسة الخلقية والمنزلية والمدنية داخلة في دين النصارى الذين ابتدعوا بعضه ولم ينزل الله به وكسر الشهوة والغضب جزء من عبادة الرهبان وكذلك الزهد في المال والرئاسة جزء من حال الراهب الناقص الكافر فكيف يكون هذا هو مقصود العبادة والزهد الذي جاءت به الشريعة[1]

يحصل رضوان الله بمجرد فعل الواجبات

قال تعالى { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد٢٧ أي لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله لم نكتب عليهم الرهبانية بل هم ابتدعوها ومع ابتداعهم إياها فما رعوها حق رعايتها وكل بدعة ضلالة فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها وأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه الله لهم من واجب ومستحب فإن ذلك هو الذي يرضاه ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه ويحصل رضوان الله أيضا بمجرد فعل الواجبات وهذا هو الذي كتب على العباد فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجبا فما ليس بواجب لا يشترط في حصول ما كتب عليهم ولهذا ضعف أحمد بن حنبل وغيره الحديث المروي أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله فإن من صلى في آخر الوقت كما أمر فقد فعل الواجب وبذلك يرضى الله عنه وإن كان فعل المستحبات والمسابقة إلى الطاعات أبلغ في إرضاء الله ويحصل له بذلك من رضوان الله ومحبته ما لا يحصل بمجرد الواجبات كما قال موسى عليه السلام وعجلت إليك رب لترضى وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي أنه قال يقول الله تعالى من عادي لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي فلئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا

---

[1] الصفدية ج: ٢ ص: ٢٤٨

بد له منه فقوله حتى أحبه يريد المحبة المطلقة الكاملة وأما أصل المحبة فهي حاصلة بفعل الواجبات فإن الله يحب المتقين والمقسطين ومن أدى الواجبات فهو من المتقين المقسطين[1]

لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم

قال تعالى ُ{ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} الاخلاص٣ فهذا نفى كونه سبحانه والدا لشىء أو متخذا لشىء ولدا بأى وجه من وجوه الولادة أو اتخاذ الولد أيا كان وأما نفى كونه مولودا فيتضمن نفى كونه متولدا بأى نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره فهو رد على من قال المسيح هو الله ورد على الدجال الذى يقول انه الله ورد على من قال فى بشر أنه الله من غالية هذه الأمة فى على وبعض أهل البيت فقوله سبحانه { وَلَمْ يُولَدْ }الإخلاص٣ نفى لهذا كله فان هؤلاء كلهم مولودون والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء كقوله} ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}الحديد٢٧ وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود والله لم يولد والثانية نسبته الى مريم بأنه ابنها ليس هو ابن الله[2]

لطائف لغوية

١ـقال تعالى { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد٢٧ ورحمته اسم جامع لكل خيرودار الرحمة الخالصة هى الجنة[3]

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٦٩-١٧٢

[2] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٤٨

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

الحديد ٢٨-٢٩

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}

توحيد الله هو قلب الإيمان

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل٣٦ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }الزخرف٦٣ فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله{اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ }الحديد٢٨ [1]

محمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ أرسل الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم وأنزل عليه كتاب أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم به إلى صراط مستقيم صراط الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو دين الله الذي بعث به الرسل قبله [1]

ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق علما بالله وبأمره وأكمل الخلق اهتداء في نفسه وأهدى لغيره وأبعد الخلق عن الجهل والضلال قال تعالى {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{٢} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{٣} النجم ١-٣ قال تعالى {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة٢١٣ إلى قوله {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة٢١٣ فإنه قد هدى المؤمنين به وقال تعالى { اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الحديد٢٨ فقد كفل الله لمن آمن به أن يجعل له نورا يمشي به في الناس {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا }الأنعام١٢٢ وقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى٥٢ [2]

من قام بما جاء به الكتاب والسنة أشرف على علم الأولين والآخرين

وفي النسائي وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال أمتهوكون يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم وفي مراسيل أبي داود كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابا غير كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم ونحن نعلم يقينا بالإضطرار من دين الإسلام أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب الله تعالى علينا طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر ولم يأمر بطاعة غيره إلا إذا وافق طاعته لا نبيا ولا غير نبي فقد أكمل الله الدين لأمته على لسانه فلا يحتاجون إلا إلى من يبلغ الدين الكامل لا يحتاجون إلى محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر فلم يجزم بأن في أمته محدثا كما جزم أنه قد كان في الأمم قبلنا مع أن أمتنا أفضل الأمم وأكمل ممن كان قبلهم وذلك لأن أمتنا مستغنية عن المحدثين كما استغنوا عن نبي يأخذون عنه سوى محمد وما علموه من أمور الأنبياء فبواسطة محمد هو الذي بلغهم ما بلغهم من أمور الأنبياء وما لم يبلغهم إياه من أمور الأنبياء فلا حاجة لأمته به ولهذا لم يحجب

---

[1] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٧٧

[2] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٣٣٨ و مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٨٦

عليهم معرفة ذلك حتى يميزوا بين صدقه وكذبه كما ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا حدثكم أهل الكتاب بشيء فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم فأمر بالإيمان العام المتناول لجميع ما جاءت به الأنبياء وما لم يعلم أن ناقلها عنهم صدق أو كذب لا تصدق ولا تكذب وإذا كانت أمتنا مستغنية عن أن تأخذ من نبوة غير نبوة محمد فاستغناؤها عن المحدثين أولى ومن كانوا قبلنا كانوا محتاجين إلى الأنبياء فكذلك ربما احتاجوا إلى المحدثين وما احتاجت الأمم إليه من الأخبار الإلهية فلا بد أن يكون محفوظا معصوما لتقوم به الحجة ويحصل به مقصود الدعوة وهذا مما دل على وجوب عصمة ما جاءت به الأنبياء وعصمة ما جاء به نبينا بعد موته فحفظ الله الذكر الذي أنزله وقد أنزل عليه الكتاب والحكمة والحكمة هي السنة فحفظ الله هذا وهذا ولله الحمد والمنة ومن وجد من هذه الأمة محتاجا إلى شيء غير ما جاء به الرسول فلضعف معرفته واتباعه لما جاء به الرسول مثل كثير منهم من يقول أنه يحتاج إلى الإسرائيليات وغيرها من أحوال أهل الكتاب وآخرون منهم من يقول أنهم محتاجون إلى حكمة فارس والروم والهند واليونان وغيرهم من الأمم وآخرون يقولون أنهم محتاجون إلى ذوقهم أو عقلهم أو رأيهم بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا تجد من يقول أنه محتاج إلى غير آثار الرسول إلا من هو ضعيف المعرفة والاتباع لآثاره وإلا فمن قام بما جاء به الكتاب والسنة أشرف على علم الأولين والآخرين وأغناه الله بالنور الذي بعث به محمدا عما سواه قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد ٢٨ ٢٩[١]

للرغبة والرهبة تأثير عظيم

فللرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الإعتقاد كما للإعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك فكل واحد من العلم والعمل من الإعتقاد والإرادة يتعاونان فالعلم والإعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه والإرادة رغبة ورهبة والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل كما قال من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وفي القرآن شواهد هذا متعددة وفي قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩

كفل الله لمن آمن به أن يجعل له نورا

النور هو مادة كل خير وصلاح كل شيء وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه وعن الصبر على ذلك فانه ضياء فان حفظ الحدود بتقوى الله يجعل الله لصاحبه نورا كما قال تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } الحديد٢٨ [٢]

---

[١] الصفدية ج: ١ ص: ٢٦١

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٢٨٢

قال ابن مسعود رضى الله عنه لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله وان كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل وقال ابن مسعود الذكر ينبت الايمان فى القلب كما ينبت الماء البقل والغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل وان كان الرجل خبيرا بحقائق الايمان الباطنة فارقا بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية فيكون قد قذف الله فى قلبه من نوره كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الحديد٢٨ وقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى٥٢ فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذى رواه الترمذى عن ابى سعيد الخدرى عن النبى قال اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله قال الترمذى حديث حسن وقد تقدم الحديث الصحيح الذى فى البخارى وغيره قال فيه لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لاعطينه ولئن استعاذنى لاعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولابد له منه[1]

وقد جاء عن بعض السلف أن قلوب المؤمنين تضيء لأهل السماوات كما تضي الكواكب لأهل الأرض والمخلوق الذي تظهر محبته وذكره وطاعته في بعض البلاد يقال فلان قد ظهر في هذه الأرض فإذا ظهر ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته وتوحيده وآياته وعبادته حتى امتلأت القلوب بذلك بعد أن كانت ممتلئة بظلمة الكفر والشرك كان ذلك مما أخبر به من ظهوره وهذا أعظم ما يكون في بيوته التي يعبد فيها ويذكر فيها اسمه[2]

أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته

العمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال بعض السلف إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في القلب وضياء في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}الأنعام١٢٢ لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها فى غير موضع كقوله {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس٧٠ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }الأنفال٢٤ ثم قال { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }الأنفال٢٤ وقال تعالى { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ }يونس٣١ ومن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢١٧

[2] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٤٧

انواعه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفى الحديث الصحيح مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت وفى الصحيح ايضا اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ }الأنعام٣٩ وذكر سبحانه آية النور آية الظلمة فقال {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ }النور٣٥ فهذا مثل نور الايمان فى قلوب المؤمنين ثم قال {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {٣٩} أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ {٤٠}النور٣٩-٤٠ فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فاذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الاعمال و الثانى مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم فان صاحبها فى ظلمات بعضها فوق بعض لايبصر شيئا فان البصر إنما هو بنور الايمان والعلم قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }الأعراف٢٠١ وقال تعالى{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ }يوسف٢٤ وهو برهان الايمان الذى حصل فى قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة مكاملة ولم يكتب عليه خطيئة اذا فعل خيرا ولم يفعل سيئة وقال تعالى { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }إبراهيم١ وقال {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ }البقرة٢٥٧ وقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ ولهذا ضرب الله للايمان مثلين مثلا بالماء الذى به الحياة وما يقترن به من الزبد ومثلا بالنار التى بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين قال تعالى {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ }الرعد١٧ وقال تعالى فى المنافقين { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ{١٧} صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ{١٨} أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ{١٩} يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢٠}البقرة١٧-٢٠ فضرب لهم كالذى اوقد النار كلما اضاءت اطفأها الله والمثل المائى كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى ولبسط الكلام فى هذه الأمثال موضع آخر وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها وفى الدعاء المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا و الربيع هوالمطر الذى ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبى صلى الله عليه وسلم إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم والفصل الذى ينزل فيه اول المطر تسمية العرب الربيع لنزول المطر الذى ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذى يلى الشتاء فان فيه تخرج الأزهار التى تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار والقلب الحى المنور فانه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فانه لا يسمع ولا يبصر قال

تعالى {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }البقرة١٧١ [١]

قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى٥٢ وقال تعالى {وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الحديد٢٨) الأعراف١٥٧ فأنه جعل الروح الذي أوحاه نورا يهدي به من يشاء [٢]

إنما استحققنا الأجر بين بحفظ ما ضيعوه

روى أبو بصرة الغفاري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه و سلم العصر بالمخمص فقال إن هذه الصلاة عرضت على من قبلكم فضيعوها فمن حافظ عليها كان له اجره مرتين و لا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد و الشاهد النجم رواه احمد و مسلم و النسائي و قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي الصلاة التي عقر سليمان الخيل من اجلها لما فاتته فبين صلى الله عليه و سلم إن من قبلنا ضيعوها و ما هذا شأنه فهو جدير إن يؤمر بالمحافظة عليه و إن لنا اجرين بهذه المحافظة و هما و الله اعلم الأجران المشار إليهما بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ }الحديد٢٨ و في المثل المضروب لنا و لأهل الكتاب و هو ما رواه الجماعة من الصحابة منهم ابن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم قال إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس و مثلكم و مثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط فعملت اليهود ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر فعملت النصارى ثم قال من يعمل لي من العصر إلى مغيب الشمس على قيراطين فأنتم هم فغضبت اليهود و النصارى قالوا كنا اكثر عملا و اقل عطاء قال هل نقصتكم من حقكم قالوا لا قال فذلك فضلي أوتيه من أشاء رواه احمد والبخاري و الترمذي و صححه و ذلك إنما استحققنا الأجربين بحفظ ما ضيعوه و هو صلاة العصر و لأن المسلمين كانوا يعرفون فضلها على غيرها من الصلوات حتى علم منهم الكفار و لهذا لما صلى النبي صلى الله عليه و سلم بأصحابه صلاة الظهر بعسفان قال المشركون قد كانوا على حالة لو أصبنا غرتهم قالوا يأتي عليهم الآن صلاة هي احب إليهم من أبنائهم و أنفسهم فأنزل الله عز و جل صلاة الخوف فكانت صلاة العصر هي السبب في تزول صلاة الخوف اليسير لما خافوا من تفويتها في الجماعة و لأن في تفويتها من الوعيد ما ليس في غيرها فروى ابن عمر إن النبي صلى الله عليه و سلم قال الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله و ماله رواه الجماعة و عن أبي بكرة إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من ترك صلاة العصر حبط عمله رواه أوتيه من أشاء رواه احمد والبخاري و الترمذي و صححه و ذلك إنما استحققنا الأجربين بحفظ ما ضيعوه و هو صلاة العصر و لأن المسلمين كانوا يعرفون فضلها على غيرها من الصلوات حتى علم منهم الكفار و لهذا لما صلى النبي صلى الله عليه و سلم بأصحابه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٠٠- ١٠٣ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٩

[٢] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٤٨٨

صلاة الظهر بعسفان قال المشركون قد كانوا على حالة لو أصبنا غرتهم قالوا يأتي عليهم الآن صلاة هي احب إليهم من أبنائهم و أنفسهم فأنزل الله عز و جل صلاة الخوف فكانت صلاة العصر هي السبب في نزول صلاة الخوف اليسير لما خافوا من تفويتها في الجماعة و لأن في تفويتها من الوعيد ما ليس في غيرها فروى ابن عمر إن النبي صلى الله عليه و سلم قال الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله و ماله رواه الجماعة و عن أبي بكرة إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من ترك صلاة العصر حبط عمله رواه [1]

من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ }النور٢٢ وقال تعالى {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً }النساء١٤٩ وأمثال هذا كثير فى الكتاب والسنة ولهذا أيضا يجزى الرجل فى الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقد قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ -٦٨ وقال { قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ {١٦}}المائدة١٥ -١٦ وقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ }الحديد٢٨ وقال { إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً }الأنفال٢٩ فسروه بالنصر والنجاة كقوله يوم الفرقان وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ {٣}}الطلاق٢-٣ وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب قوله {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ }محمد١٧ وقوله {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }الكهف١٣ ومنه قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{٣}} الفتح ١-٣ وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }الصف٥ وقال { وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ }النساء١٥٥ وقال {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً }المائدة١٣ وقال { وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠} الانعام١٠٩-١١٠ وهذا باب واسع ولهذا قال من قال من السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فإذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم وإذ عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل [2]

---

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ١٥٩-١٦٠

[2] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٢٥ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٧٦ و مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٤٣ الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٢٥ و رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٢٩

أول التوبة العلم بأن فعله سيء

أن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه أو أنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب ولكن التوبة ممكنة وواقعه بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ وقال تعالى البقرة الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور [1]

من ثواب الحسنة الحسنة بعدها

فمن يتبع من الحق ما علمه يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق فمن عمل بما علم اورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ }محمد١٧ وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨} النساء٦٦ -٦٨ وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ وقال تعالى {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ }البقرة٢٥٧ وقال تعالى { قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{١٥} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{١٦}المائدة١٥- ١٦ وشواهد هذا كثيرة فى الكتاب والسنة وكذلك من اعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه فان ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }الصف٥ وقال تعالى {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً }البقرة١٠ وقال تعالى { وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١١٠ وهذا استفهام نفى وانكار اي وما يدريكم انها اذا جاءت لا يؤمنون وانا نقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة على قراءة من قرأ انها بالكسر تكون جزما بأنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى انه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان

---

[1] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٣٩ و التحفة العراقية ج: ١ ص: ٣٩

الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبى ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب يستلزم الفجور [1]

الايمان يزيد وينقص

كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك فى احدى الروايتين ومنهم من يقول يتفاضل كعبدالله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن ابى جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمى وهو من أصحاب رسول الله قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه وروى اسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبى الدرداء قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض اشياخنا أن ابا الدرداء قال ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الايمان أم ينقص وان من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتيه وروى اسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبدالله بن ربيعة الحضرمى عن ابى هريرة قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر قال كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه هلموا نزدد ايمانا فيذكرون الله عز وجل وقال ابو عبيد فى الغريب فى حديث على أن الايمان يبدو لمظة فى القلب كما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبدالله عن عمرو بن هند الجملى عن على قال الأصمعى اللمظة مثل النكتة أو نحوها وقال أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبدالله بن عكيم قال سمعت إبن مسعود يقول فى دعائه اللهم زدنا ايمانا ويقينا وفقها وروى سفيان الثورى عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال كان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى وروى أبو اليمان حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد أن عبدالله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن فى مجلس ذكر وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان الانصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخارى فى صحيحه وقال جندب بن عبدالله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فإزددنا ايمانا والآثار فى هذا كثيرة رواها المصنفون فى هذا الباب عن الصحابة والتابعين فى كتب كثيرة معروفة قال مالك بن دينار الإيمان يبدو فى القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة واماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه أوشك أن ينمو أو يزداد ويصير له اصل وفروع وثمرة وظل الى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال وان صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبى فذهب بها وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو اهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان وقال خيثمة بن عبدالرحمن الايمان يسمن فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠-١١

الخصب ويهزل فى الجدب فخصبه العمل الصالح وجدبه الذنوب والمعاصى وقيل لبعض السلف يزداد الايمان وينقص قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال وينقص حتى يصير أمثال الهباء وفى حديث حذيفة الصحيح حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان وفى حديثه الآخر الصحيح تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر اسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما اشرب هواه وفى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم الادلة على زيادة الايمان ونقصانه لانه وصفهم بقوة الايمان وزيادته فى تلك الخصال التى تدل على قوة ايمانهم وتوكلهم على الله فى أمورهم كلها وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن عبدالله اليزنى عن أبى رافع أنه سمع رجلا حدثه أنه سأل رسول الله عن الإيمان فقال أتحب أن أخبرك بصريح الايمان قال نعم قال اذا أسأت أو ظلمت أحدا عبدك أو أمتك أو احدا من الناس حزنت وساءك ذلك واذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك ورواه بعضهم عن يزيد عمن سمع النبى أنه سأله عن زيادة الايمان فى القلب ونقصانه فذكر نحوه وقال البزار حدثنا محمد بن ابى الحسن البصرى ثنا هانئ بن المتوكل ثنا عبدالله بن سليمان عن اسحاق عن أنس مرفوعا ثلاث من كن فيه استوجب الثواب وإستكمل الايمان خلق يعيش به فى الناس وورع يحجزه عن معصية الله وحلم يرد به جهل الجاهل و أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا فالخصال الاولى تدل على زيادة الإيمان وقوته والاربعة الاخر تدل على ضعفه ونقصانه وقال ابو يعلى الموصلى ثنا عبدالله القواريرى ويحيى بن سعيد قالا ثنا يزيد بن زريع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا عوف حدثنى عقبة بن عبدالله المزنى قال يزيد فى حديثه فى مسجد البصرة حدثنى رجل قد سماه ونسى عوف اسمه قال كنت بالمدينة فى مسجد فيه عمر بن الخطاب فقال لبعض جلسائه كيف سمعتم رسول الله يقول فى الاسلام فقال سمعته يقول الإسلام بدأ جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سداسيا ثم بازلا فقال عمر فما بعد البزول الا النقصان كذا ذكره أبو يعلى فى مسند عمر وفى مسند هذا الصحابى المبهم ذكره أولى قال أبو سليمان من أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ومن أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات كقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }الأنفال٢ وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات أى وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ما لم يكن فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الايمان وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران١٧٣ فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازداوا يقينا وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده وقال تعالى {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ {١٢٤} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ{١٢٥}التوبة١٢٤-١٢٥ وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم ايمانا بحسب مقتضاها فان كانت أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وان كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ {١٢٤}التوبة١٢٤ والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ

}الرعد٣٦ والفرح بذلك من زيادة الايمان قال تعالى {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ }يونس٥٨ وقال تعالى }وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {٤} بِنَصْرِ اللَّهِ {٥}الروم٤ -٥ وقال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً }المدثر٣١ وقال {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ }الفتح٤ وهذه نزلت لما رجع النبى وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان والسكينة طمأنينة فى القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين {ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا }التوبة٢٦ وقال تعالى { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا }التوبة٤٠ ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وانما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة فى قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم دل على أن الايمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافى لليقين يكون ريبا فى العلم وريبا فى طمأنينة القلب ولهذا جاء فى الدعاء المأثور اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا وفى حديث الصديق الذى رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن النبى أنه قال سلوا الله العافية واليقين فما أعطى أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية فسلوهما الله تعالى فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن١١ قال علقمة ويروى عن إبن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى { يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن١١ هداه لقلبه هو زيادة فى ايمانه كما قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى }محمد١٧ وقال { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }الكهف١٣ ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر فى القرآن مقيدا فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به بل يجعل موجبا للوازمه وتمام ما امر به وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ {٩}الحديد٧ -٩ وقال تعالى فى آخر السورة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الحديد٢٨ وقد قال بعض المفسرين فى الآية الأولى أنها خطاب لقريش وفى الثانية أنها خطاب لليهود والنصارى وليس كذلك فإن الله لم يقل قط للكفار يا ايها الذين آمنوا ثم قال بعد ذلك {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد٢٩ وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }الحديد٨ وهذا لا يخاطب به كافر وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم وانما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له فإن كل من كان مسلما مهاجرا كان يبايع النبى كما بايعه الانصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنا وظاهرا كما نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم فى كل صلاة وان كان قد هدى

المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة لكن الهداية المفصلة فى جميع ما يقولونه ويفعلونه فى جميع أمورهم لم تحصل وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هى من الإيمان المأمور به وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور [1]

{ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ }

قد قال النبى لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهذا كثير فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم فهؤلاء يدخلون الجنة وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ولا تركوا واجبا عليهم وان كان واجبا على غيرهم ولهذا كان من الايمان ما هو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ }محمد١٧ وقال {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى }مريم٧٦ وقال {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ }الفتح٤ ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق كما قال { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً {٦٦} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً {٦٧} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٦٨}النساء٦٦ -٦٨ كما قال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ وكما قال { أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ }المجادلة٢٢ ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضا بفضل الله وإعانته واقداره لهم لكن الأمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم لاعانة الله لهم كالقيام والقعود ومنه ما جنسه غير مقدور لهم اذا قيل ان الله يعطى من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادرا على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضا حق وهو من جنس هذا المعنى قال تعالى {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ }الأنفال١٢ وقد قال {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ }الأنفال٤٥ فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى إلى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذاك بهذا الايمان وان لم يكن المفضول ترك واجبا فيقال وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبى فى الحديث الصحيح إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكما قال تعالى {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٢٢٣- ٢٣١

الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً } النساء٩٥ فإستثنى أولى الضرر وفى الصحيحين عن النبى أنه قال
من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن
دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا
وفى حديث أبى كبشة الأنمارى هما فى الأجر سواء وهما فى الوزر سواء رواه الترمذى
وصححه ولفظه إنما الدنيا لأربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يتقى فى ذلك المال ربه ويصل فيه
رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية
يقول لو ان لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما
يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل
وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما
سواء ولفظ ابن ماجه مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل
بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت
فيه مثل الذى يعمل قال رسول الله فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو
يختبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ورجل لم يؤته علما ولا مالا وهو يقول لو كان لى مثل مال هذا
عملت مثل الذى يعمل فهما فى الوزر سواء كالشخصين إذا تماثلا فى ايمان القلوب معرفة
وتصديقا وحبا وقوة وحالا ومقاما فقد يتماثلان وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن
الآخر كما جاء فى الأثر أن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه
فى قلبه ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح ليس الشديد ذو الصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه
عند الغضب وقد قال رأيت كأنى أنزع على قليب فأخذها ابن أبى قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين
وفى نزعه ضعف والله يغفر له فأخذها ابن الخطاب فاستحالت فى يده غربا فلم أر عبقريا يفرى فريه
حتى صدر الناس بعطن فذكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل
قوة عمر فلا ريب أن أبا بكر أقوى ايمانا من عمر وعمر أقوى عملا منه كما قال ابن مسعود ما زلنا
أعزة منذ أسلم عمر وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل
غيره وما فعله عمر فى سيرته مكتوب مثله لأبى بكر فانه هو الذى استخلفه وفى المسند
من وجهين عن النبى صلى الله عليه وسلم أن النبي وزن بالامة فرجح ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح
ثم وزن عمر بالامة فرجح وكان فى حياة النبى وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبى بكر من الإيمان
والعلم ما لم يكن عنده فهو قد دعاه الى فعله من خير واعانه عليه بجهده والمعين على الفعل اذا كان
يريده ارادة جازمة كان كفاعله كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال
من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا وقال من دل على خير فله مثل أجر
فاعله وقال من فطر صائما فله مثل أجره وقد روى الترمذى من عزى مصابا فله
مثل أجره وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان فى الأعمال الظاهرة بل يتفاضلان
ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر لأنه أفضل فى الإيمان الذى فى القلب وأما إذا تفاضلا
فى إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله ألبتة وإن كان المفضول لم يهبه الله من
الايمان ما وهبه للفاضل ولا أعطى قلبه من الأسباب التى بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى
المفضول ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض وان كان الفاضل أقل عملا من المفضول كما
فضل الله نبينا ومدة نبوته بضع وعشرون سنة على نوح وقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما
وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار إلى صلاة
الظهر وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين وأعطى كلا من
أولئك أجرا أجرا لأن الايمان الذى فى قلوبهم كان أكمل وأفضل وكان أولئك أكثر عملا وهؤلاء

أعظم أجرا وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب التى تفضل بها عليهم وخصهم بها وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فانه يفضله بالأسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله فى الجزاء بما فضل به من الايمان كما قال تعالى { وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٧٢}وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }آل عمران٧٢-٧٣ وقال فى الآية الأخرى { اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ }الأنعام١٢٤ وقال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ }الحج٧٥ وقال {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}البقرة٢٨٤ وقد بين فى مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق[١]

أبر هذه الأمة قوم اختارهم الله لصحبة نبيه

فأئمة المسلمين مثل مالك وحماد بن زيد والثوري ونحوهم إنما تكلموا بما جاءت به الرسالة وفيه الهدى والشفاء فمن لم يكن له علم بطريق المسلمين يعتاض عنه بما عند هؤلاء(يقصد الفلاسفة والمتكلمين) وهذا سبب ظهور البدع في كل أمة وهو خفاء سنن المرسلين فيهم وبذلك يقع الهلاك ولهذا كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة قال مالك رحمه الله السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك وهذا حق فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين وأتباع السنة هو اتباع الرسالة التي جاءت من عند الله فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح السفينة باطنا وظاهرا والمتخلف عن اتباع الرسالة بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه وهكذا إذا تدبر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم التي فيها ضلال وكفر وجد القرآن والسنة كاشفان لأحوالهم مبينان لحقهم مميزان بين حق ذلك وباطله والصحابة كانوا أعلم الخلق بذلك كما كانوا أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين كما قال فيهم عبدالله بن مسعود من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم فأخبر عنهم بكمال بر القلوب مع كمال عمق العلم وهذا قليل في المتأخرين كما يقال من العجائب فقيه صوفي وعالم زاهد ونحو ذلك فإن أهل بر القلوب وحسن الإرادة وصلاح المقاصد يحمدون على سلامة قلوبهم من الإرادات المذمومة ويقترن بهم كثيرا عدم المعرفة وإدراك حقائق أحوال الخلق التي توجب الذم للشر والنهي عنه والجهاد والجهاد في سبيل الله وأهل التعمق في العلوم قد يدركون من معرفة الشرور والشبهات ما يوقعهم في أنواع الغي والضلالات وأصحاب محمد كانوا أبر الخلق قلوبا وأعمقهم علما ثم إن أكثر المتعمقين في العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين وهو القول والعمل بلا علم وطلب ما لا يدرك وأصحاب محمد كانوا مع أنهم أكمل الناس علما نافعا وعملا صالحا أقل الناس تكلفا يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من

[١]مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٣٩-٣٤٤

الحكمة أو من المعارف ما يهدي الله بها أمة وهذا من منن الله على هذه الأمة وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات ما هو من أعظم الفضول المبتدعة والآراء المخترعة لم يكن لهم في ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده في الدين ويروى أن الله سبحانه قال للمسيح إني سأخلق أمة أفضلها على كل أمة وليس لها علم ولا حلم فقال المسيح أي رب كيف تفضلهم على جميع الأمم وليس لهم علم ولا حلم قال أهبهم من علمي وحلمي وهذا من خواص متابعة الرسول فأيهم كان له أتبع كان في ذلك أكمل كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد ٢٨-٢٩ وكذلك في الصحيحين من حديث أبي موسى وعبدالله بن عمر مثلنا ومثل الأمم قبلنا كالذي استأجر أجراء فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود ثم قال من يعمل لي إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى ثم قال من يعمل لي إلى غروب الشمس غلى قيراطين فعملت المسلمون فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملا وأقل أجرا قال فهل ظلمتكم من حقكم شيئا قالوا لا قال فهو فضلي أوتيه من أشاء فدل الكتاب والسنة على أن الله يؤتي أتباع هذا الرسول من فضله ما لم يؤته لأهل الكتابين قبلهم فكيف بمن هو دونهم من الصابئة دع مبتدعة الصابئة من المتفلسفة ونحوهم ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول واتباعه فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل فهذا الكلام تنبيه على ما يظنه أهل الجهالة والضلالة من نقص الصحابة في العلم والبيان أو اليد والسنان وبسط هذا لا يتحمله هذا المقام والمقصود التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله او مقاله أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية في أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر وتعرف واجب الوجود والنفس الناطقة والعلوم والأخلاق التي تزكوا بها النفوس وتصلح وتكمل دون أهل الحديث فهو إن كان من المؤمنين بالرسل فهو جاهل فيه شعبة قوية من شعب النفاق وإلا فهو منافق خالص من الذين {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ }البقرة١٣ وقد يكون من {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ }غافر٣٥ ومن {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ }الشورى١٦ وقد يبين ذلك بالقياس العقلي الصحيح الذي لا ريب فيه وإن كان ذلك ظاهرا بالفطرة لكل سليم الفطرة فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقومهم قولا وحالا لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق ولا يقال هذه الفطرة يغيرها ما يوجد في المنتسبين إلى السنة والحديث من تفريط وعدوان لأنه يقال إن ذلك في غيرهم أكثر والواجب مقابلة الجملة بالجملة في المحمود والمذموم هذه هي المقابلة العادلة وإنما غير الفطرة قلة المعرفة بالحديث والسنة واتباع ذلك مع ما يوجد في المخالفين لها من نوع تحقيق لبعض العلم وإحسان لبعض العمل فيكون ذلك شبهة في قبول غيره وترجيح صاحبه ولا غرض لنا في ذكر الأشخاص وقد ذكر أبو محمد بن قتيبة في أول كتاب مختلف الحديث وغيره من العلماء في هذا الباب ما لا يحصى من الأمور المبينة لما ذكرناه وإنما المقصود ذكر نفس الطريقة العلمية والعملية التي تعرف بحقائق الأمور الخبرية النظرية وتوصل إلى حقائق الأمور الإرادية العملية فمتى كان غير الرسول قادرا على علم بذلك أو بيان له أو محبة لإفادة ذلك فالرسول أعلم بذلك وأحرص على الهدى وأقدر على بيانه منه وكذلك أصحابه من بعده وأتباعهم وهذه صفات الكمال والعلم

والإرادة والإحسان والقدرة عليه كما قال النبي في دعاء الاستخارة اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب فعلمنا صلى الله عليه وسلم أن نستخير الله بعلمه فيعلمنا من علمه ما نعلم به الخير ونستقدره بقدرته فيجعلنا قادرين إذ الاستفعال هو طلب الفعل كما قال في الحديث الصحيح يقول الله تعالى يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم ضال إلامن هديته فاستهدوني أهدكم فاستهداء الله طلب ان يهدينا واستطعامه طلب أن يطعمنا هذا قوت القلوب وهذا قوت الأجسام وكذلك استخارته بعلمه واستقداره بقدرته ثم قال وأسألك من فضلك العظيم فهذا السؤال من جوده ومنه وعطائه وإحسانه الذي يكون بمشيئته ورحمته وحنانه ولهذا قال فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ولم يقل إني لا أرحم نفسي لأنه في مقام الاستخارة يريد الخير لنفسه ويطلب ذلك لكنه لا يعلمه ولا يقدر عليه إن لم يعلمه الله إياه ويقدره عليه فإذا كان الرسول أعلم الخلق بالحقائق الخبرية والطلبية وأحب الخلق للتعليم والهداية والإفادة وأقدر الخلق على البيان والعبارة امتنع أن يكون من هو دونه أفاد خواصه معرفة الحقائق أعظم مما أفادها الرسول لخواصه فامتنع أن يكون عند أحد من الطوائف من معرفة الحقائق ما ليس عند علماء الحديث وإذا لم يكن في الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها منه وجب أن يكون كل ما يذمون به من جهل بعضهم هو في طائفة المخالف الذام لهم أكثر فيكون الذام لهم جاهلا ظالما فيه شعبة نفاق إذا كان مؤمنا وهذا هو المقصود ثم إن هذا الذي بيناه مشهود بالقلب أعلم ذلك في كل أحد ممن أعرف مفصلا وهذه جملة يمكن تفصيلها من وجوه كثيرة لكن ليس هذا موضعه [1]

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وقال غيره عليكم بآثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه هذا وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم فكيف يحدث لنا زمان في الخير في أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى هذا لا يكون أبدا وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا وغاية ما عند السلف أن يكونوا موافقين لرسول الله فإن عامة ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد الذي قال الله فيه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٣٧-١٤٣

{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد٢٨-٢٩[1]

العمل بموجب العلم يثبته ويقرره

فإن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره ومخالفته تضعفه بل قد تذهبه قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد٢٨-٢٩ وأما العلم فيراد به في الأصل نوعان أحدهما العلم به نفسه وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام وما دلت عليه أسماؤه الحسنى وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة فإنه لا بد أن يعلم أن الله يثيب على طاعته ويعاقب على معصيته كما شهد به القرآن والعيان وهذا معنى قول أبي حبان التيمي أحد أتباع التابعين العلماء ثلاثة عالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله وبأمر الله فالعالم بالله الذي يخشى الله والعالم بأمر الله الذي يعرف الحلال والحرام وقال رجل للشعبي أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله وقال عبدالله بن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالإغترار بالله جهلا والنوع الثاني يراد بالعلم بالله العلم بالأحكام الشرعية كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ترخص في شيء فبلغه أن أقواما تنزهوا عنه فقال ما بال أقوام يتنزهون عن أشياء أترخص فيها والله إني لأعلمكم بالله وأخشاكم له وفي رواية والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده فجعل العلم به هو العلم بحدوده[2]

يدا الله صفتان من صفات ذاته

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩} الحديد٢٨-٢٩ فإن الناس فى يدى الله على ثلاثة اقوال أما أهل السنة فيقولون يدا الله صفتان من صفات ذاته حكمها حكم جميع صفاته من حياته وعلمه وقدرته وارادته وكلامه فيثبتون جميع صفاته التى وصف بها نفسه ووصفه بها أنبياؤه وان شاركت أسماء صفاته اسماء صفات غيره كما ان له اسماء قد يسمى بها غيره مثل رؤوف رحيم عليم سميع بصير حليم صبور شكور قدير مؤمن على عظيم كبير مع نفى المشابهة فى الحقيقة والمماثلة كما فى قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى١١ جمعت هذه لآية بين الاثبات والتنزيه ونسبة صفاته اليه كنسبة خلقه اليه والنسبة والاضافة تشابه النسبة والاضافة ومن هذا الوجه جاء الاشتراك فى أسمائه وأسماء صفاته ما شبهت الرؤية برؤية الشمس والقمر تشبيها للرؤية لا للمرئى كما ضرب مثله مع عباده المملوكين كمثل بعض خلقه مع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٥٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٣٣-٣٣٤

مملوكيهم وله المثل الاعلى فى السموات فتدبر هذا فانه مجلاة شبهة ومصفاة كدر فجميع ما نسمعه وينسب اليه ويضاف من الاسماء والصفات هو كما يليق بالله ويصلح لذاته والفريقان الآخران اهل التشبيه والتمثيل منهم من يقول يد كيدى تعالى الله عن ذلك واهل النفى والتعطيل يقولون اليدان هما النعمتان والقدرتان والله اكبر كبيرا[1]

أن في جزاء المؤمنين مقاصد أخرى

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ ومعلوم أن في جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب وما معه))وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦} سورة يس الآية ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم[2]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢٩}الحديد٢٨-٢٩ أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد[3]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ{٥٤} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ{٥٥} القمر٥٤ -٥٥ وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{٣}الطلاق٢ -٣ وقوله { فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً }النساء٩ وقوله {اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩ وأمثال ذلك فقوله { فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٦٦

[2] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٤

[3] الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٩٠

سَدِيداً }النساء٩   مثل قوله   {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ }الحديد٧ وقوله {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }البقرة٢٨٥   فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوى ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول وكذلك قوله   {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }الحديد٧ واذا أطلق الايمان بالله فى حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول وكذلك قوله   { كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ }البقرة٢٨٥   واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع وكذلك قوله   {والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ }البقرة٤ وقوله   {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ }البقرة١٣٦ الآية واذا قيل { فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ }الأعراف١٥٨   دخل فى الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والرسل والنبيين وكذلك اذا قيل {وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ }الحديد٢٨   واذا قيل   {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ }الحديد٧ دخل فى الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله والانفاق يدخل فى قوله فى الآية الأخرى   { فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ }الأعراف١٥٨   كما يدخل القول السديد فى مثل قوله   { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ}النساء١٣١ [1]

لطائف لغوية

١ـقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } الحديد٢٨   ورحمته   اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هى الجنة [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###